سفاح المحطة

رامي الجوهري - سفاح المحطة ، رواية

رقم الإيداع : ٢٠١٧/٢٣٣٠٦ ISBN : 978-977-798-092-0

إن دار الحلم للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره ، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار
ولا يجوز طبع أو إعادة استخدام أي جزء من العمل في أي صورة كانت
إلا بموجب موافقة خطية من الناشر .

© دار الحلم للنشر والتوزيع

عضو اتحاد الناشرين المصريين

القاهرة - جمهورية مصر العربية

Mob : 00201141824562

dar_el7elm@hotmail.com

info.darel7elm@Gmail.com

سفاح المحطة

رواية

رامي الجوهري

الحلم للنشر و التوزيع

4 سفاح المحطة

إهداء

إلى أمي ..
لك أولًا وأخيرًا .... لأنك كل شئ.

إلى من رحل عنا بجسده وبقيت ذكراه الطيبة حاضرة بيننا ..
أبي الحبيب .. أفتقدك.

إلى زهرة عمري الوليدة وأملي الوحيد ..
إلى (أحمد).

6 سفاح المحطة

السفاح .. هـو قاتـل قـام عـلى الأقـل بثلاثـة جرائـم قتـل منفصلـة عـن بعضهـا بأيـام إلى سـنوات وهـو بجرائمـه يشـعر بالـرضى عـن مـوت ضحيتـه ...

السفاح .. هـو فى الغالـب مـن يكـون فيـه خلـل نفـسى يتجـلى فى شرهـه المـرضى بالمـوت والمتعـة التـى يحصّلهـا مـن جرائمـه وأحساسـه بالقـوة والعلـو ...

تعريف **السفاح** تبعا لمكتب إحصائيات القضاء الأمريكى..

(Bureau Of Justice Statistics)

الظلم والأنتقام سلسلة من الشر متصلة مفرغة .. لا فكاك منها

محمد كامل حسين

لا يطفئ الثأر الجراح .. كما لا يروى الماء المالح الظمأ

وولتر ويكلر

فى سعيك للإنتقام .. أحفر قبرين .. أحدهما لنفسك

دوج هورتون

الفصل الأول

الأسكندرية.... شتاء ٢٠١٥م

غيوم كثيفة داكنة زحفت ببطء تجاه بعضها البعض و شيئًا فشيئًا تجمعت لتحجب شمس صباح ذلك اليوم من أيام شهر يناير الذى أزدادت لياليه بروده مع موجة الصقيع التى تضرب البلاد فى تلك الفترة وهبت رياح باردة مُحملة بأتربة جعلت (منصور) يضم ياقة معطفه الشتوى الثقيل ويُحكم لف الكوفية حول رقبته بينما يديه تُحيط بكوب من الشاى الساخن علها تلتمس من سخونته بعض من الدفء المفقود وعيناه تتابعان العمال وهم يقومون بإزالة الركام الناتج عن هدم ذلك المنزل الكائن بجوار محطة قطار الاسكندرية.

كان الريس (منصور) كما أعتاد رجاله أن يلقبوه من أشهر المقاولون بالأسكندرية وقد أشترى هذا المنزل القديم ليقيم مكانه برج سكنى حديث يدر عليه أرباحًا كبيرة تُساعده فى زيادة حجم شركة المقاولات التى أنشأها مؤخرًا والتى يتبعها نمو وزيادة ثروته أضعافًا مضاعفة.

كان البرد شديدًا إلا أن هذا لم يمنع (منصور) من أن يتراجع بظهره فى كرسيه وهو يُطلق تنهيدة أرتياح شديد وهو يتذكر كيف بدأ حياته عندما أتى من الصعيد لأول مرة إلى الأسكندرية وكيف بدأ

كعامـل بنـاء بسيط بأجـر ضئيـل دون أن يكـون لديـه عمـل ثابـت أو مـكان يأويـه وكيـف قـضى أيامًـا طويلـة يقتـات عـلى القليـل وينـام فى الحدائـق العامـة.

لقـد تحمـل الكثـير والكثـير إلى أن جمـع النـواة الأولى لثروتـه التـى حرص عـلى نموهـا بالكـد والعمـل يومًـا بيـوم بـل لحظـة بلحظـة إلى أن أصبـح الآن الحـاج (منصـور المحمـدى) صاحـب شركـة المقاولات الشـهير.

أسـتغرق (منصـور) فى أحلامـه وحسـاباته عـدة سـاعات إلى مـا بعـد الظهـيرة .. كان العـمال قـد أنتهـوا مـن إزالـة الـركام وبـدأ الحفـر باللـوادر والمعـدات المتواجـدة معهـم فى موقـع الحفـر لرمـى الأسـاسـات ولم تمـض دقائـق قليلـة حتـى تعـالى صراخ بعـض العـمال مـما لفـت أنتبـاه الجميـع بمـن فيهـم الريـس (منصـور) الـذى هـب مـن مقعـده بينـما أحـد العـمال يـأتى إليـه مهـرولًا وهـو يهتـف:

- يا ريس (منصور).....يا ريس (منصور).

أستقبله (منصور) بالسؤال وملامح القلق تغزو وجهه:

- ماذا هناك يا (هلال)؟ .. ما الذى حدث؟ .. وما كل هذه الضجة؟

أجابه (هلال) وهو يلهث أنفعالًا وذعرًا:

- هناك فى موقع الحفر لن تصدق ماذا وجدنا.

- ماذا وجدتم .. تكلم؟

لـوح (هـلال) بذراعـه تجاه موقـع الحفـر وبـدا للحظـة وكأن الكلـمات لا تجـد طريقًـا للسـانه قبـل أن يقـول:

- الأفضل أن تأتى وترى بنفسك.

أندفـع (منصـور) مـع مسـاعده إلى حيـث تجمهـر العـمال فأزاحهـم

بيـده وألقـى بنظـره إلى حيـث ينظـرون قبـل أن يرتـد بجسـده إلى الـوراء مصعوقًا فـما رآه أمـام عينيـه كان أبعـد مـا يكـون عـن مخيلتـه فأمامـه مبـاشرة وفى موقـع الحفـر كانـت تتناثـر الكثـير مـن الهيـاكل والعظـام المتناثـرة المختلطـة بالرمـال.

ظل (منصور) يحدق فى ما أمامه وهو يردد:

- ما هذا النهار الأسود؟!!

بينما نظر له مساعده (هلال) متسائلًا:

- ماذا سنفعل الآن يا ريس؟

أجابه (منصور) وهو لايزال ينظر لما أمامه ويضرب كفًا بكف:

- سنُبلغ الشرطة بالطبع وهل فى يدينا شئ غير ذلك.

أندفـع مسـاعده يتصـل بالشرطـة بينـما ظـل (منصـور) واقفًـا مكانـه يحـدق للعظـام والجماجـم المتناثـرة أمامـه قبـل أن يهـز رأسـه مغمغـمًا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

*****

تراقصت أضواء سيارات الشرطة التى تجمعت مع الحصار الأمنى المحكم الذى ضُرب حول موقع الحفر بينما تجمهر العامة الذين أثارتهم هذه الضجة يتابعون من بعيد ما يحدث ورجال البحث الجنائى والطب الشرعى يقومون بعملهم فى نفس الوقت الذى توقفت فيه سيارة أخرى من سيارات الشرطة هبط منها الرائد (شريف مدكور) .. كان فى منتصف الثلاثينيات تبدو عليه ملامح القوة من آثار التدريبات الرياضية مع وجه قسيم الملامح ذو نظرات حادة صارمة تظهر جلية من خلال عينيه اللتين يعلوهما حاجبين كثين يزيدان ملامحه حدة وصرامة بينما يكلل رأسه شعر أسود مصفف بعناية إلى الخلف.

أشعل (شريف) سيجارته ونفث دخانها فى ضيق بدا واضحًا فى ملامحه وهو ينظر لما يحدث قبل أن يراه أحد رجال المباحث الشباب الذى أقترب منه بخطى سريعة وهو يرفع يده محييًا و(شريف) يعاجله بالسؤال قائلًا:

- ماذا هناك؟ .. هل توصلتم لشئ؟

أجابه النقيب (عادل) وهو يُشعل بدوره سيجارته:

- لم تتوفر معلومات واضحة حتى الآن ولكن يبدو أن هناك جثث كثيرة كانت مدفونة هنا من كمية العظام التى أستخرجناها ويبدو أن هناك المزيد.

- حسنًا إلى أن تتوفر معلومات جديدة أريد منك كل المعلومات الممكنة عن هذه الأرض وعن تاريخها والناس الذين عاشوا فيها.

ثم التفت إلى موقع الحفر حيث يتواجد رجال البحث الجنائى

والطـب الشرعـى متسـائلًا:

- من المُتواجد من الطب الشرعى؟

ألقى (عادل) بنظره إلى حيث ينظر قبل أن يُجيب قائلًا:

- الدكتور (عماد مشالى).

تقلصت ملامح (شريف) فى أستياء وهو يقول:

- ياللسخافة.

أرتسمت أبتسامة مشفقة على شفتى (عادل) وهو يقول:

- الدكتور (عماد) دقيق فى عمله.

نظر له (شريف) للحظة ثم قال فى سخط:

- لكنه سخيف فى معاملته.

قالهـا ثـم أخـذ يقـترب إلى حيـث يقومـون بإسـتخراج الهيـاكل العظميـة وجـال ببـصره فيـما حولـه قبـل أن تلتقـى عينـاه بعينـى (عـماد) الـذى أبتسـم لـه فى سـماجة قبـل أن يُشـيح بوجهـه عنـه موجهًـا تعليـمات لأحـد مسـاعديه فزفـر (شريـف) فى ضيـق وأقـترب أكـثر مـن (عـماد) وهـو يتمتـم بصـوت خفيـض:

- الصبر يا رب.

تقـدم مـن (عـماد) وهـو ينفـث دخـان سـيجارته مـما أثـار أسـتياء الأخـير الـذى لاحظـه (شريـف) وإن تجاهلـه وهـو يسـأل:

- ماذا لديك لى؟ .. أهناك جديد؟

أجابه (عماد):

- لاشـئ حتـى الآن .. يجـب جمـع العينـات بالكامـل وتصنيفهـا وإرسـالها إلى المعمـل لتحليلهـا قبـل إعطـاء أى تفاصيـل ولكـن مبدئيًـا هـذه العظـام مدفونـة منـذ مـدة ليسـت بالقصـيرة.

أثار كلامه أنتباه (شريف) فعاد يسأله:

- ماذا تعنى؟

- هـذه الجثـث مدفونـة منـذ فـترة طويلـة ليسـت عامًـا أو عامـين بـل قـل نصـف قـرن عـلى الأقـل وكلهـا قُتلـت تقريبًـا فى فـترة واحـدة فى تقديـرى وهـذا مـن حالـة العظـام التـى وجدناهـا.

أستغرق (شريف) فى التفكير للحظة قبل أن يسأل:

- متى تستطيع تقديم تقرير كامل عن القضية؟

أجابه (عماد):

- أمامنـا أسـبوع عـلى أقـل تقديـر لحـصر جميـع العينـات وتحليلهـا وتحديـد نـوع الضحايـا ووقـت الوفـاة التقريبـى قبـل تقديـم التقريـر النهـائى.

هز (شريف) رأسه متفهمًا وهو يقول:

- عظيـم إلى أن يتـم تجهيـز التقريـر سـنقوم نحـن بعمـل تحرياتنـا لنكسـب بعـض الوقـت.

قالها والتفت إلى (عادل) الذى دنا منهما قائلًا:

- (عادل) .. من المسئول عن عملية البناء؟

- المقاول (منصور المحمدى).

-إذن أصرف جميـع العـمال ولكـن أبلـغ المقـاول أننـا سنسـتدعيه قريبـاً لبـدأ التحقيـق ريثـما ننتهـى مـن جميـع التحريـات الممكنـة عـن هـذه القضيـة.

قالها دون أن يدرى أن هذه القضية ستغير الكثير...

فى حياته هو على الأقل.

*****

إدارة المباحث الجنائية ..

بعد ثلاثة أيام ..

دلـف (شريـف) إلى مكتبـه بـإدارة المباحـث الجنائيـة وخلـع سـترته ليعلقهـا بحـرص عـلى المشـجب وهـو يتنـاول منهـا علبـة سـجائره ثـم جلـس خلـف مكتبـه قبـل أن يتطلـع إلى الريـس (منصـور) الـذى جلـس أمامـه باديًـا عليـه الأرتبـاك الشـديد وهـو يفـرك يديـه فى توتـر ..

ظـل يتطلـع إليـه لحظـات ثـم مـد يـده إلى علبـة سـجائره وتنـاول منهـا سـيجارتين نـاول أحداهـما إلى (منصـور) وأشـعلها لـه ثم أشـعل سـيجارته هـو ونفـث دخانهـا قبـل أن يبتـدره قائـلًا:

- أسمك (منصور المحمدى).

هز (منصور) رأسه أن نعم فعاد يسأله:

- قل لى متى أشتريت هذه الأرض ومن باعها لك؟

أجابه (منصور) بسرعة:

- أشـتريتها منـذ حـوالى سـنة وهـذه الأرض كانـت بيـت قديـم يمتلكـه ورثـة قـررت هدمـه وإعـادة بنائـه مـن جديـد.

- من هم هؤلاء الورثة؟

- أنـا لا اعرفهـم كلهـم أنـا تعاملـت فقـط مـع أحدهـم بصفتـه وكيـلًا عـن الآخريـن.

- ما أسمه؟

- الأسـتاذ (أحمـد الطحـان) وهـو محـام يسـكن حاليًـا فى منطقـة محطـة الرمل.

التقط (شريف) قلمًا ودوَّن الأسم والعنوان فى ورقة صغيرة ثم عاد لسؤال الريس (منصور):

- ما معلوماتك عن هذا العقار؟

- كل ما أعرفه أن العقار كان ملك لأسرة الأستاذ (أحمد) ثم تم إغلاقه بعد وفاة جدته منذ فترة طويلة ومن حينها والمنزل مغلق لم يسكنه أحد حتى قرروا بيعه.

- إذن فالعقار مغلق منذ فترة طويلة.

هز (منصور) رأسه أن نعم وهو يتمتم:

- هذا ما علمته.

أعاد (شريف) ظهره إلى الوراء وهو ينهى التحقيق مع الريس (منصور) بعد أن تأكد أن لا جديد لديه فيما يخص هذه القضية قائلًا:

- حسنا أعتقد أننا أنتهينا ولكنك ستنتظر إلى أن ننتهى من التحقيقات فى هذه القضية ثم يمكنك أن تستكمل عملك فى الأرض من جديد.

تردد (منصور) للحظة قبل أن يحسم أمره ويقول:

- ولكننى أخشى يا سعادة البك أن يتسرب الأمر للصحافة ويتم نشر الموضوع بتفاصيله .. هذا سيفسد لى عملى بل سينسف المشروع من أساسه فمن ذا الذى سيشترى شقة فى عقار بُنى على مقبرة.

أومأ (شريف) برأسه دلالة على تفهمه الأمر وهو يقول مطمئنًا:

- أطمئن ياحاج (منصور) سيتم التحقيق فى نطاق من السرية ولن تعلم الصحافة شيئًا عنه.

ثم أكمل بسرعة:

- من ناحيتنا نحن على الأقل.

- أعتبر هذا وعدًا من سيادتك.

أبتسم (شريف) أبتسامة خفيفة وهو يؤكد:

- أعدك.

تنهد (منصور) وهو يردد:

- لله الأمر من قبل ومن بعد.

قالها ثم نهض منصرفًا ....

لحظـات ودخـل (عـادل) إلى المكتـب وهـو ينظـر خلفـه إلى البـاب حيـث خـرج (منصـور) قائـلًا:

- لا جديد لديه .. أليس كذلك؟

أبتسم (شريف) فى سخرية وهو يُجيبه قائلًا:

- وأى جديـد سيكون لديـه أنـت تعلـم مثـلى أن هـذه التحقيقـات لـن تقـود لشـئ إنمـا هـى مجـرد إجـراءات روتينيـة ليـس إلا.

ثم تنهد فى ضيق مكملًا:

- ونحن ملتزمون بتنفيذها.

هز (عادل) رأسه مؤمنًا على كلامه:

- صدقت.

التقـط (شريـف) الورقـة المـدون بهـا الأسـم مـن عـلى المكتـب وهـو يسـأل:

- أثنـاء التحقيـق ذكـر (منصـور) أنـه أشـترى العقـار مـن شـخص يُدعـى (أحمـد الطحـان) بصفتـه وكيـلًا عـن الورثـة .. مـا معلوماتـك عنـه؟

جلس (عادل) على المقعد المواجه له .. نفس المقعد الذى كان يجلس عليه الريس (منصور) وهو يُجيب قائلًا:

- أنه أحد الورثه بالفعل .. يعمل محامى وهو حفيد صاحبة المنزل الذى أُغلق بعد وفاتها مباشرة.

- وماذا عن العقار نفسه؟

- العقار نفسه قديم يرجع بنائه لثلاثينيات القرن الماضى .. كانت تسكنه الحاجة (فردوس) وبناتها بعد سفر أبنها للخارج ثم بعد زواج البنات عاشت (فردوس) وحدها حتى توفيت ومن ساعتها والبيت مغلق .. حاول الورثة تأجيره أكثر من مرة ولكن ذلك لم يدم طويلًا.

- لماذا؟

هز (عادل) كتفيه مجيبًا:

- لا أدرى.

التقط (شريف) قلمه وأخذ ينقر به على سطح المكتب وقد بدا جليًا أنه أستغرق فى التفكير للحظات و(عادل) يتابعه دون أن ينبث ببنت شفة حتى التفت إليه قائلًا:

- أريد منك أستدعاء (أحمد الطحان) وأعرف أيضًا من هو آخر مستأجر سكن هذا البيت وأستدعيه للتحقيق.

رن جرس الهاتف بجانبه فألتقطه بحركة سريعة وهو يستمع إلى مُحدثه على الطرف الآخر فى أهتمام ثم أغلق الخط ونظر إلى (عادل) قائلًا:

- لقد عثر رجال البحث الجنائى فى الموقع على صندوق مغلق

مدفـون مـع الجثـث وسـيتم فتحـه ومعرفـة محتوياتـه.

ثم صمت لحظات وأكمل قائلًا:

- يبدو أن أسرار هذه القضية لم تنتهى بعد.

وكانت هذه هى البداية.

*****

الفصل الثانى

أسيوط .... ١٩٤٥م ..

الظـلام يغمـر كل شـئ إلا مـن ضـوء خافـت يُحدثـه المصبـاح الزيتـى المُعلـق فى مدخـل الـدار ..

نسـمات خفيفـة تسـللت مـن بيـن قضبـان الشـباك الحديديـة لتداعـب بخفـه السـتارة الباليـة المُعلقـة بمشـبكين خشـبيين إلا أنهـا لم تنجـح فى ترطيـب جـو الغرفـة ولا فى منـع قطـرات العـرق التـى تجمعـت عـلى جبينـه وعـلى رقبتـه.

لم يسـتطع (جابـر) العـودة للنـوم مـن جديـد مـع هـذه الحـرارة المرتفعـة التـى جعلـت حلقـه جافًـا قاحـلًا كأرض لم تُـروى منـذ عـام.

حـاول العـودة للنـوم .. أخـذ يتقلـب يمينًـا ويسـارًا دون جـدوى .. لقـد أمرتـه أمـه أن يخلـد إلى النـوم مبكـرًا إلا أنـه لم يسـتطع النـوم أكـثر مـن سـاعة واحـدة.

أسـتمر لبرهـة ممـددًا كـما هـو عـلى الفـراش يصغـى لصـوت حـشرات الليـل ونبـاح الـكلاب الـذى يأتيـه عـبر النافـذة قبـل أن ينسـل مـن فراشـه ويجلـس عـلى حافتـه تداعـب سـاقيه الصغيرتـين البارزتـين مـن تحـت جلبابـه المنـزلى فضـاء الغرفـة.

كان السريـر مرتفعًـا فلـم تطـل قدمـه الأرض لـذا دفـع جسـده للأمـام ليهبـط واقفًـا عـلى قدميـه مُلقيًـا نظـرة إلى سريـره النحـاسى المرتفـع ذو

الأعمده وأخذ يخطو بحذر خارجًا من غرفته.
كان لايريد أن يُغضب أمه .. يعرف كم هى قاسية خاصة أن أباه غير موجود بالدار ليزود عنه كما يفعل دائمًا .. كان مسافرًا لعمل ما ولن يعود حتى الغد ثم أنه يتذكر جيدًا كيف سيكون عقاب أمه عندما تجده خارج فراشه فى هذا الوقت.
يتذكر كيف ربطته فى عامود السرير وأنهالت عليه ضرباً بالعصا لمجرد أنه ألح فى طلب الطعام .. لقد حاول وقتها ألا يطلب منها شيئاً إلا أن جوعه الشديد غلبه فى النهاية ويومها رأى ..
رأى كيف تبدل وجه أمه وبرزت عيناها وهى تصرخ فى وجهه وكيف جرته جرًا لتقيده بالسرير وتنهال عليه ضربًا ..
كيف أستمر بالصراخ وهو يستعطفها طالبًا الصفح والرحمة ..
يتذكر كيف طالت العصا رأسه فسالت دماءه التى أفزعه مرآها وكيف ثار والده عندما عاد وعلم بما حدث وظل ينهرها ويعصب رأسه بمنديله بينما نظرت هى لأباه باستخفاف ونظرت له بغضب شديد وهى تعود لغرفتها وتصفق الباب خلفها.
حركت الذكرى مشاعره وجعلته يتحسس موضع الندبة على جبينه والتى لازمته من يومها وكأنها تذكرة على ما سيلاقيه إذا ما غضبت منه مجددًا.
ظل يسير على أطراف أصابعه بحذر عبر ساحة الدار حتى الصينية الكبيرة الممتلئة بالمياه والموضوع بها قلة المياه فرفعها بيديه الأثنتين بحذر خشية أن تسقط منه فيكسرها فيكون عقابه مضاعفًا.

شرب حتى أرتوى فهو لن يستطيع مغادرة فراشه مجددًا ووضعها بحرص عائدًا بخفه إلى حيث غرفته الملاصقة لباب الدار إلا أنه سمع أثناء عودته صوت والدته من داخل غرفتها فى نهاية ساحة الدار كان صوتها خفيضًا إلا أن السكون المحيط به وحذره الشديد جعل سمعه مرهفًا ليلتقطه بسهولة.

كانت أعوام عمره الثمانية وخوفه الشديد من أمه تجعله خائفًا من كل شئ .. يخاف الظلام .. يخاف اللعب مع أصدقاءه .. يخاف السهر .. يخاف طلب أى شئ .. كان الخوف يتملكه من كل شئ كأنه يُحيط به ويعيش معه يومًا بيوم إلا أن فضوله وتساؤله إن كان والده قد عاد من رحلته مبكرًا دفعاه ليخطو بحذر حتى باب غرفة والديه الذى كان مواربًا بعض الشئ مما سمح له ليختلس النظر إلى الداخل عبر الفرجة الضيقة من الباب.

لحظتها تسمر فى مكانه وأتسعت عيناه فى ذهول .. كان ما يراه غير طبيعيًا على الإطلاق .. كانت أمه على السرير مستلقيه على ظهرها وقد أنحسرت ملابسها عنها حتى الخصر بينما هناك رجل يعتليها ويثبتها إلى السرير بيديه الأثنتين.

لم يستوعب عقله الصغير ما يحدث فأمه لم تحاول الصراخ أو الأستنجاد بأحد بل بدا كما لو كانت مستمتعة بما يحدث .. ومن داخله تصاعدت ضربات قلبه لتصم أذنيه وتتناغم مع صوت الصرير الذى يحدثه السرير مع كل حركة من حركات هذا الرجل على أمه .. برودة كالثلج زحفت على جسده مع قطرات عرق باردة أنسالت على وجهه وهو يسمع تنهدات أمه الحارة من

داخل الغرفة بينما راقب يدها وهى ترتفع ببطء لتحيط بخصر ذلك الرجل وبدلًا من أن تبعده عنها أخذت تجذبه ليغوص بين ساقيها أكثر وأكثر بينما هى تتأوه بصوت أكثر أرتفاعًا مع وصولها لحالة من النشوة والأستمتاع بدت ظاهرة جلية على وجهها وهى تغلق عينيها وتبتسم فى سعادة بينما طوح الرجل رأسه إلى الوراء مطلقًا آهة خافتة بينما جسده ينتفض أنتفاضة أخيرة قبل أن ينحنى على أمه ليغيبا معا فى قبلة طويلة بدت له وكأنها ستبقى أبد الدهر.

أغلق عينيه بقوة فلم يقدر على أن يحتمل أكثر مما رآه...

كانت مشاعره كلها مضطربة .. جسده يرتجف وعقله الصغير غير قادر على الإستيعاب أو التصديق.

حين فتح عيناه مرة أخرى واجهته زوجين من الأعين تحدقان فيه والغضب والشر يعتمل فيهما عينا أمه وعينا الرجل الذى يعتليها الذى ميز فيه عمه (عبد الحكيم) لحظتها كادت المفاجأة تدمره بل تنسفه من أساسه.

حاول التراجع والهروب إلا أن ساقيه تجمدتا فى مكانهما كما لو أنهما غرستا فى الأرض .. عجز عن التراجع أو الصراخ .. حاول فتح فمه إلا أن الصرخة أحتبست فى حلقه.

لعن نفسه على عجزه .. خوفه صديقه الدائم أبا أن يفارقه.

أنتفض عمه من مكانه وأندفع نحوه وفتح الباب الموارب بقوة ثم أمسكه من تلابيب جلبابه ورفعه عن الأرض وعيناه تكادان تحرقانه وهو يندفع به خارج الحجرة بينما أمه تسوى ملابسها

وتندفـع خلفهـما.
فى منتصـف سـاحة الـدار ألقـاه عمـه عـلى الأرض .. أنَّـت عظـام جسـده مـن عنـف السـقطة وعينـاه لازالتـا عـلى أتسـاعهما فى هلـع وفى بـطء أقـترب عمـه منـه مـرة أخـرى ومـال ناحيتـه فرفـع ذراعيـه ليحمـى وجهـه إلا أن عمـه جذبـه مـن شـعره فى قسـوة حتـى أوقفـه مـرة ثانيـة وهـو يسـأله بصـوت يقطـر قسـوة وغـل فـاق أبشـع تصوراتـه:
- ماذا رأيت؟
حـاول أن يفتـح فمـه ليقـول أى شـئ إلا أن لسـانه أبى أن يطاوعـه .. نظـر إلى أمـه يسـتنجد بهـا .. كان يعلـم مـدى شـدتها وقسـوتها عليـه إلا أنـه تخيـل أنهـا سـتحول بـين عمـه وبينـه لكـن هيهـات ملامحهـا هـذه المـرة كانـت تحمـل ماهـو أكـثر مـن القسـوة .. كانـت تحمـل البغـض.
نظرتهـا حُفـرت فى داخلـه وكأنهـا ليسـت أمـه التـى أنجبتـه وكأنـه ليـس صغيرهـا الوحيـد جذبـه عمـه مـن أذنـه وقـرب فمـه منـه قائـلًا:
- أتعلـم مـاذا سـيحدث إن أخـبرت أحـد بمـا رأيـت .. سـأقطع لسـانك وأقتلـع عينيـك فـلا تتكلـم أو تـرى بعدهـا أبـدًا.
كلماتـه كانـت راسـخة كالقـدر .. بطيئـة كالمـوت .. أنسـابت داخلـه كحمـم ملتهبـة تُحـرق كيانـه.
طفـرت الدمـوع مـن عينيـه وأرتعـش جسـده فى قـوة ومـن بـين سـاقيه أنسـاب بولـه سـاخنًا يبلـل جلبابـه فأحنـى رأسـه فى ذل وسـط نظـرات التشـفى مـن عمـه وأمـه التـى أرتسـمت عـلى وجههـا أبتسـامة حملـت بـين طياتهـا كل مـا يمكـن أن يقـال قبـل أن يُلقيـه عمـه إليهـا قائـلًا:
- نظفيـه مـن قذارتـه وأتركيـه ينـام وإن فتـح فمـه مـرة أخـرى سـيكون

فى عـداد الأمـوات.
ثم أندفع مغادرًا الدار..
ليلتها ظل فى سريره يرتجف ويبكى بحرقة..
يبكى ضعفه وذله أمام خيانة أمه وعمه ..
يبكى خوفه الذى تملكه.
كان يعلـم أنـه لـن يتكلـم أو يفتـح فمـه .. كلـمات عمـه كانـت تـتردد فى أذنيـه ونظـرات أمـه كانـت تلاحقـه أينـما حـوَّل عينيـه .. كان مشـهدهما معـاً عـلى سريـر والـده يتكـرر أمـام عينيـه مـرة تلـو الأخـرى فى عـرض مسـتمر يـأبى أن ينـزاح عـن عقلـه وأسـتمرت دموعـه تنسـاب حـسرة عـلى أبيـه الغافـل وخوفًـا مـما سيلاقيه إن تجـرأ وتكلـم فهـو أكـثر مـن يعلـم طيبـة والـده وسـيطرة أمـه الكبـيرة عليـه عندهـا لـن يصدقـه والـده ولـن يرحمـه أحـد مـن العقـاب.
ليلتهـا عَلـم أن أيامـه القادمـة سـتحمل لـه الكثـير وأن ماحـدث هـو مجـرد بدايـة لطريـق طويـل عليـه أن يقطعـه..
دون أن يدرى ما ينتظره فى نهايته.

*****

فى صباح اليوم التالى ..

كان (جابر) الصغير جالسًا على المصطبة أمام الدار كتمثال من الحجر شاردًا ينظر إلى اللاشئ .. الأطفال فى مثل عمره يلعبون أمامه وهو غائبًا عنهم لم يحاول أن يجاريهم فى لعبهم.
كانت أحداث أمس لاتزال ماثلة أمام عينيه فلم يطق البقاء فى الدار .. خرج منها مع أول ضوء لشروق الشمس .. بقاؤه فيها يذكره بكل شئ .. لن يحتمل النظر فى عينا أمه مرة أخرى .. لم يكن يدرى كيف سيتعامل معها بعد ذلك .. شئ واحد كان على يقين منه أنه لن يتكلم أو يسرد ما حدث لأى مخلوق حتى والده..
والده المسكين الذى لا يعلم ما يحدث خلف ظهره من خيانة أقرب الناس إليه زوجته وأخيه و....
وأبنه .. نعم هو مشارك معهما فى خيانة والده بصمته .. أغلق عينيه فى ألم وأنسابت دمعة على خده عندما وصل بتفكيره إلى هذا ولم يشعر لحظتها بصديقه (محمود) وهو يقترب منه .. لم يشعر حتى مد يده يمسح دموعه من على خده.
أنتفض جسده وهو ينظر له فى أنزعاج إلا أن نظرة (محمود) المشفقة نحوه جعلته يهدأ قبل أن يتكلم الأخير بصوت حنون:
- لماذا تبكى يا (جابر)؟
نظر له (جابر) فى صمت دون أن يُجيبه فمد (محمود) يده يربت

على كتفه وهو يخطف نظرة نحو باب الدار قائلًا:

- أهى أمك مرة أخرى؟

هز (جابر) رأسه فى صمت فربت (محمود) على كتفه مرة أخرى مواسيًا قبل أن يجلس بجانبه متطلعًا إليه فى أشفاق.

كان (محمود) صديق (جابر) المُقرب .. كان جاره وصديق لعبه وزميله فى كُتَّاب الشيخ (صادق) .. كانت ملامحه مختلفة عن (جابر) بجسده النحيل ووجهه الأسمر وشعره المجعد القصير بينما (جابر) ورث عن والده بياض بشرته وشعره البنى الناعم وعينيه اللتان تشربتا لون الزرع الأخضر فبقى فيهما إلى الأبد.

كانت ملامحه مثار حسد أصدقاؤه وغيرتهم حتى بعد الندبة الغائرة على جبينه جراء قسوة أمه .. ظل (جابر) أجمل صبية القرية.

- عندما يعود أباك يجب أن تُخبره بكل شئ.

قالها (محمود) فجأة فالتفت إليه (جابر) فى حدة متسائلًا:

- أُخبره بماذا؟

- بما تفعله أمك معك فى كل مرة .. يجب أن يمنعها من أن تعاملك بهذه الطريقة.

هز (جابر) رأسه فى يأس قائلًا:

- أتظن هذا سيصنع فارقًا .. أنه لن يستطيع حمايتى حتى لو أخبرته .. أنت تعلم أمى وما قد تفعله بى إن وشيت بها لأبى.

- إذن ماذا ستفعل؟

تردد (جابر) لحظة قبل أن يقول:

- قل لى هل تُخبر أباك بكل شئ؟

نظر له (محمود) مستغربًا قبل أن يتساءل:

- ماذا تقصد؟

- أعنى إذا رأيت شيئًا ما سيئًا يحدث هل ستقول له ما رأيته؟

- إذا كان ما رأيته سيضره سأخبره بالتأكيد.

- حتى لو كان ما ستقوله له سيحمل لك الأذى.

تطلع (محمود) ل(جابر) وهو يسأله:

- هل رأيت شيئاً تخشى أن تُخبر أباك به؟

لوح (جابر) بيده فى ذعر وهو يهتف:

- لا...لا .. أنا لم أر شيئًا.

ثم مد يده يمسك يد (محمود) وقد أغرورقت عيناه بالدموع مغمغمًا:

- أنا خائف.

- من ماذا؟

- لا أدرى ربما مما سيحدث.

ربت (محمود) على يده حتى يهدأ قائلًا:

- (جابر) أنا صديقك إذا كان هناك ما يزعجك أو يخيفك أرجوك أخبرنى به ربما أستطيع مساعدتك.

أطرق (جابر) برأسه وهو يقول فى أسى:

- ليت كل الأمور تقال.

لحظتها تعلق بصره بجرو صغير يلهو على أطراف الحقل قبل أن يندفع ليدفن نفسه فى حضن أمه الراقدة بإستكانة والتى أحتوته

بداخلها وأخذت تلعق فروته بحنان بالغ ..
وفى داخله شعر بأسى لا حدود له وأخذ يتساءل ..
أيكون هذا الجرو أسعد حظًا منه .. أيعلم هذا الجرو معنى القسوة التى يلاقيها هو على يد أمه .. أتكون هذه الكلبة أكثر حنانًا من أمه.
أثار المشهد مشاعر (جابر) فأنحدرت من عينه مرة أخرى دمعة أسى ..
وألم.

*****

فى المساء ..
أرتمى (جابر) فى أحضان والده وتعلق بعنقه بشده فربت والده (عبد الحميد وهدان) على ظهره قائلًا:
- أوحشتنى كثيرًا يا (جابر).
فرد (جابر) وهو يدفن وجهه فى صدر والده:
- وأنت أيضًا أوحشتنى كثيراً يا أبى.
أستمر عناقهما فترة طويلة وظل (جابر) متعلقًا بعنقه فارتسمت أبتسامة حنون على وجه (عبد الحميد) الذى نظر إلى (نعمة) زوجته قبل أن يبادرها بالسؤال قائلًا:
- ألم يأت أحد إلى الدار؟
فأجابت (نعمة) فى كلمة مقتضبة بلا مبالاة وهى تتصنع الأنشغال:
- كلا.

قالتها وهى تلقى نظرة جانبية على (جابر) الذى أطرق برأسه فى صمت فتابع (عبد الحميد) الذى لم يلحظ النظرات الجانبية بين (جابر) وأمه:

- ماذا عن أخى (عبد الحكيم) ألم يسأل عنكما أثناء غيابى؟

فردت (نعمة) بملامح جامدة:

- لم أره منذ أن سافرت .. يبدو أنه كان مشغولًا بشئ ما.

فابتسم (عبد الحميد) أبتسامة حزينة قائلًا:

- إن كل ما يشغل (عبد الحكيم) هو اللهو وسهرات الحشيش مع أصدقاء السوء الذين يلتفون حوله حتى ينفق آخر مليم فى جيبه.

ثم هز رأسه فى أسى مردفًا:

- كم أُشفق عليه .. كم كنت أتمنى أن يتغير حاله ويقف بجانبى لنرعى الأرض التى تركها والدنا رحمه الله.

فردت (نعمة) بسرعة:

- (عبد الحكيم) ليس صغيرًا ولن يقف بجانبك وأنت المتحكم فى كل شئ أعطه حقه يفعل به ما يشاء.

نظر لها (عبد الحميد) معاتبًا وهو يقول:

- وأخالف وصية والدنا .. لقد ترك كل شئ فى عهدتى لأنه يعلم طيش (عبد الحكيم) وتهوره .. لقد كان رحمه الله يعلم أن (عبد الحكيم) سينفق كل ما لديه على نزواته وأنه أول ما سيحتاج سيبيع الأرض التى هى كل ما لدينا .. التى جمعها والدنا بكده وعرقه حتى يجعل لنا قيمة بين الناس .. كيف أخالف كل هذا وأنت تعلمين أن أبى مات حسرة على أبنه الذى لم يكلف نفسه

عنـاء زيارتـه أثنـاء مرضـه الأخـير .. أأكـون أنـا خائنًـا لأمانـة والـدى.

- إذن سـيبقى الخـلاف كـما هـو و(عبـد الحكيـم) لـن يتنـازل عـن حقـه وأنــت تعرف.

تنهد (عبد الحميد) مرددًا:

- يعلم الله كم أحبه وأخشى عليه.

ثم سكت لحظه قبل أن يقول:

- أننى حتى فكرت أن أسعى فى زواجه.

التفتت إليه (نعمة) فى عصبية صائحة:

- زواجه.

فتابع (عبد الحميد):

- نعـم لقـد تحدثـت مـع الحـاج (حمـدان) شـيخ القريـة بشـأن أبنتـه (زهـرة) ولكنـى لم أفاتـح (عبـد الحكيـم) بعـد.

لوحت (نعمة) بيدها فى عصبية صائحة:

- ما شأنك أنت بزواج (عبد الحكيم) ثم ألم تجد له غير (زهرة).

رفع (عبد الحميد) حاجبيه فى دهشة وهو يقول:

- ومـا العيـب فى (زهـرة) فهـى شـابة جميلـة ومـن أسرة نعرفهـا جيـدًا ووالدهـا الحـاج (حمـدان) مـن أفاضـل النـاس ومـا لديهـم لا يقـل عـن مـا لدينـا و(عبـد الحكيـم) لم يعـد صغـيراً كـما قلتـى منـذ قليـل وزواجـه ربمـا يكـون السـبب فى صـلاح حالـه وأنـا أخـاه الأكـبر ومـن واجبـى أختيـار الأفضـل لـه ولصالحـه.

ثم أكمل متسائلًا:

- ثم لِم كل هذه العصبية؟

همت (نعمـة) أن تقـول شـيئًا إلا أنهـا تـرددت للحظـة قبـل أن تندفـع مغـادرة الحجـرة بعصبيـة مـرددة:

- أفعل ما يحلو لك.

كان (جابـر) يتابـع الحـوار الدائـر بـين أمـه وأبيـه ويعلـم السـبب الحقيقـى وراء عصبيـة أمـه إلا أنـه ظـل صامتًـا لم ينطـق بحـرف حتـى وهـو يتلقـى نظـرة أبيـه الحائـرة أمـا (نعمـة) فقـد أندفعـت إلى حجرتهـا قبـل أن تصفـق البـاب خلفهـا بعنـف وتُلقـى بنفسـها عـلى السريـر وهـى تقبـض بيدهـا بقـوة عـلى الوسـائد بينـما جسـدها يرتعـد مـن فـرط الغضـب وهـى تـردد:

- هذا لن يكون ... لن يكون.

لم تعتـد (نعمـة) طـوال حياتهـا أن تستسـلم لأمـر مـا مهـما كان .. كان هـذا جـزء مـن شـخصيتها منـذ أن كانـت طفلـة .. حتـى وهـى صغـيرة عندمـا تعهدهـا عمهـا برعايتـه ورباهـا وسـط أبنيـه (عبـد الحميـد) و (عبـد الحكيـم) كانـت تسـعى دائمًـا لتنفيـذ رغباتهـا بشـتى الطـرق.

ربمـا يعـود ذلـك لأحساسـها الدائـم باليتـم منـذ أن ماتـت أمهـا أثنـاء ولادتهـا فحُرمـت مبكـرًا مـن حنـان الأم ثـم لحقهـا أباهـا بفـترة قصـيرة فأصبحـت يتيمـة الأم والأب مـما أورثهـا أحسـاس أنهـا لابـد وأن تكـون قويـة صلبـة كى تجابـه الحيـاة وحدهـا .. كى تكـون كجـزع شـجرة راسـخة فى الأرض لا تسـتطيع قـوة مهـما كانـت أن تكسرهـا.

المـرة الوحيـدة التـى خضعـت فيهـا لإرادة عمهـا رغـمًا عنهـا كانـت عندمـا أراد تزويجهـا مـن (عبـد الحميـد) أبنـه البكـر عـلى الرغـم مـن تعلقهـا الشـديد ب(عبـد الحكيـم) فقـد كان الأخـير فى نظـر أبيـه غـير

قـادر عـلى رعايتهـا أو عـلى تكويـن أسرة.

كانـت (نعمـه) ذات شـخصية قويـة نافـذة تسـعى لتنفيـذ إرادتهـا حتـى لـو كان ذلـك عـلى حسـاب أقـرب النـاس إليهـا ..

كانـت كتلـة غضـب وسـخط تسـكن قلبهـا منـذ أن كُـسرت إرادتهـا وأصبحـت زوجـة ل(عبـد الحميـد) وحتـى عندمـا أنجبـت (جابـر) لم يغـير ذلـك منهـا شـيئًا فقـد كرهتـه كـما كرهـت والـده خاصـة مـع وفـاة عمهـا وتحكـم (عبـد الحميـد) فى كل شـئ.

كان (عبـد الحكيـم) قـد ملـك قلبهـا منـذ أن كانـت صغـيرة وهـى لم تعتـد أن تخـسر شـيئًا أرادتـه وحتـى الآن لـن تقبـل أن يكـون لأحـد غيرهـا أيًـا كانـت الظـروف ومهـما كانـت النتائـج ومهـما كان ما سـتفعله فى سـبيل ذلـك .. توقفـت بأفكارهـا عنـد هـذه النقطـة وأخـذت تتفكـر فيهـا بتمعـن قبـل أن ترتسـم عـلى شـفتيها أبتسـامة شر وهـى تغمغـم:

- نعم ولِم لا.

وأتسعت أبتسامتها أكثر وأكثر.

*****

الفصل الثالث

أرتقى (شريف) سلالم مبنى إدارة البحث الجنائى والطب الشرعى مسرعًا ومن خلفه مساعده (عادل) الذى كان يلهث ليحافظ على المسافة بينه وبين (شريف) كانت القضية على قدر غموضها تثير فى نفس (شريف) حماسة غير عادية لفك طلاسمها حماسة لم يدر (شريف) نفسه سببًا محددًا لها صحيح أن القضية صعبة وغامضة بل وتزداد غموضا كلما أوغلوا فى التحقيق فيها إلا أنها لم تكن أول قضية صعبة يقابلها .. لكن أحساس رجل الأمن داخله والذى صقلته الخبرة كان يُنبأه أن هذه القضية مختلفة.

أستمرا فى السير فى الرواق الطويل المفضى إلى مكاتب الطب الشرعى حتى وصلا إلى مكتب الدكتور (عماد مشالى) الذى ما أن لمحهما حتى بادرهما قائلًا:

- جئتما فى الوقت المناسب.

سارع (شريف) يسأله وقد بدا الترقب عليه:

- هل توصلتم إلى شئ جديد؟

أجابه (عماد) قائلًا:

- بل قل شئ مهم.

أثارت كلماته المزيد من حماسة وفضول (شريف) الذى ظل صامتًا

يتابع بعينيه (عماد) وهو يرتدى نظارته الطبية ويجلس خلف مكتبه ويتناول ملفًا أمامه يفتحه ويقرأ من خلاله:

- بداية تم حصر وفحص العظام المستخرجة من موقع الحفر وتبين من الفحص أن تلك العظام تخص خمسة جثث مختلفة ومن نتائج التحاليل والفحص ثبت أنها تخص تحديدًا بقايا ثلاث سيدات.

ثم رفع عينيه إلى (شريف) مكملًا:

- ورجلين.

ضيق (شريف) ما بين عينيه متمتمًا:

- أمر غريب.

تابع (عماد):

- الأغرب أن وقت الوفاه التقريبى للجثث مجتمعة تم فى خلال أشهر متتابعة بين عامى ١٩٥٤م و ١٩٥٥م.

تدخل (عادل) فى الحوار لأول مرة قائلًا:

- هذا يضعنا أمام العديد من الأسئلة.

هز (عماد) رأسه موافقًا بينما قال (شريف) متفكرًا:

- بالتأكيد فعدد الجثث ليس بالقليل وهذا يدفعنا للتفكير فى الرابط بينهم جميعًا ثم أنهم قتلوا بشكل متتالى فلماذا توقف قاتلهم وهل يقدر شخص واحد على قتل كل هذا العدد أم أننا أمام تشكيل عصابى تواجد فى تلك الفترة.

أشار (عماد) بإصبعه مذكرًا:

- لا تنسى أيضًا أن الجثث موزعة بين الجنسين ثلاثة سيدات ورجلين.

هز (شريف) رأسه حائرًا وهو يقول:

- هذا سؤال آخر علينا البحث عن إجابة له.

ثم قال بسرعة وكأن المعلومات التى سمعها للتو قد أنسته:

- ماذا بشأن الصندوق؟ .. هل تم فتحه ومعرفة محتوياته؟

هـز (عـماد) رأسـه أن نعـم ثـم أشـار بيـده أن أتبعـونى وسـار أمامهـما إلى غرفـة أخـرى ملحقـة بمكتبـه تبـدو كمعمـل صغـير يحـوى عـدد مـن موائـد الفحـص عـلى كل منضـدة منهـا عـدد مـن الميكروسـكوبات بإسـتثناء منضـدة فى منتصـف الحجـرة كان فى وسـطها الصنـدوق المكتشـف مفتوحًـا وقـد تـم تفريـغ محتوياتـه عـلى المنضـدة مـع تغليفهـا وترقيمهـا كأحـراز ملحقـة بالقضيـة.

- هذا كل ما كان بداخل الصندوق.

قالهـا (عـماد) وهـو يشـير لمـا أمامـه فأخـذت عينـا (شريـف) و(عـادل) تجـولان عـلى المحتويـات الموضوعـه أمامهـما يتفحصانهـا بإهتـمام بينـما تسـاءل (شريـف) وهـو لايـزال ينظـر لمـا أمامـه:

- ماذا عن أسباب الوفاة؟ .. هل توصلتم لشئ؟

أجابه (عماد) بالنفى وهو يشرح قائلًا:

- لقـد تـم فحـص كل الهيـاكل العظميـة التـى وردتنـا مـن موقـع الحـادث وأسـتطيع أن أؤكـد لـك أن حالـة العظـام كلهـا سـليمة لا توجـد إصابـات أو أضرار قـد تتسـبب بالوفـاة كـما أننـا أكتشـفنا تلـك الجثـث بعـد نصـف قـرن مـن قتلهـا مـما يشـكل عائقًـا أمامنـا فى أن نحـدد أى أسـباب قـد تـؤدى للوفـاة.

ثم تابع بسرعة كمن تذكر شيئًا:

- بإستثناء حالة إصابه واحده فى الهيكل العظمى الخاص بأحد الرجلين ضمن الضحايا.

كان (شريف) و(عادل) يتابعانه بإهتمام فتوقف للحظه كى يلتقط أنفاسه قبل أن يُكمل قائلًا:

- بعد فحصه وجدنا كسرًا مضاعفًا فى عظام الجمجمة و أنا لا أستبعد أن تكون تلك الإصابه هى السبب فى الوفاة.

- يبدو أننا سنسير فى هذه القضية كالعميان.

كانت هذه الجملة من (عادل) فرد (شريف) عليه وعيناه تتفحصان محتويات الصندوق من جديد:

- أنها قضية معقدة منذ بدايتها ثم أن .....

توقف فجأة عن إكمال عبارته وقد تعلقت عيناه بإحدى المحتويات أمامه .. كانت عبارة عن سلسلة ذهبية تنتهى بقلادة دائرية تحتوى على صورة بالأبيض والأسود لوجه طفل صغير لا يتعدى عمره الثلاث سنوات وبجوارها ورقة صغيرة مطوية التقطها (شريف) وفردها بحذر ثم التمعت عيناه وهو يلتفت إلى (عادل) قائلًا فى حماس:

- يبدو أننا قد عثرنا على طرف الخيط الذى كنا ننشده.

نظر له (عادل) فى عدم فهم فجاوبته أبتسامة أرتسمت على شفتى (شريف) ربما لأول مرة منذ بداية هذه القضية وهو يتابع:

- أستعد فأمامنا الكثير من العمل.

وأزداد التماع عينيه أكثر.

*****

الفصل الرابع

واقفًا بـلا حـراك جـوار البـاب كان (جابـر) يتابـع بعينـه أمـه وهـى تضـع صينيـة الشـاى أمـام أبيـه وعمـه (عبـد الحكيـم) الـذى كان ثائـرًا كعادتـه كلـما تحـدث مـع والـده فيـما يخـص الأرض والمـيراث فقـد كان (عبـد الحكيـم) يعتقـد ولايـزال أن أخيـه يسـلبه حقـه بعـد أن ظلمـه والدهـما عندمـا تـرك كل شـئ تحـت تـصرف أبنـه الأكـبر (عبـد الحميـد).

ظـل (عبـد الحكيـم) يلـوح بذراعيـه فى وجـه أخيـه وهـو يـصرخ بغضـب عارم:

- أنـك تتحكـم فيـما ليـس لـك يـا (عبـد الحميـد) .. أنـك بذلـك تسـلبنى حقـى فى التـصرف فى مـيراث والـدى.

رد عليـه (عبـد الحميـد) بهـدوء وهـو يصـب الشـاى مـن الـبراد الموضوع أمامـه داخـل الصينية:

- لا تغالـط نفسـك يـا (عبـد الحكيـم) فأرباحـك تصلـك أول كل سـنة وهـذا لم يتغـير منـذ أن مـات والدنـا.

وجه (عبد الحكيم) أصبعه إليه وهو يصرخ:

- أرباحـك هـذه لا تعنينـى .. أنـا أتحـدث عـن أرضى .. قسـم المـيراث ودعنـى أفعـل بهـا مـا أشـاء.

تساءل (عبد الحميد) بحذر:

- مثل ماذا بيعها مثلًا؟

أجابه (عبد الحكيم) بتحد:

- أبيعها أو أحرقها حتى .. هذا ليس من شأنك.

أنفعل (عبد الحميد) عليه قائلًا:

- والدنا رحمه الله جعله من شأنى عندما ترك لى إدارة الأرض كلها وأنا لم أخالف وصيته فى أن أقتسم معك أرباحها بالتساوى ويعلم الله أنى لم أظلمك أو أخذ لنفسى ما ليس لى.

- إذن أنت تصر على أن تستولى على كل شئ .. ولكن أعلم يا(عبد الحميد) أن (عبد الحكيم) لن يسمح لأحد بأن يأخذ حقه.

تحدث (عبد الحميد) بحدة قائلًا:

- أى حق تتحدث عنه وأنت تريد أن تبيع الأرض التى عانى والدنا الأمرين فى جمعها ورعايتها أم أنك تظن أننى لا أعلم الصفقة التى تريد أن تبرمها مع الحاج (بشير) عمدة القرية .. ألم تعرض عليه شراء نصيبك فى الأرض؟

قال (عبد الحكيم) مجيبًا:

- هذا حقى أتصرف فيه كيفما أشاء.

ثم نظر إلى أخيه مضيفًا بصوت أثار الرجفة فى جسد (جابر) الذى ظل يتابع الحديث من مكانه:

- لن أسمح لك أن تسلبنى حقى يا (عبد الحميد) وسأحصل على ميراثى سواء شئت أم أبيت.

نظر له (عبد الحميد) للحظة فى صمت وكأنه يراه لأول مرة قبل

أن يتساءل:

- وكيف ستفعل ذلك؟

أجابه (عبد الحكيم) بصوت هادر:

- سأقتلك لو أقتضى الأمر.

أرتفع حاجبا (عبد الحميد) فى ذهول وهو يردد:

- تقتلنى.

هب (عبد الحكيم) من مكانه وهو يصرخ مهددًا:

- نعم سأقتلك ولن تقف قوة على الأرض فى طريق ما أُريده وهذا آخر إنذار لك.

ثم أندفع مغادرًا الغرفة قبل أن يقف على بابها ويلتفت ل(عبد الحميد) ويقول مهددًا:

- سأمهلك أسبوع واحد لتعيد لى ميراثى الذى سرقته وإلا لا تلومن إلا نفسك.

قالها وأندفع مغادرًا الدار تاركًا أخيه جالسًا فى ذهول ينظر إلى كوب الشاى الذى صبه لأخيه بينما تابع (جابر) عمه وهو يتجه ليفتح باب الدار ليخرج ولم تفته النظرة التى تبادلها مع أمه التى كانت تسترق السمع هى الأخرى..

نظرة حملت أتفاق شر غير معلن على الخلاص من أبيه ..

وإزدادت رجفة جسده وبشدة.

*****

- أهدأ يا صاحبى كل مشكلة ولها حل.

قالها (طلبة) صديق (عبد الحكيم) وهو يُناوله بوصة الجوزة بينما بيده الأخرى يرص أحجارها بعد أن وضع عليها الحشيش الذى أشتراه بأموال (عبد الحكيم) الذى جذبها من يده وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن ينفث دخانها الأزرق بينما جسده لايزال يغلى من الغضب وهو يردد قائلًا:

- سأقتله .. أقسم أن أقتله لو لم يعطينى حقى.

ربت (مرزوق) صديقه الآخر وشريكهما الثالث فى جلسات اللهو وتدخين الحشيش الذى كان يجلس عن يمينه على كتفه وهو يقول بنبرة ماكرة:

- أخوك (عبد الحميد) يتصنع المسكنة والطيبة أمام الجميع ثم يحصل هو على كل شئ ويجعلك تظهر أمام الناس فى صورة الأخ الجاحد وأنت تساعده على هذا.

التفت إليه (عبد الحكيم) قائلًا بإنفعال:

- أنا!!

جاءه الرد هذه المرة من (طلبة) الذى التمعت عيناه بنظرة ثعلب:

- نعم أنت .. عليك أن تسايره وتهادنه حتى تحصل منه على ما تريد وحتى لو قررت التخلص منه فيجب أن يكون ذلك بعيدًا عنك حتى لا تُوجه لك أصابع الأتهام أما لو حدث هذا وأنت تهدده أمام الجميع بالقتل فستكون أنت المتهم الوحيد.

تفكر (عبد الحكيم) فى كلامهما وهو يجذب نفسًا آخر من الجوزة

قبـل أن يتسـاءل:

- ماذا أفعل إذن؟

أجابه (مرزوق) قائلًا:

- أذهـب إليـه غـدًا فى الصبـاح وأعتـذر لـه عـما بـدر منـك وقـل لـه أنـك لم تقصـد كلمـة مـما قلتهـا وأنـك لم تحتمـل أن ينقـضى الليـل وأنتـما متخاصـمان.

- أنـا أذهـب إليـه .. هـذا الحقـير يسـلبنى حقـى ويسـتولى عـلى أمـوالى ثـم أعتـذر لـه .. هـذا لـن يكـون.

قالها (عبد الحكيم) محتدًا فعاد (مرزوق) يُهدئه بقوله:

- هـذه الأمـور لا تحـل بالعصبيـة والعنـف بـل تحتـاج للعقـل والصـبر حتـى تحصـل عـلى مـا تريـد.

عاد (عبد الحكيم) يسأل:

- وهل هذا سيجعله يعطينى ما أريد؟

سارع (مرزوق) بالإجابة:

- وحتـى لـو لم يحـدث هـذا عندهـا ننفـذ مـا خططـت لـه دون أن يكـون هنـاك أى شـك فى أنـك الفاعـل.

ظـلا معـه طـوال الليـل يقنعانـه بخطتهـما وهـما يرصـان لـه أحجـار الجـوزة مـع الحشـيش حجـر تلـو الآخـر وهـو يجـذب الأنفاس ويسـتمع لهـما.

كانـا كعادتهـما يتبعـان معـه هـذا الأسـلوب .. يعاملانـه كملـك متـوج بينهـما طالمـا يسـتنزفان مـا لديـه مـن أمـوال وكان هـذا يـرضى غـروره دائمًـا ويجعلهـما مقربـين إليـه أكـثر وأكـثر وكـما قالـوا فى الأمثـال قديمًـا ..

(الدوى على الآذان أمر من السحر) .. كانا يطبقان هذا المثل حرفيًا وفى النهاية ينصاع لرأيهما ويفعل تمامًا كما أشارا عليه.

عند إقتراب الفجر كان (عبد الحكيم) قد أقتنع تمامًا بما أشارا عليه به بعد أن سُطل من كم الأحجار التى شربها فنهض يسير مترنحًا إلى داره بينما عينا (طلبة) و(مرزوق) تتابعانه قبل أن يلتفت الأخير إلى (طلبة) متسائلًا:

- أتظنه سينفذ ما أتفقنا عليه؟

أبتسم (طلبة) بثقة وهو يُجيبه قائلًا:

- بالتأكيد.

- أتثق فيه إلى هذه الدرجة؟

- وكأنك لا تعرف (عبد الحكيم) .. أنه سينفذ حرفيًا كل ما قلناه له وأراهنك أنه سيذهب لأخيه فى الصباح كما أتفقنا.

- وبعدها؟

أتسعت أبتسامة (طلبة) أكثر وهو يُجيب:

- بعدها ننفذ ما أتفقنا عليه.

وتحولت ملامحه كلها لملامح ذئب ماكر وهو يتابع:

- نجبر (عبد الحكيم) على الخلاص من أخيه وعندها ننعم نحن بالثروة كلها بعد أن تؤول إليه.

- أنسيت أن (عبد الحميد) لديه زوجة وأبن.

- أبنه طفل صغير لا حول له ولا قوة .. ثم من لديه أقرب من عمه يراعى أرضه وماله من بعد أبيه.

تساءل (مرزوق):

- وزوجته ألن تطمع هى الأخرى فى الميراث؟

أجابه (طلبة) وأبتسامته لاتزال على شفتيه:

- (نعمة) أبنة عمهما ولن تجد غير (عبد الحكيم) يرعى مصالحها هى وأبنها ثم أن العلاقة بين (نعمة) و(عبد الحكيم) قوية منذ أن كانوا صغارًا ولا تخفى على أحد.

ثم ربت على ساق (مرزوق) وهو يشد بوصة الجوزة ليرص حجرًا لنفسه وهو يقول:

- أطمئن خطتنا ستسير كما نريد وسنفوز بكل شئ فى النهاية.

قالها وأنطلقا يضحكان معًا.

*****

- هون عليك يا ولدى.

قالها الحاج (حمدان) شيخ القرية وهو يجلس مع (عبد الحميد) على المصطبة أمام منزل الأخير الذى ظهرت على وجهه علامات الحزن الشديد وهو يقول:

- أتصدق يا حاج (حمدان) أن يعاملنى (عبد الحكيم) بهذه الطريقة وأنا الذى أسعى لصالحه.

- أنت تعلم أسلوب (عبد الحكيم) وعصبيته الزائدة ولكنه فى النهاية أخاك الأصغر ولن يرضى أبدًا أن يستمر الخصام بينكما فترة طويلة.

كان الحاج (حمدان) بمثابة الأب ل(عبد الحميد) لما وجده فيه من حسن الطباع ودماثة الخلق كما كان الصديق المقرب لوالده .. إلا أنه وعلى الرغم من ذلك لم يحك له (عبد الحميد) الحوار كاملًا الذى دار بينه وبين أخيه ولا التهديدات التى أطلقها (عبد الحكيم) فى وجهه.

كان حتى هذه اللحظة يحافظ على العلاقة الأخوية بينهما .. هذا بالإضافة لأن (عبد الحميد) يسعى لتزويج (عبد الحكيم) من (زهرة) أبنة الحاج (حمدان) فلم يشأ أن يشوه صورته أمام من سيصبح حماه فى يوم من الأيام.

أقترب (عبد الحكيم) منهما فى هذه اللحظة ملقيًا السلام وكان أول ما فعله هو أن قبّل رأس أخيه أمام الحاج (حمدان) الذى أبتسم فى مودة مغمغمًا:

- ألم أقل لك.

قال (عبد الحكيم) وهو يتصنع الأسى كمن يشعر بتأنيب الضمير:
- سامحنى يا أخى أننى لم أقصد كلمة واحدة مما قلتها لك بالأمس بل أننى طوال الليل ألوم نفسى على ما فعلته وأنتظرت الصباح بفارغ الصبر حتى آتى وأعتذر لك عما بدر منى.
نهض (عبد الحميد) من مكانه وأحتضن أخاه بقوة وقد أغرورقت عيناه بالدموع قائلًا:
- أسامحك يا (عبد الحكيم) أنت أخى الوحيد ورابط الدم بيننا لن يُفسده شئ.
جلس الأثنان بجوار بعضهما البعض بعد أن سلم (عبد الحكيم) على الحاج (حمدان) فقام الأخير من مكانه قائلًا:
- مادمتما قد تصافيتما فسأترككما أنا لأرى ما لدى من أعمال.
ثم التفت إلى (عبد الحميد) مكملًا:
- ولا تنسى يا (عبد الحميد) أننا سنسافر غدًا باكرًا لشراء مستلزمات الأرض لزراعة محصول السنة الجديدة.
ثم ألقى السلام وأنصرف تاركًا الأثنين جالسان مكانهما وقد خيم الصمت عليهما لفترة قبل أن يقول (عبد الحميد) لأخيه:
- كنت أريد أن أفاتحك فى أمر ما وأريد أن أعرف رأيك.
تساءل (عبد الحكيم) قائلًا:
- رأيى فى ماذا؟
- كنت أريد أن نتقدم للحاج (حمدان) لنخطب لك أبنته (زهرة) فأنت تعلم أن الحاج (حمدان) كان الصديق المقرب لوالدنا رحمه الله وهو رجل شديد الخلق وأبنته (زهرة) من أفضل بنات القرية.

مط (عبد الحكيم) شفتيه متبرمًا وهو يقول:

- أنس أمر زواجى يا (عبد الحميد) فأنا لا أفكر فى الزواج حاليًا.

سأله (عبد الحميد) مندهشًا:

- أننى لا أفهم لماذا ستظل ترفض الزواج بهذه الطريقة فأنت لم تعد صغيرًا وربما تكون هذه فرصة جيدة لك لتستقر؟

أجابه (عبد الحكيم) بإسلوب من لا يريد الأستمرار فى هذا النقاش:

- أصرف النظر عن هذا الموضوع يا (عبد الحميد) .. عندما أريد الزواج سأختار أنا من تناسبنى.

قلب (عبد الحميد) كفيه فى حيرة وهو يقول ناهيًا الموضوع فهو لم يكن يريد أن يبدأ خلافًا آخر مع أخيه:

- كما تشاء.

كان (جابر) يتابع الحوار منذ بدايته وهو يتصنع اللعب أمام الدار وفى داخل قلبه الصغير كان القلق يتصاعد ويتصاعد والشك يدب فى كيانه كله فكيف يأتى عمه ويعتذر لأباه بهذه الطريقة.

فمن يرتضى أن يخون أخيه مع أمرأته لن يكون بهذه الأخلاق أبدًا .. ومن داخله تأكد أن عمه يُضمر فى نفسه شيئًا خطيرًا..

وأستمر الشك يلتهمه وبشدة.

*****

الفصل الخامس

منذ ما يقارب العشرين دقيقة و(عبد الحكيم) يعتلى (نعمة) يمارس معها العلاقة الحميمة .. لم يكن يضاجعها كما يضاجع أى رجل أمرأة بل كان يضاجعها بعنف وقسوة كما لو كان يغتصبها .. يغتصب حقه الذى سلبه أخاه منه بكل دناءة من وجهة نظره .. حقه الذى يعود إليه كلما ضاجع (نعمة).

أحساس غريب ممتع كان يتملكه كلما عاشرها فى بيت أخيه بل وعلى سريره كذلك وكان هذا يُشعره بنشوة ما بعدها نشوة بل أنه أحيانا كان يسرح بخياله ويتخيل أخيه وهو يشاهدهما معا .. لحظتها كان سيصرخ فى وجهه ويقول له أنه الأحق بها منه وأنه يمتعها كما لم يمتعها هو .. وأنها مجرد جزء بسيط من حقه المسلوب.

تأوهت (نعمة) كما لم تتأوه من قبل وظل صوتها يعلو حتى أنها كانت تصرخ فى بعض الأحيان فيصل صوتها إلى حجرة (جابر) الذى وضع وسادة على رأسه كى يمنع صوتها من الوصول إلى أذنيه وعيناه تذرفان الدموع وهو ينتحب بشدة بينما عقله يرسم له صورة ما يدور الآن بين أمه وعمه وعلى سرير أبيه.

أستمرت العلاقة عشرة دقائق أخرى قبل أن يفرغ (عبد الحكيم)

بداخلها شهوته الممزوجة بحقده وغله على أخيه قبل أن يستلقى بجانبها وهو يلهث بشدة بينما أرتسمت أبتسامة أستمتاع واسعة على وجه (نعمة) وهو تتمطى فى رضا قبل أن تميل على (عبد الحكيم) لتطبع قبلة على وجهه بينما تعابث بيدها شعر صدره وهى تقول:

- الليلة كانت غير كل ليلة .. لقد كنت فى منتهى الروعة اليوم.

- هذا لأنك أنت التى تزدادين جمالًا وحسنًا يومًا بعد يوم.

- لكنك جعلتنى أصرخ من الألم .. يبدو أن الحشيش الذى أصبحت تشربه أفضل من السابق.

كانت معرفة (جابر) بما يدور بينهما قد منحتهما حرية لم يشعرا بها من قبل إلا أن ذلك لم يمنع (عبد الحكيم) من أن يسألها قائلًا:

- أين (جابر) أننى لا أسمع له صوتًا؟

أجابته (نعمة) وهى تبتسم له:

- لقد تصنعت عقابه وحبسته داخل غرفته قبل مجيئك بقليل فلا أريده أن يرانا مرة أخرى كما رأنا المرة السابقة.

عاد (عبد الحكيم) يتساءل بقلق:

- أتظنيه قد يفشى سرنا لأحد؟

ربتت (نعمة) على صدره وهى تقول مطمئنة:

- لو كان يريد أن يتكلم لكان تكلم بالفعل.

ثم أكملت قائلة بمقت:

- أطمئن أنه جبان مثل أبيه ولن ينطق بحرف.

أشار إليها بإصبعه محذرًا:

- لكنه يبقى خطرًا علينا الأنتباه له.

شعرت (نعمة) أنه يريد أن يفاتحها فى شئ ما خاصة وأنها تعرفه ربما أكثر مما تعرف نفسها فهى لم تهضم حتى الآن أعتذاره لأخيه صباح أمس وهاهو الآن يحذرها من (جابر) فحاولت أن تستشف ما بداخله متسائلة:

- ماذا يقلقك بالضبط؟

تردد (عبد الحكيم) للحظة قبل أن يقول:

- (عبد الحميد) فاتحنى أمس فى موضوع زواجى من أبنة الحاج (حمدان).

تراجعت بظهرها للوراء هاتفة:

- وهل وافقت؟

أجاب بسرعة:

- كلا بالطبع .. لقد رفضت وطلبت منه عدم فتح الموضوع مرة أخرى ولكن ..

تردد ولم يكمل فحاولت أن تستحثه قائلة:

- ولكن ماذا؟

أستمر (عبد الحكيم) على تردده لبرهة قبل أن ينهض من مكانه وهو يحسم قراره ويستجمع شجاعته قائلًا:

- ولكن لا يمكن أن تبقى الأمور هكذا أسمعينى جيدًا يا (نعمة) .. وجود (عبد الحميد) يهدد كل ما بيننا.

تفرست فى ملامحه فى صمت فأكمل قائلًا:

- (عبد الحميد) لايزال على عناده ويرفض أن يعطينى ميراثى وها هو الآن يسعى لتزويجى.

ثم أشار إلى خارج الغرفة صائحًا:

- وهـذا الصغـير لـن يبقـى عـلى صمتـه طويـلًا سـيأتى يومًـا يكـبر فيـه وعندهـا سـيخبر أبـاه بـكل شـئ ويفتضـح أمرنـا ويرمينـا (عبـد الحميـد) كالـكلاب.

ظلت (نعمة) على صمتها تتطلع إليه فصاح:

- أستظلين تنظرين إلى هكذا طوال الليل؟

- كيف نتخلص منه؟

قالتهـا (نعمـة) فى جمـود وثبـات فنظـر إليهـا (عبـد الحكيـم) مندهشًـا فقـد كان مـترددًا كثـيرًا فى مفاتحتهـا وتوقـع أن تعارضـه وتحـاول أن تُثنيـه عـن تفكـيره حتـى مـع معرفتـه بكرههـا الشـديد ل(عبـد الحميـد) وتعلقهـا بـه إلا أنـه وجدهـا تُشـاركه قـراره وكأنهـا قـد فكـرت أيضًـا فى هـذا الأمـر مـن قبـل وحسـمت قرارهـا.

سره تجاوبها معه وطمأنه ذلك لنجاح خطته فتشجع قائلًا:

- سنسـعى للخـلاص منـه بعيـدًا عـن الـدار وبعيـدًا عنـا حتـى نكـون خـارج أى شـبهة ف(عبـد الحميـد) كثـير السـفر إلى المركـز وأحيانًـا كثـيرة يعـود وحـده فى أوقـات متأخـرة مـن الليـل وقطـاع الطـرق كثيريـن مـما سيسـهل لنـا فرصـة الخـلاص منـه.

- وعندها؟

قالتهـا (نعمـة) فى مكـر فأبتسـم (عبـد الحكيـم) وهـو يقـترب منهـا ويضمهـا إليـه قائـلًا:

- عندها سنكون معًا إلى الأبد بعد أن نحصل على كل شئ.

وزاد من ضمها إليه وأبتسامة شر تنطبع على وجهه.

*****

ظل (جابر) يتقلب فى فراشه حتى بعد أنتصاف الليل بقليل فلم يعد يستطع النوم فى البيت ووالده خارج الدار خاصة فى أيام سفره كهذا اليوم الذى سافر فيه والده منذ الصباح الباكر إلى المركز لقضاء بعض الأعمال الخاصة به.

كان قلبه الصغير يشعر بالخوف .. خوف سيطر عليه وملك عليه حواسه كلها فما حدث ينذر بأن ما سيحدث سيكون أشد خطورة وقسوة ربما أكثر مما يحتمله ودون أن يدرى أنقبض قلبه الصغير خوفًا على والده وما يمكن أن يناله من تآمر أمه وعمه عليه .. أنه حتى هذه اللحظة لم ينس النظرة التى تبادلتها أمه مع عمه أثناء خروجه من دارهم بعد مشاجرته الأخيرة مع أبيه .. حتى بعد أعتذار عمه لأبيه وسعادة الأخير بذلك ظل الخوف ينهش قلبه وعقله كذئاب الليل التى يخيفونهم بها طيلة الوقت.

أستمر (جابر) فى أفكاره ومخاوفه وهو يحاول بشتى الطرق عدم الأستسلام للنوم حتى سمع من يطرق باب دارهم وسمع خطوات أمه وهى تتجه نحو باب الدار لتفتحه فأرهف سمعه بشدة حتى وصله صوت عمه وهو يحادث أمه بصوت خفيض لم يستطع أن يتبين فحواه فأنسل بحرص من على سريره محاذرًا أن يصدر عنه أى صوت وسار بخفة على أطراف أصابعه حتى باب حجرته المغلق وألصق أذنه بالباب ليسمع ما يدور بالخارج.

وقف (عبد الحكيم) مُلصقًا ظهره إلى الباب وقد لثَّم وجهه قائلًا بصوت هامس:

- هل (جابر) مستيقظ حتى الآن؟

أجابته (نعمة) وهى تنظر إلى باب حجرة (جابر) المغلق:

- لا .. أنه نائم فى سريره منذ فترة.

أشار لها بيده ناحية باب الحجرة قائلًا:

- تأكدى أولًا.

نظرت له للحظة قبل تتجه ناحية باب حجرة (جابر) لتفتحه ملقية نظرة داخل الحجرة مع الضوء القادم من ساحة الدار والذى أنعكس على سرير (جابر) الذى كان نائمًا فى سريره وقد أنتظمت أنفاسه مما يوحى بإستغراقه فى النوم منذ فترة.

أغلقت باب الحجرة بهدوء عائدة إلى (عبد الحكيم) فأنتفض (جابر) الذى كان يتصنع النوم من سريره عائدًا لمكانه خلف باب حجرته المغلق .. كان (جابر) قد سمع ما دار بين أمه وعمه فقفز مسرعًا إلى سريره وأغلق عينيه مُحاولًا ضبط أنفاسه المضطربة فى اللحظة التى فتحت فيها والدته الباب.

عاد (جابر) يصغى بإنتباه إلى الحوار الدائر بالخارج وقد أنتابه أحساس بأن الخطر الذى يشعر به والذى كان يخشاه قد أصبح قريبًا منه أكثر مما يتصور .. كان (عبد الحكيم) يقول لأمه بصوت هامس سمعه بالكاد:

- أننا ننتظره عند مدخل القرية .. (طلبة) و(مرزوق) يراقبان الطريق جيدًا وأنا فى طريقى إليهما فقط أريدك أن تكونى مستعدة عندما يبلغوكى بالخبر.

أرتجف قلب (جابر) بين ضلوعه وأنتفض جسده الصغير فى ذعر .. أنهم يسعون لقتل والده بالإتفاق مع أمه .. سيقتلونه ويصورون

الأمر على أنه حادث .. لم يتخيل أن تصل درجة القسوة إلى هذا الحد .. كيف لأمه أن تسمح بهذا .. كيف لعمه أن يقتل أخاه.. لقد فاقوا حتى أبشع تصوراته .. عليه أن يخرج ليحذر والده أيًا كان الثمن ولكن كيف وهو حبيس داخل غرفته لا يستطيع الخروج وهم بالخارج.

أنتظر برهة بعد أن سمع صوت باب الدار وهو يغلق وخطوات أمه وهى تعود إلى حجرتها بينما من الخارج سمع صوت صهيل الجواد الذى أمتطاه عمه مسرعًا ثم فتح باب حجرته وأخرج رأسه ببطء فلم يجد أحدًا فى ساحة الدار فسار بخفة على أطراف أصابعه وفتح باب الدار بحذر شديد وواربه خلفه وأنطلق يجرى إلى مدخل القرية وهو يدعو الله أن يلحق بوالده قبل عودته.

كان يجرى حافيًا عبر طرقات القرية وحصى الأرض وأشواكها تؤلمه وتُدمى قدميه إلا أنه لم يتوقف لحظة واحدة ودقات قلبه تتعالى وتتعالى حتى صمّت أذنيه .. تقطعت أنفاسه ولكنه أستمر يجرى حتى وصل إلى مدخل القرية وأختبأ خلف جذع شجرة ضخمة وأخذ يتلفت حوله يمينًا ويسارًا عله يرى شيئًا إلا أن السكون كان يعم كل شئ من حوله والظلام يغمر المنطقة بأكملها .. تشجع قليلًا فخرج من مكمنه وهو لايزال يتلفت حوله خشية أن يضبطه أحد وسار بمحاذاة الطريق وهو يركز بصره مُحاولًا أن يستشف ما أمامه حتى لمحه من بعيد ..

كان ملقى على وجهه بجانب الطريق فأندفع نحوه وصرخة يأس وألم تندلع من داخله وأنحنى عليه وهو يقلبه على ظهره ويرى

وجهـه وقـد غطتـه الدمـاء بعـد أن شُـجت رأسـه.
كانـت ملابسـه تغطيهـا الدمـاء بالكامـل وقـد همـد جسـده تمامًـا ..
وضـع (جابـر) أذنـه عـلى صـدره فلـم يُجاوبـه سـوى صمـت مطبـق ..
أخـذ يهـزه بقـوة يسـتعطفه ويسـتحلفه بحياتـه أن ينهـض .. أن يعـود إليـه .. ألا يتركـه وحيـدًا وسـط كل هـذه القسـوة .. أن يبقـى ظهـره الذى يحميـه ويرعـاه لكـن القـدر كان أقـوى مـن أن يسـتجيب لنداءاتـه ..
لا ليـس القـدر مـن فعـل بـه وبأبيـه هـذا بـل الخيانـة والغـدر والـشر الكامـن فى قلـب أمـه وعمـه .. ومـن بـين دموعـه التـى أنطلقـت مـن عينيـه بغـزارة أقسـم أن ينتقـم ..
ينتقـم مـن كل مـن حرمـه مـن أبيـه .. لقـد قُتـل أبيـه بيـد عمـه وبتخطيـط أمـه ومباركتهـا وسـيدفعون الثمـن .. قالهـا فى نفسـه وهـو ينحنـى عـلى رأس أبيـه يقبلهـا ويمسـح الدمـاء عـن وجهـه وهـو يعاهده قائـلًا:
- أقسـم أن يدفعـوا الثمـن يـا أبي ولـو كان هـذا آخـر شـئ أفعلـه فى حيـاتى.
ورفع رأسه إلى السماء محررًا صرخة ظلت حبيسة داخل صدره ..
صرخة أنطلقت من قلب طفل سُرقت طفولته ..
قلب لم يعد يحوى سوى الكره والأنتقام.

*****

خرجت جنازة (عبد الحميد) مهيبة شارك فيها كل أهل البلدة تقريبًا .. كانت سيرته الحسنة ومعاملته الطيبة تجعل كل من سار فى جنازته يحزن عليه ويبكيه حتى (عبد الحكيم) الذى تقدم الجنازة وحمل نعش أخيه كان يتصنع البكاء والأسى بإقتدار شديد و(نعمة) فى الخلف ضمن موكب النساء تصرخ وتولول وقد خلعت طرحتها السوداء وأخذت تشد شعر رأسها حتى تقطع فى يديها وتلطم وجهها بقوة بينما النسوة من حولها يسندونها حتى يلحقن بركب الجنازة.

كان الكل بين منتحب وباكى إلا (جابر) .. كان الوحيد الذى لم تذرف عيناه دمعة واحدة ربما لأنه أفرغ كل بكاؤه وصراخه بالأمس على جثة والده.

جثة والده التى تركها مجبرًا ملقاه مكانها عائدًا إلى الدار .. عقله الذى لم يعد صغيرًا حادثه بألا يعلم أحد بإكتشافه للأمر حتى يستطيع تنفيذ ما أنتواه وما عاهد أبيه عليه .. يجب أن يُظهر الجهل والخنوع حتى يصبح قادرًا ويدفع الجميع الثمن.

أستعاد عقله تلك اللحظة .. لحظة تركه لأبيه وهو يسير فى الجنازة وسط أصدقاؤه الذين أرادوا مؤازرته يتقدمهم (محمود) أقرب أصدقاءه الذى سار بجانبه وهو يضع يده على كتفه مواسيًا بينما عينا (جابر) مُعلقتين بنعش والده قبل أن يهبط بنظره إلى عمه (عبد الحكيم) الذى يحمل النعش ويتصنع الأنهيار والبكاء.

لحظتها لمع الدمع فى عينيه وعاد يردد القسم الذى أقسمه لوالده داخل عقله ومن داخله تصاعدت غصة..

غصة علِم أنها ستبقى بداخله إلى الأبد.

الفصل السادس

أسيوط ١٩٥٤م

مـرت الأيـام وتوالـت السـنوات سـنة تلـو الأخـرى .. كـبر فيهـا (جابـر) وصـار شـابًا يافعًـا يمتـاز بجـمال ملامحـه وذكائـه لكنـه صـار أكـثر أنطـواءًا وأنعـزالًا عـن كل مـا حولـه ومـن حولـه خاصـة بعـد زواج عمـه مـن أمـه فـور أنقضـاء سـنة واحـدة فقـط عـلى حادثـة مقتـل والـده التـى قُيـدت كعـادة تلـك الجرائـم التـى لا يوجـد بهـا دوافـع وليـس لهـا شـهود ضـد مجهـول.

مـرت تسـع سـنوات .. مـرت بالنسـبة ل(جابـر) وكأنهـا ألـف عـام مـن هـول مـا رآه فيهـا مـن إهانـة ومذلـة سـواء مـن أمـه أو مـن عمـه وفى داخلـه تحـول قلبـه إلى قطعـة مـن السـواد الناقـم عـلى كل شـئ .. لم يبـق لديـه الأمـل فى شـئ يمنحـه القـدرة عـلى الحيـاة سـوى الأنتقـام والعهـد الـذى قطعـه لأبيـه.

أنـه لم ينـس حتـى الآن كيـف أسـتولى عمـه عـلى كل شـئ .. كيـف أخرجـه مـن التعليـم وجعلـه يعمـل فى الأرض ليـل نهـار ولا يحصـل منهـا عـلى شـئ بينـما هـو ينعـم مـن خيراتهـا وينفقهـا كلهـا عـلى شـهواته وسـهراته الدائمـة مـع أصدقـاءه فلـم يبـق منهـا شـئ.

أنـه لـن ينـسى أبـدًا عندمـا أتى عمـه إلى دارهـم بعـد أسـبوع واحـد

من وفاة والده وكيف جمعت غرفة أبيه بينه وبين أمه وكأنهما يحتفلان معًا بنجاح خطتهما .. يومها ظل جسده كله يرتعد من فرط الغضب .. وكيف ظل يخبط رأسه فى جدار غرفته حتى سالت دماؤه.

دماء أبيه التى تجرى فى عروقه صارت كنهر من نار يكويه ويعذبه.. نهر ظل يصرخ بداخله طالبًا الأنتقام.

الأنتقام الذى حرمه حتى من النوم طوال السنوات السابقة حتى عندما أخرجوه من غرفته وأصبح ينام فى الزريبة الخارجية الملحقة بالدار وسط البهائم بعد أن أخذوا منه غرفته لتصبح غرفة أخويه الصغار أبناء الخيانة كما كان ينعتهم بداخله.

صحيح أنه لم يعترض وقتها فقد وافق هذا هوى فى نفسه حيث كان يخشى النوم داخل الدار فمن يدريه أن من تآمرا على أبيه لن يتآمرا على الخلاص منه هو الآخر ولم يكن يهدأ حتى يدخل الزريبة ويغلق على نفسه من الداخل حتى يشعر بالأمان إلا أن هذا لم يشفع فى شئ .. كان يتقلب فى فراشه طويلًا وكأنه ينام على جمر ملتهب.

أستعاد (جابر) كل هذا فى ذهنه وهو جالس فى الأرض بعد أن أنهى عمله مستندًا إلى جذع شجرة وقد أشعل بعض الحطب ليُساعده على تدفئة نفسه من صقيع الشتاء.

كان الليل قد أرخى سدوله منذ فترة وحل الظلام بعد أن ودعت الأرض شمسها على وعد بلقاء دافئ جديد فى الصباح لكن (جابر) ظل كعادته كل يوم أكثر من يشقى فى الأرض وآخر من يتركها ..

كان يؤخـر عودتـه إلى الـدار قـدر الإمـكان حتـى يعـود عـلى ميعـاد النـوم مبـاشرة.

كان يحـاول طـوال السـنين السـابقة تجنـب أمـه التـى لم تعـد أمـه .. لم يعـد يربطـه بهـا أى شـئ حتـى رابـط الـدم تـم حلـه يـوم أن سـال دم والـده عـلى يديـه بمباركتهـا .. يـوم أن أصبـح يتيـمًا بفضـل تخطيطهـا هـى وشريكهـا فى الجريمـة.

أرجـع رأسـه إلى الخلـف وأغلـق عينيـه وهـو يأخـذ نفسًـا عميقًـا مـلأ بـه صـدره قبـل أن يزفـره .. يزفـر آخـر أنفـاس الهـواء النقـى قبـل أن يعـود إلى هـواء الـدار الفاسـد حيـث تتنفـس الخائنـة والخائـن.

أمتـلأت نفسـه بالحنـق وهـو يقـوم مـن مكانـه مضطـرًا ليعـود إلى الـدار .. أطفـأ النـار بواسـطة بعـض الرمـال وجرجـر قدمـين ثقيلتـين ثقـل المـوت عـلى القلـوب حتـى وصـل إلى الزريبـة فأغلـق بابهـا خلفـه بإحـكام وألقـى بجسـده عـلى السريـر الصغـير الـذى نصبـه بجـوار الحائـط أسـفل الشـباك الوحيـد الموجـود بالحجـرة والـذى أغلقـه مـن الداخـل بإحـكام وحـاول جعـل جسـده يسـترخى علـه يسـتقطب النـوم كضيـف طـال أنتظـاره.

أغلـق عينيـه جلبًـا لمزيـد مـن الأسـترخاء ثـم لحظـات وفتحهـما عـلى أتسـاعهما فى توتـر شـديد مـع سـماعه صـوت طرقـات خافتـة عـلى البـاب مـن الخـارج وكأن هنـاك مـن يحـاول دفـع البـاب للدخـول.

أنتفـض جسـده فى عنـف وأعتـدل جالسًـا فى مكانـه قبـل أن ينهـض ويتحـرك بخفـة وحـذر نحـو البـاب قائـلاً بصـوت مرتعـد:

- مَن؟

جاوبـه الصمـت للحظـات ظـل فيهـا صـدره يعلـو ويهبـط قبـل أن يسـأل مجـددًا:

- مَن بالخارج؟

عـاد صـوت الطـرق مـن جديـد بشـكل أقـوى هـذه المـرة حتـى كاد البـاب يُقتلـع مـن مكانـه فأنتفـض جسـده بشـدة وتراجـع إلى الخلـف فى سرعـة وهـو ينظـر حولـه يمينًـا ويسـارًا حتـى عـثر عـلى فـأس مُلقـى بجانـب الحائـط فألتقطـه بسرعـة ورفعـه فى تحفـز وأسـتعد للمواجهـة إلا أن الطـرق توقـف فجـأة وخيـم صمـت رهيـب عـلى المـكان فتقـدم (جابـر) بحـذر مـن البـاب وألصـق أذنـه بـه مـن الداخـل فلـم يسـمع شـيئًا لحظـات ظـل فيهـا عـلى توتـره خشـية أن تكـون لعبـة حتـى يدفعـه مـن بالخـارج لفتـح البـاب .. أخـذ يفكـر لبرهـة ثـم أندفـع ناحيـة سريـره يعتليـه ويفتـح النافـذة بحـذر قبـل أن ينظـر إلى الخـارج فلـم يجـد أحـدًا فألقـى الفـأس إلى الخـارج ودفـع جسـده عـبر النافـذة عـلى الرغـم مـن صغرهـا ألا أنـه حـشر نفسـه حتـى خـرج هابطًـا عـلى قدميـه فـأسرع يلتقـط الفـأس مـن جديـد ويرفعـه وهـو يُلصـق ظهـره بالحائـط وأخـذ يتقـدم إلى الأمـام بحـذر شـديد ومـد عنقـه ينظـر ناحيـة البـاب الـذى كاد أن يُقتلـع مـن شـدة الطـرق فوجـد المـكان خـالى تمامًـا.

تنفـس الصعـداء وأنـزل فأسـه وهـم بالعـودة إلى فراشـه مـن جديـد عـن طريـق الشـباك كـما خـرج لـولا مـا لمحـه أمـام بـاب الزريبـة وتعلـق بـصره بـه فأمـام البـاب مبـاشرة كانـت بقعـة دمـاء كبـيرة وكأن هنـاك مـا تـم ذبحـه أمـام الزريبـة منـذ قليـل.

عـاد إليـه تحفـزه وسـار ناحيـة البـاب وبـصره مُعلـق بتلـك البقعـة

الدموية الكبيرة إلا أن أكثر ما أثار أنتباهه هو الخطوات التى خرجت من تلك البقعة .. خطوات قدم بشرية تركت آثارًا مدممة على الأرض .. تبع تلك الآثار فوجدها تتجه ناحية الدار فرفع فأسه من جديد وتبع الخطوات المطبوعة على الأرض حتى وصل إلى باب دارهم ليجده مفتوحًا على مصرعيه .. خطا إلى داخل الدار وهو يتلفت حوله خشية أن يكون صاحب الخطوات مختبئًا.

كان أول ما صادفه باب غرفة الطفلين عن يمينه مفتوحًا هو الآخر فأندفع إلى داخل الحجرة شاهرًا فأسه .. قبل أن يرتد إلى الخلف مصعوقًا من هول ما رآه فأمامه مباشرة كان الطفلين مذبوحين فى مكانهما على السرير الذى أمتلأت ملاءاته بالدماء فتراجع إلى الخلف وهو يتمتم بصوت مرتجف:

- مستحيل.

لم يكن يُكِّن لهم أى عاطفة بل لم يكن يُكِّن لأى أحد داخل تلك الدار أى عاطفة إلا أن بشاعة المنظر كان فوق تصوره.

خرج من الغرفة وهو يحاول أن يستجمع شتات نفسه وتقدم مرة أخرى ناحية حجرة أمه التى كان بابها مواربًا .. تمامًا كما وجده عندما ضبطها مع عمه أول مرة فدفعه بحذر وهو يرفع فأسه إلا أن جسده أرتد بعنف هذه المرة عندما وجد عمه معلقًا من رقبته فى السقف بحبل غليظ وجسده يتأرجح حول نفسه وقد جحظت عيناه وبرز لسانه خارجًا من فمه فى مشهد مرعب.

أدار بصره ناحية السرير فوجد يدين تغطيهما الدماء تتعلق برقبة أمه تعتصرها بينما الأخيرة عيناها جاحظتان فى رعب غير مُصدق

وقد نفذت منها الحياة.

مرت لحظات ومازالت اليدين تعتصر عنق أمه بلا رحمة قبل أن تتركها جثة هامدة ويلتفت صاحبها ناحيته .. لحظتها سقط الفأس من يده وهو يلتصق بالحائط خلفه فى رعب شديد فأمامه مباشرة كان أباه ماثلًا أمامه وقد تغطى وجهه بالدماء كما رآه آخر مرة وبصوت خرج منه كالفحيح تمتم:

- أبي.

أرتعد وجه أباه من فرط الغضب وهو يصرخ:

- لست أباك.

ثم حول بصره ينظر إلى أخاه المعلق من رقبته فى سقف الحجرة وإلى (نعمة) التى كانت جثة هامدة على سريرها قائلًا بصوت تردد صداه كأنه خارج من جوف بئر مهجور:

- أكان لابد أن أعود لأنتقم لنفسى .. ألم أترك ولدًا ينتقم لى ويُريحنى فى قبرى.

ردد (جابر) بصوت مرتعد:

- كنت سأفعلها .. كنت سأفعلها يا أبي أقسم لك.

أقترب منه أباه ورفع نحوه يداه الغارقتان بالدماء وهو يقول بصوت حمل كل الغضب:

- بل أنت أجبن من أن تأخذ حقى .. لست رجلًا كى تأخذ ثأرى.

وقبض بيديه على عنق (جابر) يعتصرها قائلًا فى مقت:

- ولست ولدى كذلك.

صرخ (جابر) واليدين تعتصر الحياة من داخله:

- الرحمة يا أبي .. الرحمة.

أجابه صوت أباه فى مقت:

- لا رحمة لأمثالك.

ظـل (جابـر) يـصرخ ويـصرخ قبـل أن ينهـض مـن فراشـه مفزوعًـا والعـرق يغمـر جسـده بالكامـل وهـو يسـعل بشـدة ويتحسـس رقبتـه فى ذعـر.

كان الكابـوس الـذى رآه لايـزال ماثـلًا أمـام عينيـه بـكل تفاصيلـه فأخفـى وجهـه بـين راحتيـه وأخـذ يبـكى بحرقـة وهـو يـردد مـن بـين دموعـه:

- سأفعلها يا أبي .. أقسم أن أفعل حتى تستريح.

قالهـا والتقـط قلـة المياه مـن جانبـه فـشرب منهـا حتـى أرتـوى تـاركًا المياه تنساب بغـزارة عـلى رقبتـه قبـل أن يضعهـا ويضـم يديـه فى قـوة ومـن داخلـه علـم أن السـاعة التـى أنتظرهـا طـوال السـنين السـابقة قـد حانـت..

ساعة الأنتقام.

*****

أنهمك (جابر) فى حرث الأرض منذ الصباح الباكر وحتى الآن وقد قاربت الشمس على المغيب .. سال عرقه بغزارة وبلل ملابسه من فرط المجهود الذى يبذله وتساقطت قطرات العرق داخل عينيه تُحرقهما وتُزيدهما أحمرارًا فأعتدل يمسح جبينه وفرد جسده عن آخره ملتقطًا نفسًا عميقًا ملأ به صدره قبل أن يزفره فى حرقة.

صارت حياته جحيمًا .. ما بين العمل فى الأرض من شروق الشمس حتى مغيبها والكوابيس التى صارت تطارده كلما حاول أن يغمض عينيه .. لا بل هو كابوس واحد يُشاهده يومًا تلو الآخر فى عرض مستمر أنهك بدنه وعذب روحه .. كان يعمل فى الأرض بمنتهى القوة حتى يُنهك جسده عن آخره فيستطيع النوم بسهولة ليلًا لكن هيهات ما أن يغمض عينيه حتى يتكرر المشهد بكل تفاصيله من أول الطرق على الباب حتى يدى والده الغارقة بالدماء وهى تعتصر عنقه بلا رحمة.

أنتبه على صوت خطوات جواد قوى تضرب الأرض فحول نظره ناحية الطريق كان عمه يمتطى جواده قادمًا ناحيته .. كعادته يستيقظ متأخرًا ويقضى يومه إما فى المركز أو مع أصدقاءه فى جلسات الحشيش تاركًا هم رعاية الأرض بالكامل على عاتق (جابر).

أقترب عمه منه فنظر له (جابر) دون أن ينطق فبادره (عبد الحكيم) بلهجة آمرة:

- لا تعود إلى الدار الليلة قبل أن تُنهى حرث الحوض القبلى بأكمله.. هل تفهم؟

أجابه (جابر) بصوت خفيض مع إيماءة من رأسه:

- أفهم.

أكتفى (عبد الحكيم) بتلك الأجابة ولكز جواده بقدمه وسار فى طريقه تاركًا (جابر) يفكر .. كان قد أتخذ قراره بتنفيذ الأمر حتى يستريح من هذا العذاب اليومى وهاهى الفرصة تأتى سانحة له على طبق من ذهب .. فعمه لن يعود قبل آخر الليل تاركًا أمه والصغيرين وحدهم فى الدار وبمنتهى القوة هبط بفأسه على الأرض كأنه يودعها.

ظل فى الأرض حتى مغيب الشمس ثم جمع أدواته وذهب كعادته إلى المقابر حيث قبر والده .. قرأ الفاتحة ثم جلس أمامه ينظر إلى القبر فى صمت.

الليلة يتم الأمر ويستريح ..

الليلة تتحقق العدالة الغائبة ويدفع الكل الثمن ..

الليلة فقط يستريح أباه فى قبره وتهدأ دماؤه التى تصرخ طالبة الثأر والليلة أيضًا يودع كل ما حوله .. حياته السابقة بأكملها ويبدأ حياة جديدة بعيدًا عن ذكريات الماضى المرعبة ومن بين أفكاره خرج صوته حازمًا:

- الليلة يا أبى أحقق ما عاهدتك عليه .. أنا لم أنس ولن أنسى أبدًا .. الليلة ستفخر بى وتعلم أنك أنجبت رجلًا.

أستمر فى مكانه لساعات يحادث أباه ويطمئنه قبل أن ينهض واضعًا يديه على القبر مودعًا ثم أنحنى طابعًا قبلة على حجارة القبر الباردة وسار عائدًا إلى الدار.

حين دخلها كان الجو هادئًا والصمت يخيم على المكان .. الصغار

نائمين فى حجرتهما وأمه فى حجرتها .. بحث بعينه بين أدوات الدار حتى عثر على سكينًا والتقط عصا غليظة مركونة بجوار الفرن الكبير فى ساحة الدار ثم دخل إلى غرفة الصغار وكانا غارقين فى النوم .. ألقى عليهما نظرة باردة قبل أن يقترب منهما رافعًا سكينه وبآلية تامة وكأنه منوم مغناطيسيًا هوى عليهما بها مرة تلو الأخرى تلو الأخرى .. أستمر يطعنهما حتى غرقت يديه وجلبابه وملاءات السرير بالدماء .. لم يصرخا كانا غارقين فى النوم تمامًا ثم مد يده بالسكين ناحرًا كل منهما.

عاد إلى الوراء يتطلع إلى عمله فى صمت كفنان مبدع أنهى لوحة سيريالية جميلة عنوانها الأنتقام .. خرج متجهًا ناحية غرفة أمه التى كانت مضطجعة على سريرها مرتدية قميصًا ورديًا وقد أغمضت عينيها.

دفع باب الحجرة فأصطدم بالحائط محدثًا دويًا شديدًا جعلها تفتح عيناها فى فزع وما أن رأته بعينيه الباردتين والسكين الذى يقطر منه الدم وجلبابه الغارق بالدماء حتى أتسعت عيناها فى غير تصديق وهمت بإطلاق صرخة فزع فألقى (جابر) السكين والعصا من يديه وهجم عليها يعتصر رقبتها فى قوة شديدة.

حاولت (نعمة) الدفاع عن نفسها .. ظلت تحاول التملص دون جدوى .. رفست بقدميها .. حاولت دفعه بيديها .. خمشته بأظفارها لكن قبضته أستمرت تعتصر عنقها فى حقد وكراهية نازعة آخر رمق من الحياة بداخلها قبل أن ترتخى ذراعيها وتهمد حركتها وقد جحظت عيناها فى رعب غير مصدق.

ظلـت قبضتـه ملتفـة حـول عنقهـا لبرهـة بعـد أن همـدت تمامـاً ثـم تركهـا رافعًـا عينيـه إلى العـارض الخشـبى الـذى يدعـم سـقف الحجـرة وخـرج يُحـضر الحبـل الـذى كان قـد أعـده وتركـه فى سـاحة الـدار.

عندمـا عـاد (عبـد الحكيـم) إلى الـدار كان يسـير مترنحًـا مـن أثـر الحشـيش الـذى ظـل يشربـه طيلـة الليـل .. هبـط عـن فرسـه ودفـع البـاب عابـرًا سـاحة الـدار قبـل أن يدفـع بـاب حجرتـه ويشـهق فى عنف فأمامـه كانـت هنـاك مشـنقة تتـدلى مـن السـقف وحبلهـا يتأرجـح أمـام عينيـه بينـما (نعمـة) ترقـد جثـة هامـدة عـلى السريـر وقـد تلوثـت عنقهـا بالدمـاء وعيناهـا لاتـزالان عـلى أتسـاعهما .. كان هـذا آخـر مـا رأه قبـل أن تظلـم عينيـه دفعـة واحـدة أثـر ضربـة قويـة أصابـت رأسـه مـن الخلـف فهـوى سـاقطًا أرضًـا ومـن خلفـه بـرز (جابـر) الـذى كان مختبئًـا فى غرفـة الصغـار.

فتـح (عبـد الحكيـم) عينيـه إثـر لطمـة قويـة مـن (جابـر) فوجـد يـداه وقـد قُيـدت خلـف ظهـره بينـما (جابـر) يُدخـل عنقـه داخـل المشـنقة التـى أعدهـا لـه بعـد أن أوقفـه عـلى مقعـد مـن مقاعـد الدار فأرتعشـت قدمـاه فى رعـب وسـالت دموعـه عـلى وجهـه وهـو يسـتحلفه قائـلًا:

- الرحمة يا (جابر) .. لا تقتلنى.

هبط (جابر) على الأرض بعد أن ثبته جيدًا وقال ناظرًا له فى غل:

- لا رحمة لأمثالك.

أنتحب (عبد الحكيم) قائلًا فى أستعطاف:

- لماذا يا (جابر) .. لماذا يا ولدى؟

صرخ (جابر) فى غضب:

- لست ولدك .. أنا أبن (عبد الحميد) الذى قتلته.

أتسعت عينا (عبد الحكيم) فى ذعر هاتفًا:

- أنا لم أقتله .. بل قتله قطاع الطرق أقسم أن...

قاطعه (جابر) فى صرامة:

- لا داعى للكذب أنا أعلم كل شئ .. أعلم أنك قتلت أبى لتحصل على الأرض والدار وزوجته .. لقد سلبته كل شئ.

ثم أقترب منه قائلًا بصوت حمل كل البغض:

- وأنا اليوم سأسلبك حياتك.

صرخ (عبد الحكيم):

- لا .... لا.

لكن (جابر) دفع الكرسى بقدمه تاركًا عمه يتدلى أمامه من السقف وقد أحتبست الصرخة داخل حلقه وبرزت عيناه من محجريهما بينما لسانه يتدلى خارج فمه عندها وعندها فقط أرتسمت أبتسامة راحة على شفتى (جابر) وهو ينظر حوله .. ينظر لعمله الذى أكتمل.

عاد (جابر) إلى الزريبه فغسل يديه ووجهه وغير جلبابه بآخر نظيف ثم خرج يعتلى فرس عمه الذى كان واقفًا خارج الدار وأندفع به تاركًا القرية كلها خلفه..

يترك ماضيًا يُحاول أن ينساه حتى وصل إلى مدخل القرية فخفف من سرعة جواده ناظرًا إلى البقعة التى سقط فيها أباه ميتًا عندها خُيل إليه أن أباه يقف فى مكانه ملوحًا له بيده وقد أرتسمت على شفتيه أبتسامة رضا.

بادلـه (جابـر) الأبتسـام ولـوح لـه بيـده حتـى أختفـى مـن أمـام عينيـه ثـم لكـز جـواده منطلقًـا جهـة المركـز نحـو حيـاة جديـدة ...
تاركًا الموت يحلق بجناحيه فوق دار (عبد الحميد) إلى الأبد.

*****

الفصل السابع

هبط (شريف) من السيارة التى يقودها مساعده الملازم (عادل) الذى هبط خلفه وأسرع يلحق به .. كان (شريف) قد بحث عن أسم صاحبة الروشتة الطبية التى تم العثور عليها ضمن ما تم العثور عليه فى الصندوق وعلم أن أبنتها لاتزال تعيش فى نفس المنطقة فحصل على عنوانها وهاهو يطرق على باب المنزل منتظرًا. مرت دقائق قبل أن تفتح الباب سيدة عجوز فى منتصف السبعينات كما أُوحى إليه من ملامحها المتغضنة وشعرها الأبيض القصير الذى عقصته خلف رأسها وغطته بإيشارب بسيط .. تطلعت لهما السيدة وقد زوت ما بين عينيها دلالة على ضعف بصرها قبل أن تقول:

- من أنتما؟

رسم (شريف) على شفتيه أبتسامة مطمئنة وهو يقول:

- أنا الرائد (شريف مدكور).

ثم أشار إلى زميله متابعًا:

- وهذا شريكى الملازم (عادل عبد الرحمن) .. جئنا إليك ونريد أن نُلقى عليك بعض الأسئلة.

ظلت السيدة تنظر لهما وهى تسأل:

- بخصوص ماذا؟

أجابها (شريف) قائلًا:

- أننا نحقق فى بعض الجرائم حدثت أثناء الفترة التى كنت تعيشين فيها مع والدتك رحمها الله .. سنلقى عليك بعض الأسئلة بخصوص تلك الفترة ربما تكشفين لنا بعضًا من غموض هذه القضية.

فتحت الباب سامحة لهما بالدخول وتقدمتهما إلى غرفة الضيوف .. كانت تتعكز على عصا فى يدها لذا سارت ببطء وهما خلفها حتى جلست قبالتهما قبل أن تسأل فى تحرج:

- ماذا تريدان أن تشربا؟

أبتسم كل من (شريف) و(عادل) والأول يُجيب قائلًا:

- لا داعى يا حاجة شكرًا لك.

- أنتم ضيوف ياولدى وهذا واجبكم.

- لو أردنا شيئاً يا حاجة سنطلبه على الفور.

ثم أعتدل فى مكانه كى يدخل فى صلب الموضوع متسائلًا:

- يا حاجة (أنتصار) لقد بحثنا عنك كما قلت لسؤالك بخصوص الوالدة رحمها الله لقد كنت تعيشين معها فى بيتها المجاور لمحطة القطار منذ بداية الأربعينات وحتى زواجك وأنتقالك إلى بيت زوجك أليس كذلك؟

هزت (أنتصار) رأسها ببطء مُجيبه:

- نعم يا ولدى.

أخرج (شريف) من جيبه الروشتة التى ظهر عليها القدم من إصفرارها وتأكل أطرافها وفردها أمام الحاجة (أنتصار) وهو يسأل:

- هذه الروشتة الطبية عُثر عليها حديثًا داخل صندوق مغلق

هـذه الروشـتة تخـص والدتـك الحاجـة (سـميحة) أسـمها مـدون عليهـا .. أريـدك أولًا أن تُلقـى نظـرة عليهـا وتخبرينـى مـع مـن كانـت هـذه الروشـتة؟

قربـت (أنتصـار) عينيهـا مـن الورقـة المفـرودة أمامهـا وتطلعـت إليهـا بتركيـز شـديد قبـل أن تبتسـم وتهـز رأسـها قائلـة:

- لقـد مـر وقـت طويـل منـذ أن رأيـت هـذه الورقـة كان هـذا مـن زمـن بعيـد.

سألها (شريف) فى لهفة:

- إذن هذه الروشتة تخص والدتك فعلًا؟

هزت رأسها أن نعم ثم أضافت قائلة:

- كانـت رحمهـا اللـه مريضـة مرضًـا شـديدًا والألم كان أصعـب مـن أن تحتملـه فكنـا نحقنهـا بالمخـدر حتـى تسـتريح.

- ومن كان يحضر لها الدواء المخدر؟

أجابت على الفور:

- أنا كنت أُحضره من صيدلية قريبة من المنطقة.

ثـم سـكتت للحظـات وكأنهـا تتذكـر شـيئًا فصمـت (شريـف) ليعطيهـا مسـاحة كى تتكلـم فأضافـت:

- ولكـن بعـد فـترة كان أحـد جيراننـا هـو مـن يأخـذ الروشـتة ويُحـضر الـدواء.

عاد (شريف) يسأل:

- لماذا؟

هزت رأسها فى عدم فهم فأوضح (شريف) سؤاله قائلًا:

- لماذا كان جاركم هذا هو من يحضر الدواء ولماذا توقفت أنت عن إحضاره؟

أجابت قائلة:

- لقد كنت صغيرة فى ذلك الوقت وأحيانًا كنا نحتاج للدواء فى أوقات متأخرة فكان جارنا يتطوع لإحضاره.

- وماذا تعرفين عن جاركم هذا؟

ترددت للحظة لاحظها (شريف) على الفور وإن لم يعلق وأنتظر حتى أجابت:

- لا أعلم عنه الشئ الكثير سوى أنه شاب قادم من الصعيد كان يسكن المنزل معنا فى الطابق الأرضى وظل فيه عدة سنوات قبل أن يعود إلى بلدته أو هذا ما قيل وقتها.

نظر لها (شريف) للحظة وكأنه يسبر أغوارها قبل أن يسأل:

- هل تتذكرين أسمه؟

نظرت الحاجة (أنتصار) إلى السقف كمن تتذكر قبل أن تُجيب قائلة:

- أظن أن أسمه كان (محمود).

- (محمود) ماذا؟

هزت رأسها يمينًا ويسارًا دلالة على عدم المعرفة مُجيبة:

- لست أدرى لقد كنا نعرفه ب(محمود) .. (محمود الصعيدى).

- من أى بلد فى الصعيد؟

- لا أعلم سوى أنه من الصعيد أما من أى مكان تحديدًا فى الصعيد فهذا ما لم أعلمه ولا أحد غيرى كان يعلمه.

نظر (شريف) ل(عادل) فى يأس قبل أن يلتفت إلى الحاجة (أنتصار) قائلًا:

- سؤال أخير يا حاجة أتستطيعين أن تتذكرى فى أى عام تحديدًا عاد هذا الشخص إلى بلده؟

أبتسمت (أنتصار) فى وهن قائلة:

- يا ولدى كان هذا من زمن بعيد جداً لم تعد ذاكرتى كما كانت كى أحفظ التواريخ كما كنت فى السابق .. لكننى رأيته يحمل حقيبته مغادرًا.

بادلها (شريف) الأبتسام وهو يشير ل(عادل) لينهضا معاً وهو يشكر مضيفتهما على حسن تعاونها معهما قبل أن يغادرا المنزل و(عادل) يقول ل(شريف) فى ضجر:

- لم تفيدنا فى شئ فلم نحصل منها على معلومة واحدة مفيدة .. ثم من (محمود) هذا وكيف نتعقب أثره لنعرف نهايته.

أبتسم (شريف) وهو يربت على كتفه قائلًا:

- أهدأ .. ستتضح الأمور رويدًا رويدًا كل ما علينا هو السعى والأنتظار كما أننى أشعر أن هذه السيدة أخفت عنا أكثر مما قالت.

نظر له (عادل) فى دهشة وهو يتساءل:

- وما مصلحتها فى ذلك؟

هز (شريف) رأسه فى حيرة وهو يُجيب:

- لا أدرى لكن أحساسى يُنبئنى أن لديها معلومات عن هذا الشخص أكثر مما قالت لنا.

ثم تنهد مكملًا وهو يربت على كتفه مرة أخرى:

- على العموم أذهب الآن لتستريح وسيكون لدينا حديث آخر قريبًا.

أفترقا وذهب كل منهما فى طريقه قبل أن يتوقف (شريف) وينظر إلى الخلف متطلعًا إلى الأعلى حيث نافذة منزل الحاجة (أنتصار) التى كانت تنظر له من خلف زجاج نافذتها السميك قبل أن يخفض بصره ويمضى مبتعدًا.

*****

أولج (شريف) مفتاحه فى ثقب الباب وأداره قبل أن يدلف بهدوء إلى الداخل وهو يتشمم الهواء من حوله ويبتسم فى حنان ثم خطا على أطراف أصابعه حتى وصل إلى مطبخ شقتهم الذى أنبعثت منه تلك الرائحة الطيبة للطعام الذى يعده والده.

والده الذى كان يقف فى منتصف المطبخ وهو يرتدى قفازًا منزليًا بسيطًا ويُقلب الطعام على النار وهو يدندن لحنًا قديمًا لأحدى أغانى محمد عبد الوهاب مطربه المفضل وقد بدا منشغلًا عن كل ما حوله حتى أنه لم ينتبه إلى (شريف) الذى وقف يتابعه باسمًا على باب المطبخ حتى صاح الأخير:

- الله عليك يا شيف.

التفت إليه والده (حسين مدكور) وقد أنتبه لوجوده ورد عليه ضاحكًا:

- يا بنى الطبخ فن وله قواعد وأصول وأنا بلا فخر أستاذ ورئيس

قسم .
قال له (شريف) وهو ينحنى أحترامًا:
- إذن أنتهـى مـما تُعـده سريعًـا يـا سـيادة رئيـس القسـم فأنـا أكاد أمـوت مـن الجـوع.
- ريثما تُبدل ملابسك وتُلقى التحية على جدك أكون قد أنتهيت.
تركـه (شريـف) وذهـب إلى غرفتـه فأبـدل ملابسـه وأتجـه إلى غرفـة جـده .. كان (شريـف) يعيـش مـع والـده وجـده فى منـزل والـده خاصـة بعـد شجاره الأخـير مـع زوجتـه منـذ أكـثر مـن ثلاثـة شـهور .. زوجتـه التـى لم تحتمـل معـه أكـثر مـن ثـلاث سـنوات قبـل أن تتحـول حياتهـما إلى صراع مسـتمر وشـجار ليـل نهـار .. أنـه يتذكـر كيـف كان شـجارهما الأخير عندمـا وقفـت أمامـه تمنعـه مـن الخـروج وقـد وضعـت يديهـا فى وسـطها فى تنمـر وهـى تصيـح غاضبـة:
- لـن تخـرج قبـل أن ننهـى هـذا الموضـوع لقـد سـئمت تجاهلـك الدائـم لى وكأننـى كـم مهمـل فى البيـت بـلا قيمـة .. ألم تتعلـم أن تهتـم بزوجتـك وبيتـك كـما تهتـم بعملـك أم أن أنشـغالك الدائـم بعملـك أنسـاك أن لديـك زوجـة لهـا عليـك حقـوق.
كان قـد بلـغ منتهـاه مـن كـثرة الشـجار اليومـى فصـاح غاضبًـا هـو الآخـر:
- مـاذا تريديـن منـى أن أفعـل أننـى ضابـط شرطـة أتدريـن مـا معنـى ضابـط الشرطـة أم أنـك تطلبـين منـى أن أتـرك عمـلى وأبقـى بجـوارك.
صاحت فى ثورة أكبر:
- كل الرجـال تعمـل ولكنهـم لا يهملـون بيوتهـم مثلـما تفعـل .. أنـك

تخرج فى الصباح الباكر وتبيت بالأيام خارج البيت وحتى عندما تعود تعود آخر الليل وكأن البيت مجرد فندق للنوم فقط.

زفر فى ضيق وحنق واضح وهو يقول وهو يتجه ناحية الباب:

- أيمكننا تأجيل هذا الشجار حتى أعود؟

نظرت له فى تحد وهى تقول:

- أننى لن أرجئ أى شئ .. لقد أكتفيت.

توقفت يده وهى تمسك بمقبض الباب والتفت لها وهو يسألها:

- ماذا تقصدين؟

أجابته ببرود:

- أننى ذاهبة إلى بيت والدى ولديك الخيار أما أن تتعلم أن تهتم بزوجتك وأما فإن طلاقنا هو الحل الوحيد.

لحظتها نظر لها فى صمت قبل أن يفتح الباب ويندفع خارجًا وهو يصفق الباب خلفه بمنتهى القوة.

أستعاد ذهنه ذلك الشجار وتلك الذكرى وهو يقف على باب حجرة جده فنفض رأسه فى قوة وهو يدق على الباب بهدوء قبل أن يفتحه ويدلف إلى الداخل حيث كان جده الذى تعدى عمره منتصف الثمانينيات جالسًا فى سريره يحتضن مصحفه الكبير وينظر إلى النافذة التى تجاوره يتطلع إلى ضوء النهار فجلس بجواره وربت على يده المعروقة وهو يرسم أبتسامة على وجهه قائلًا:

- كيف حالك يا كبيرنا؟

بادله جده الأبتسام وهو يقول بصوت ضعيف:

- فى خير حال يا ولدى بحمد الله.

ثم تطلع إلى وجهه وإلى إلتماعة عينيه وقال:
- البسمة على وجهك بينما قلبك مثقل بالهموم يا ولدى.
أشاح (شريف) بوجهه فى صمت فأكمل جده قائلًا:
- كل مشكلة ولها حل فقط دع الأمور تأخذ وقتها وما على الله سيكون.
نظر له (شريف) قائلًا:
- ماذا كنت ستفعل يا جدى لو كنت مكانى لقد كنت ضابط شرطة وكذلك والدى .. ماذا كان بيدى لأفعله؟
- سأدع الوقت يذيب أى خلاف .. زوجتك تحبك وأنت تحبها وخلاف كهذا لن ينهى ما بينكما.
- لقد تغيرت (جميلة) كثيرًا منذ أن أجهضت حملها للمرة الثانية وكأن هذا ذنبى أنا .. صارت أكثر عصبية وتميل للشجار حتى على أتفه الأسباب.
ثم رسم أبتسامة باهتة على وجهه وهو يقول لجده مازحا:
- أكانت جدتى تفعل معك الشئ نفسه أم أن وجود والدى شغلها عن كل شئ.
عاد جده يتطلع من خلال النافذة وهو يقول:
- لم يعد لدى منها الآن سوى الذكرى .. أن نعمة النسيان ليست متاحة لمن يطلبها.
لم يفهم (شريف) معنى جملته فتساءل:
- لماذا لا أجد لها أى صورة فى المنزل ولا حتى فى حجرتك هذه؟
نظر له جده للحظات فى صمت قبل أن يقاطعهما صوت والده

مـن خـارج الحجـرة مناديًـا:

- الغذاء جاهز أحضر جدك وهيا قبل أن يبرد الطعام.

ساعد (شريـف) جـده عـلى الخـروج مـن سريـره وناولـه عكازه الخشبى وتلقـى يـده الأخـرى وسـانده حتـى مائـدة الطعـام ثـم جلـس ثلاثتهـم يتناولـون الطعـام فى صمـت قبـل أن يقطعـه والـده متسـائلًا:

- ما أخبار العمل أهناك قضايا جديدة؟

أجابه (شريف) وهو يتناول طعامه ويبتسم:

- يبدو أننا سنقوم بعملنا وعملكم فى نفس الوقت.

نظر له أباه فى حيرة فتابع قائلًا:

- أننـى أحقـق فى قضيـة جـرت أحداثهـا فى خمسينات القـرن الماضى أى منـذ أن كان جـدى ضابطًـا صغـيرًا لايـزال فى الخدمـة.

تساءل أباه مندهشًا:

- قضية منذ الخمسينات ولم تُكتشف إلا الآن؟

هز (شريف) رأسه إيجابًا وهو يقول:

- أنهـا ليسـت قضيـة عاديـة بـل قضيـة لـو تسربـت للإعـلام ستشـغل الـرأى العـام طويـلًا فليـس كل يـوم يكـون لديـك قضيـة بطلهـا سـفاحًا أو قاتـل متسلسـل.

- وكيف أكتشفتم هذه الجرائم الآن؟

- لقـد عثرنـا عـلى عـدد مـن الجثـث والهيـاكل العظميـة فى منـزل مجاور لمحطـة القطـار مبـاشرة ومـازال البحـث جاريًـا وإن كانـت الصـورة سـتبدأ تتضـح تدريجيًـا الفـترة القادمـة ثـم أن....

قطع جملتـه عـلى صـوت حشرجـة وسـعال جـده الشـديد الـذى أمتقـع

وجهه بشدة وغابت عنه الدماء فأندفع هو ووالده يسندون جده حتى أوصلوه إلى حجرته ووضعوه فى سريره بعناية بينما أندفع (شريف) ليحضر له كوب من الماء وهم بالعودة إليهما إلا أنه توقف متصلبًا فى مكانه على صوت والده وهو يصرخ فى ذعر ولوعة .. عندها سقط كوب الماء من يده وتناثرت أجزاءه على الأرض مع أرتجافة يده وأنقباض قلبه .. فصرخة أباه كانت تعنى أن لحظة الفراق قد حانت وأنه ووالده سيفقدان أعز من لديهما الآن .. إلى الأبد.

*****

الفصل الثامن

أشـتدت الريـاح فى هـذا الوقـت المتأخـر مـن الليـل وظلـت تصفـع وجهـه فى قـوة فرفـع (جابـر) ياقـة جلبابـه يغطـى بهـا أذنيـه وضـم راحتيـه أمـام وجهـه ينفـخ فيهـما فى قـوة كى يلتمـس بعضًـا مـن الـدفء المفقـود وهـو جالـس عـلى أرض محطـة القطـار مسـتندًا إلى الحائـط ينتظـر بفـارغ الصـبر القطـار الـذى سـيحمله بعيـدًا ليبـدأ حيـاة جديـدة بعيـدًا عـن كل هـذا المـوت.

عليـه أن يتنـاسى كل هـذا المـاضى المـؤلم .. لقـد حقـق أنتقامـه وصـدق وعـده لوالـده لكـن الألم كان ولايـزال ينهـش روحـه والصـداع يطـرق رأسـه بـلا رحمـة مـع أنتفاضـة جسـده كلـما تذكـر مـا فعلتـه يـداه .. الذكـرى عـدوه الجديـد الـذى سـيصارعه ليـل نهـار.

ظـل جالسًـا فى مكانـه عـدة سـاعات بـلا حـراك حتـى سـمع صـوت القطـار وهـو يـأتى مـن بعيـد فتنهـد فى أرتيـاح وأطلـق زفـرة حـارة تكاثفـت عـلى هيئـة بخـار أمـام وجهـه فقـد كان طـوال السـاعات الماضيـة منكمشًـا فى مكانـه فى خـوف خشـية أن يكتشـف أحـد مـا جريمتـه مبكـرًا ويلحقـوا بـه إلى محطـة القطـار.

كان بـين الحـين والآخـر .. ينظـر بقلـق وترقـب إلى بـاب المحطـة متخيـلًا أن رجـال الشرطـة سـيقتحموه فى أيـة لحظـة ويلقـون القبـض عليـه قبـل

أن يقتـادوه إلى حبـل المشـنقة لذلـك كان صـوت صفـير القطـار القـادم مـن بعيـد وأحتـكاك عجلاتـه عـلى القضبـان الحديديـة فى أذنـه أفضـل مـن أى موسـيقى قـد يكـون سـمعها فى حياتـه.

أنتظـر حتـى توقـف القطـار فى المحطـة وصعـد إلى آخـر عربـة فيـه منتقيًـا مـكان صغـير فى ركـن العربـة وأفـترش الأرض فيـه منتظـرًا تحـرك القطـار .. مـرت عليـه الدقائـق التاليـة كالدهـر حتـى سـمع أخـيرًا صافـرة تحـرك القطـار الـذى بـدأ بالفعـل تحركـه مبتعـدًا عـن المحطـة عندهـا أطلـق زفـرة أخـرى أكـثر راحـة وهـو يُغلـق عينيـه مطمئنًـا ورويـدًا رويـدًا بعـد كل هـذا الخـوف والضغـط النفـسى بـدأ وعيـه ينسـاب بعيـدًا عنـه ويغـرق فى سـبات عميـق.

أسـتغرق فى سـباته مـدة طويلـة لم يقطعهـا سـوى توقـف القطـار فى محطاتـه المتتاليـة عـلى فـترات متباعـدة كان يفتـح عينيـه بتثاقـل للحظـات قبـل أن يعـود إلى عـالم الأحـلام مـن جديـد.

أسـتفاق عـلى يـد تهـزه برفـق ففتـح عينيـه بفـزع عـلى أتسـاعهما وأنتفـض جسـده بشـده إلا أن ملامحـه لانـت مـرة واحـدة حـين طالعتـه القسـمات الهادئـة لمحصـل القطـار الـذى أنتظـر حتـى فتـح عينيـه وأبتسـم لـه أبتسـامة عذبـة وهـو يسـأله:

- أين تذكرتك يا بنى؟

ظـل (جابـر) يحـدق إلى وجهـه الأسـمر المسـتدير الـذى يكللـه شـعر أبيـض خالـص كخيـوط الفضـة وحاجبـين أختلـط فيهـما الأبيـض بالأسـود أسـفلهما عينـان تفيضـان بالطيبـة والمـودة أحـس (جابـر) براحـة غامـرة لا يـدرى لهـا سـببًا وهـو ينظـر إليهـما ويبـدو أن تحديقـه أسـتمر لفـترة

أطول من اللازم فأعاد الكمسرى العجوز سؤاله مرة أخرى:

- يا بنى أسألك عن تذكرتك .. هل تسمعنى؟

تنحنح (جابر) وهز رأسه بقوة لينفض عن نفسه أثر النوم وهو يُجيب بينما يداه تبحثان داخل جلبابه:

- أنها معى لحظة واحدة.

طالت مدة بحثه فأبتسم المحصل العجوز فى تفهم وهو يراقب (جابر) يتصنع البحث عن التذكرة داخل ملابسه ثم هز رأسه فى بساطة وهو يربت على كتفه قائلًا:

- خذ وقتك .. سأمر على العربة ثم أعود إليك.

تابعه (جابر) وهو يسير مبتعدًا عبر العربة ولم يدر كيف يتصرف فهو لا يمتلك أى أموال وليس معه حتى ما يسدد به ثمن التذكرة .. صحيح أن المحصل العجوز يبدو رجلًا سمحًا طيبًا لكنه خشى أن يسلمه فى أقرب محطة إلى الأمن فتكون الكارثة لو أكتشفوا شخصيته.

أنه يسعى جاهدًا للأبتعاد قدر الإمكان حتى يستطيع الأختباء بعيدًا عن ماضيه وعن جريمته.

مرت فترة من الوقت و(جابر) على حيرته وخوفه حتى لاح له المحصل العجوز وهو يقترب منه عبر مقاعد عربة القطار فإزداد أرتباكه وأشتدت رجفته وأرتفعت دقات قلبه عاليًا ..

- ألم تعثر على تذكرتك بعد؟

قالها المحصل ما أن وقف أمامه وعلى وجهه نفس الأبتسامة فارتبك (جابر) ولم يرد فعاجله الكمسرى بسؤال آخر:

- ما أسمك يا بنى؟

أرتـج عليـه وأزداد أرتباكـه فالسـؤال لم يكـن متوقعًـا بالنسـبة إليـه إلا أنـه أجـاب بسرعـة:

- (محمود) .. أسمى (محمود).

لم يـدر لمـاذا نطـق هـذا الأسـم ولكنـه كان أول مـا جـال بخاطـره .. أسـم أقـرب أصدقـاءه إليه.

- وإلى أين تذهب يا (محمود)؟

أجابه (جابر) فى حيرة حقيقية:

- لا أدرى.

ردد المحصل العجوز إجابته مندهشًا:

- لا تدرى .. كيف لا تدرى؟

كان (جابـر) يفكـر بسرعـة داخـل عقلـه عـن حجـة مقنعـة فلـم يجـد غـير حجـة واحـدة تبـدو منطقيـة فأجـاب:

- الحقيقـة أننـى هـارب مـن ثـأر يلاحقنـى فى بلـدتى فلـم يكـن أمامـى حـل سـوى الهـروب والأبتعـاد إلى أى مـكان آخـر .. أن أتـرك كل شـئ خلفـى وأذهـب إلى مـكان جديـد حتـى أسـتطيع الأختبـاء والنجـاة بحيـاتى مـن القتـل.

هـز المحصـل العجـوز رأسـه متفهـمًا كمـن شـاهد مثـل هـذه المواقـف مـن قبـل وهـو ينظـر إلى حالـه فى أسى قبـل أن يقـول:

- إذن أبـق فى القطـار حتـى نهايـة الخـط وعندمـا نصـل إلى الأسـكندرية سـأبذل مـا بوسـعى لمسـاعدتك.

قالهـا وأبتسـم لـه أبتسـامة مطمئنـة وهـو ينهـض مـن مكانـه منصرفًـا

قبل أن يتذكر شيئًا ما فعاد يلتفت له متسائلًا:

- هل أنت جائع؟

- كان (جابر) جائعًا بالفعل إلا أنه لم يُجب وإن خفض عينيه فى صمت فقال المحصل:

- إذن سأرسل لك بعض الطعام.

شيعه (جابر) بنظره وهو ينصرف منتقلًا إلى عربة أخرى من عربات القطار وقد هدأت روحه بعض الشئ بعد المعاملة الطيبة التى لاقاها من هذا الرجل .. صحيح أنه أول مرة يلتقيه إلا أنه وجد منه معاملة وعطف لم يجدهما لدى أقرب الناس إليه .. قرن تفكيره هذا بأن رفع يده يتحسس ندبته التى كانت وستظل شاهدًا على ما لاقاه فى حياته الماضية.

حياته التى عليه أن يلقيها كلها خلف ظهره بحلوها ومرها وأن يبدأ من جديد ..

يبدأ حياه جديدة مع إناس مختلفين .. فى مكان جديد ..

وبشخصية جديدة.

*****

كان أول خـط سـكة حديـد فى مـصر عمـره يناهـز قـرن مـن الزمـان وهـو الثالـث عالميًـا بعـد أنجلـترا و الهنـد.

أول خـط سـكك حديـد مُـد فى مـصر هـو خـط سـكك حديـد بـين القاهـرة والأسـكندرية مدتـه شركـة إنجليزيـة فى عهـد عبـاس الأول حفيـد محمـد عـلى الـذى تـولى حكـم مـصر سـنة ١٨٤٨م وأسـتمر سـت سـنوات حتـى عـام ١٨٥٤م.

ألحـت الحكومـة الإنجليزيـة عـلى البـاب العـالى العثمانى للموافقـة عـلى مـد هـذا الخـط فى مـصر لتسـهيل وتسريـع نقـل البريـد والمسـافرين بـين أوروبـا وخاصـة إنجلـترا وبـين الهنـد كـبرى مسـتعمرات إنجلـترا فى المـشرق.

فكانـت المواصـلات بـين أوروبـا والهنـد تمـر عـن طريـق مـصر فالسـفن تـأتى مـن أوروبـا إلى مينـاء الأسـكندرية ثـم تنقـل بـرًا إلى القاهـرة ومنهـا إلى مينـاء السـويس لتسـير بحـرًا فى البحـر الأحمـر ثـم المحيـط الهنـدى لتصـل إلى الهنـد.

أسـتعانت الشركـة الإنجليزيـة بروبـرت ستيفنسـن أبـن مخـترع القطـار الـذى يعمـل بالبخـار لإقامـة هـذا المـشروع الـذى يعـد الأول مـن نوعـه فى المـشرق العـربى فجـاء روبـرت ستيفنسـن إلى مـصر وأشرف عـلى جلـب كل المعـدات اللازمـة للمـشروع وبـدأ العمـل فيـه سـنة ١٨٥٢م وأتمـه سـنة ١٨٥٦م.

وهـو أول خـط سـكة حديـد فى تاريـخ مـصر والأول مـن نوعـه فى المشرق العـربى وأفريقيا.

ويلاحـظ التشـابه الكبـير فى التصميـم المعـمارى لمبنـى المحطـة فى

الأسكندرية والقاهرة وهو من الطراز المعمارى الأنجليزى القديم.
بالطبع لم يكن (جابر) يعلم شيئًا عن هذا وهو يخطو بقدمه لأول مرة على رصيف محطة قطار الأسكندرية خلف المحصل العجوز الذى كان يسير أمامه بخطًا سريعة و(جابر) يلاحقه.
كان (جابر) مبهورًا بكل ما يراه حوله من حركة وحياة وزحام وهو الذى لم يغادر قريته أبدًا من قبل .. كانت مشاهد القطارات الرابضة فى أماكنها والرجال والنساء بين قادمين وراحلين بينما عمال المحطة يتابعون أعمالهم بين عربات القطارات والباعة الجائلين ينادون بأصوات مختلفة على بضاعاتهم تدهشه وتخيفه إلى أبعد حد فكيف سيستطيع العيش والتأقلم وسط كل هذا الصخب بعد أن كانت حياته بالكامل محصورة فى الأرض والخضرة والبراح.
لحظتها شعر (جابر) بمزيج غريب من الخوف والوحشة من هذا المكان الجديد مع حنين دافق إلى أرضه وأصدقاءه .. صحيح أنه كان ولايزال أكثر أهل الأرض كرهًا لماضيه إلا أن القادم يبدو أنه سيحمل له رعبًا وخوفًا يفوق كل الحدود.
أستفاق من أفكاره وذكرياته على صوت المحصل العجوز وهو ينادى عليه ويشير له بيده أن يسرع كى يلحق به فزاد (جابر) من سرعة خطواته حتى لحق به خارجًا من مبنى المحطة وأقتاده إلى ممر ضيق فى محازاة سور المحطة قطعاه فى مدة زمنية بسيطة حيث لا يتعدى طوله المائة متر قبل أن يجد نفسه أمام بناية مجاورة إلى شريط السكة الحديد مكونة من طابقين علويين حال طلاؤها إلا من بعض أجزاء ظلت عالقة فى الواجهة فظهر الطلاء

الأصفر الكالح .. رفع عينيه إلى الأعلى فرأى الشبابيك الخشبية بلونها البنى الغامق وقد تمت مواربتها لتحجب أشعة الشمس التى كانت مُسلطة على الجدران من الدخول.

أقتاده المحصل عبر سلم ضيق بعض الشئ إلى الدور الأول حتى توقفا أمام باب خشبى فضم المحصل قبضته وطرقه عدة مرات.. ثوان وسمعا صوت خطوات رشيقة تقترب من الباب وفُتحت الشراعة فأطل منها وجه فتاة مليحة على قدر غير محدود من الجمال ببشرتها الخمرية الرائقة المشربة بحمرة خفيفة وعيناها الواسعتان يعلوهما حاجبين رفيعين رسما بعناية وأنف دقيق وفم صغير بشفتين مكتنزتين بينما يكلل رأسها شعر أسود ناعم فى لون الليل عقصته خلف رأسها.

نظرت له الفتاة للحظة قبل أن تحول عينها إلى المحصل العجوز الذى بادرها وأبتسامة أبوية تعلو شفتيه:

- صباح الخير يا ست البنات.

- صباح النور يا عم (سعيد).

كانت تلك أول مرة يسمع فيها (جابر) أسم المحصل العجوز الذى قاده حتى هذا المنزل فلم يسبق حتى أن سأله عليه إلا أنه ظل يحدق فى الفتاة وعم (سعيد) يقول لها:

- معى ضيف يريد مقابلة الحاجة (فردوس).

تطلعت له الفتاة مرة أخرى وقد رفعت أحدى حاجبيها قبل أن تُغلق الشراعة وتفتح الباب قائلة:

- تفضلا.

قادتهما إلى حجرة جانبية تحتوى على فرش بسيط عبارة عن كنبتين عربيتين خلف كل واحدة منها نافذة صغيرة بينما تتوسط الحجرة مائدة صغيرة مستديرة .. جلسا متجاورين على أحدى الكنبتين بينما غابت الفتاة لفترة قبل أن يسمعا صوت خطوات متثاقلة تقترب حتى ظهرت الحاجة (فردوس) .. كانت أمرأة فى العقد السادس من عمرها على قدر من البدانة ترتدى جلبابًا منزليًا بسيطًا بينما لفت رأسها بطرحة كبيرة وقد ظهر الشبة الكبير بينها وبين الفتاة التى فتحت لهما الباب مما يدل على جمال قديم حاول الزمن طمس معالمه وإن لم يفلح إلى حد كبير.

ما أن رأت وجه عم (سعيد) حتى بش وجهها وصاحت فى ترحاب:

- أهلا وسهلا بالرجل الأصيل .. كيف حالك يا عم (سعيد).

- فى خير حال يا ست الناس.

جلست على الكنبة المقابلة وهى تقول معاتبة:

- مر أكثر من شهر ولم تسأل علينا يا رجل يا طيب.

رفع عم (سعيد) يده أمام وجهه وهو يُقسم قائلًا:

- والله العظيم مشاغل كثيرة يا حاجة .. أنت أكثر من يعلم طبيعة عملنا.

هزت رأسها فى تفهم وهى تقول:

- كان الله فى العون.

ثم سألته قائلة:

- كيف حال زوجتك والأولاد؟

- فى خير حال بحمد الله.

قالها ثم اعتدل فى جلسته وهو يُشير إلى (جابر) قائلًا:
- أبننـا (محمـود) مـن الصعيـد وليـس لـه أحـد فى الأسـكندرية ولا يعـرف مكانًـا يبيـت فيـه فجئنـا إليـك لتؤجـرى لـه الحجـرة الصغـيرة فى الطابـق الأرضى .. أنـا أعلـم أنهـا لم تسـكن بعـد.
نظـرت ل(جابـر) مليًـا فأبتسـم لهـا فبادلتـه الأبتسـام قبـل أن تقـول فى تحـرج وهـى تُحـول عينيهـا إلى عـم (سـعيد):
- طلبـك عـلى العـين والـرأس يـا عـم (سـعيد) لكنـك تعلـم أننـى لم أعـد أؤجـر أى غرفـة لأغـراب منـذ أن سـافر أبنـى (فـؤاد) إلى الخـارج .. فلـم يعـد فى الـدار سـوى أنـا وأبنتـى (زينـات).
- يـا حاجـة أننـى أعتبركـم جـزء مـن أسرتى فزوجـك (محفـوظ) رحمـه اللـه كان أكـثر مـن زميـل عمـل .. لقـد كان أخًـا لى ولـو أننـى رأيـت فى هـذا الفتـى مـا يشـوبه مـا كنـت جئـت بـه إليـك ثـم أنـه سيسـكن هنـا عـلى ضمانتـى ولـو حـدث منـه أى شئ لا سـمح اللـه فـما عليـك سـوى أن تخبرينـى وعندهـا سـأبحث لـه عـن مـكان آخـر .. فـما رأيـك؟
لم تـرد الحاجـة (فـردوس) عـلى الفـور وإن بـان عليهـا الرضـا عـن كلام عـم (سـعيد) وعندمـا همـت بالـرد دخلـت (زينـات) حاملـة صينيـة الشـاى ووضعتهـا عـلى المائـدة أمامهـما ثـم جلسـت بجـوار أمهـا وعـم (سـعيد) يُعيـد سـؤاله مـرة أخـرى قائـلًا:
- ما رأيك يا ست الناس؟
أجابته الحاجة (فردوس) وقد ظهر على وجهها الرضا:
- أنـت تعلـم مقـدارك عندنـا يـا عـم (سـعيد) وكـما قلـت لـك طلبـك عـلى العـين والـرأس ويكفينـى زيارتـك لنـا.

ثم التفتت إلى (زينات) التى كانت لاتزال تنظر إلى (جابر) قائلة:

- أحـضرى مفتـاح غرفـة الطابـق الأرضى يـا (زينـات) ونظفيهـا جيـدًا فسيسـكنها (محمـود) مـن الليلـة.

نهضـت (زينـات) لتحـضر المفتـاح فتابعهـا (جابـر) بعينـه ولم يغـب عليـه جـمال جسـدها وأسـتداراته وهـى تسـير أمامـه بينـما أتسـعت أبتسـامة عـم (سـعيد) وهـو يقـول شـاكرًا:

- أكرمك الله كما أكرمتنى وأكرمت هذا الفتى يا ست الناس.

هـما بالخـروج إلا أنهـا أصرت أن يجلسـا حتـى يشربـا الشـاى فجلسـا معًـا يتسـامرا حتـى أنتهيـا مـن شرب الشـاى ثـم نهـض عـم (سـعيد) وأصطحـب معـه (جابـر) وهـو يقـول:

- سـأصطحبه الآن لـشراء بعـض أحتياجاتـه ثـم سـأعود بـه آخـر النهـار بـإذن اللـه.

هبطـا درجـات السـلم معًـا .. عـم (سـعيد) فى الأمـام يتبعـه (جابـر) فى وقـت كانـت فيـه (زينـات) قـد بـدأت فى تنظيـف الغرفـة حيـث لمحهـا (جابـر) بطـرف عينـه عـبر البـاب المـوارب وقـد شـمرت عـن سـاعديها ورفعـت جلبابهـا عـن سـاقين أبـدع الخالـق عـز وجـل فى تكوينهـما.

لم يكن (جابر) يدرى أنها ستكون فصلًا آخر فى حكايته ..

لم يكـن يـدرى أن ماضيـه سـيلاحقه أينـما ذهـب .. وأن الحكايـة القديمـة لم تكـن سـوى البدايـة ..

بداية لقصة حياته القادمة .. ويالها من قصة.

*****

لم تكن بداية (شعبان جودة) سهلة أبداً حين أتى إلى الأسكندرية نازحًا من قريته فى الأرياف منذ أكثر من عشر سنوات كان وقتها فقيرًا معدمًا يسعى يومًا بيوم ليكسب رزقه ويثبت أقدامه فى المدينة والغريب أنه لم يبتعد كثيرًا عن محيط محطة القطار منذ مقدمه فعمل فى بدايته كشيال داخل المحطة يساعد المسافرين فى نقل حقائبهم مقابل مبالغ زهيدة يدفعونها له وأستمر على هذا الحال فترة ليست بالقصيرة قبل أن يأتى يوم لم يجدوه فيه وكأنه تبخر بين يوم وليلة فكثرت الأقاويل حوله فهناك من يقول أنه عاد إلى قريته والبعض الآخر يقول أنه قُبض عليه فى قضية كبيرة دخل على إثرها إلى السجن وشيئًا فشيئًا قل حديث الناس عنه حتى تداعت ذكراه من العقول فى خضم أحداث الحياة اليومية فالحياة قطار لا يتوقف ولا ينتظر أحدًا .. إما أن تسايره أو تدهسك عجلاته بلا رحمة.

ثم أتى يوم ظهر فيه (شعبان) وقد تغيرت هيئته بل تبدلت تمامًا ظهر ممتلئًا موفور الصحة .. يسير بثقة بين الناس بملابسه الجديدة .. يزين أصبعه خاتمًا ذهبيًا كبيرًا فعادت أخباره تحتل حيزًا كبيرًا وأجمع الكل أن النعمة التى ظهرت عليه لا سبيل إليها إلا تجارة الممنوعات التى أصبحت رائجة فى هذا التوقيت خاصة بعد أن أتخذ لنفسه مسكنًا جديدًا قريب من المحطة وأفتتح مقهى يديرها لحسابه وتعالت الهمسات حتى وصلت إلى أذنيه .. إلا أنه لم يعرها التفاتًا وكأنما أراد أن يؤكد الأشاعات أو أنه أرتضى أن يعرف الكل حقيقة عمله وكأنه بذلك يشركهم معه ويجعلهم

بكامل رضاهم سترًا وغطاء عليه فصار يغيب لفترات من الزمن ثم يعاود الظهور من جديد مع أمارات أخرى على نعمة أكبر هبطت عليه دون أن يعلم أحد أين يذهب ومتى يعود .. إلا أن هذا ليس بغريب على (شعبان) فمن عجب الأمر أن أحدًا منهم لايعلم حتى الآن من أين تحديدًا قدم (شعبان) إلى الأسكندرية كل ما يعرفونه أنه من الأرياف ولكن من أين بالضبط فلا أحد يعرف ولم يحاول أحد حتى أن يسأله ربما لأنه متأكد أنه لن يحصل منه على جواب شاف.

وإمعانًا فى تثبيت أقدامه تزوج من (درية) أبنة الحاج (رضوان) صاحب محل البقالة الشهير والتى كان الكل يتندر بجمالها وخفتها خاصة حين كانت تسير أمامهم بدلال داخل ثوبها الضيق أو حتى أثناء مشاغباتها معهم حين كانت تقف مع أبيها فى المحل الخاص به لذلك صار (شعبان) مثار حسد الجميع فتارة يحسدونه على يسر حاله وتارة أخرى يحسدونه على أقتناء كل هذا الجمال.

إلا أن حياة (شعبان) لم تكن كلها سماء صافية تمتلئ بأفراح ومسرات فهناك أيضًا بعض الغيوم التى حجبت شمسه فأثارت حزنه وكدرت صفوه وقضّت مضجعه أهمها موضوع الإنجاب فها قد مر على زواجه أكثر من أربع سنوات وحتى الآن لم يرزقا بأى أطفال بل لم تحمل (درية) من الأساس رغم كل محاولاتهما المضنية للإنجاب.

ولأن (شعبان) كأى رجل شرقى يحلم بأن يكون له ولدًا يكون سندًا له فى حياته يداويه فى مرضه .. يرعاه فى عجزه ويكون على رأس

جنازته يـوم وفاتـه يتقبـل فيـه العزاء ويـرث شـقاء وكّـد السـنين بـدلًا مـن توزيعهـا عـلى الأغـراب لذلـك أصبـح موضـوع الإنجـاب هاجسـه وشـغله الشـاغل فلـم يألـو جهـدًا ولم يبخـل عـلى نفسـه أو عـلى (دريـة) بـأى شـئ .. جـرب علاجـات ووصفـات كثـيرة دون جـدوى وإن فعـل كل هـذا فى الـسر دون علـم أحـد حتـى زوجتـه (دريـة) فطبيعتـه الريفيـة كانـت تنكـر بإسـتماتة أن يكـون معيبًـا وأنـه السـبب فى عـدم الإنجـاب فلـم يفكـر ولـو للحظـة أن يذهـب إلى عيـادة طبيـب لإستشـارته وكأن العيـب لابـد وأن يكـون مـن زوجتـه وهـذا بالفعـل مـا أوحـى بـه إليهـا. مـن ناحيتهـا لم تقـصر (دريـة) فقـد جربـت كل شـئ بدايـة مـن أستشـارة كل مـن لهـا خـبرة فى هـذا الموضـوع مـن دايـات ونسـاء عجائز خـبرن وجربـن العديـد مـن الوصفـات عانـت معهـا ومعهـم الأمريـن مـن تنـاول وصفـات العسـل الأبيـض وزيـت الزيتـون وحـب الرشـاد لتنظيـف الرحـم إلى شرب أطنـان مـن الزنجبيـل لتيسـير حـدوث الحمـل دون جـدوى .. كـم مـن مـرة نامـت عـلى بطنهـا وهـى تضـع حجـرًا تحتهـا لعـلاج الفقـارة التـى علمـت أنـه عـدم حـدوث الحمـل لوجـود دم متجلـط فى الرحـم .. كـم مـن مـرة نامـت وهـى تضـع قربـة مـاء سـاخنة عـلى بطنهـا لتدفئـة الرحـم قبـل الجـماع ناهيـك عـن جولاتهـا المكوكيـة عـلى الأضرحـة وزيـارة أوليـاء اللـه الصالحـين مـن المـرسى أبـو العبـاس إلى سـيدى ياقـوت لتصـلى وتضـع النـذور عنـد كل ضريـح حتـى الكنائـس زارتهـا وأشـعلت الشـموع تقربًـا إلى أن قادتهـا قدماهـا ودفعهـا يأسـها إلى زيـارة مشـايخ الدجـل ممـن يسّـخرون الجـن لقضـاء حوائـج النـاس مقابـل أمـوال طائلـة وأقنعوهـا بـأن هنـاك عمـل سـفلى قـد

أُعد لها بفعل فاعل لعدم الإنجاب فأنقلب حالها من النقيض إلى النقيض ..

(درية) زهرة الحى وجميلته صارت تحضر حلقات الزار فتتراقص كالمجانين حول المناقد التى يتصاعد منها دخان البخور الكثيف وهى تصرخ مع قرع الطبول الذى يصم الآذان بينما تقام المذابح للطيور فيغتسلون بدماءها .. حتى زيارات المقابر الليلية والأستحمام بماء غُسل الميت جربته دون جدوى وكأن الله قد ضن عليهما بهذه النعمة بعد أن أسبغ عليهما من فيض نعمه.

كل هذا أصابها وزوجها بسيف الفتور .. أخترق قلب حياتهما فنزفا دماء سعادتهما فأصبحت أحاديثهما قليلة بل نادرة .. يتحاشى كل منهما النظر إلى الآخر حتى لا تظهر نظرات الأتهام واضحة جلية فى العيون حتى فى لقاءهما الحميم صارا كمن يؤديا واجبًا ثقيلًا نائوا بحمله فلم تعد هناك ملاطفة أو مداعبة ولا حتى كلمات غزل توقد مشاعرهما وتؤججها حتى البسمة غابت عن الوجوه.

صار لقائهما تقليديًا بليدًا وكأنه يذكرهما بحرمانهما من أكثر شئ تمنوه..

صارا كلما تلاقا كمن يؤدون طقوس تقليدية بلا هدف أو غاية تبدأ كما تنتهى.. فتستلقى (درية) على ظهرها بينما (شعبان) يعتليها ويبقيان على هذا الوضع حتى النهاية .. أصبح ثقله يطبق على صدرها يكاد يحطمه حتى أنفاسه صارت تخنقها فتغمض عينيها وتدعو الله أن ينتهى أما هو فصار كمن يحتضن جمرة نار تحرقه وتصليه عذابًا فيقوم بدوره بحركات روتينية سريعة ويجتهد

كى يفـرغ شـهوته بسرعـة كمـن يتخلـص منها بعدهـا إمـا أن ينهـض ليغـادر الغرفـة أو يسـتلقى بجانبهـا موليًـا ظهـره إليهـا وهـو يلهـث دون أن يتبـادل معهـا ولـو كلمـة واحـدة.

تدريجيًـا بـدأت لقاءاتهـما الحميمـة تتباعـد حتـى كادت تنقطـع فأثـر ذلـك عـلى نفسـية كل منهـما فأصبحـا ضيقـى الخلـق أميـل للشـجار والمشـاحنة وظهـر ذلـك بشـكل أوضـح عـلى (شـعبان) خـلال تعاملـه مـع النـاس ..

هـذا كان (شـعبان) وتلـك كانـت حالتـه عندمـا أقتـاد عـم (سـعيد) (جابـر) إليـه ليُلحقـه بالعمـل معـه فى المقهـى لحظتهـا نظـر (شـعبان) ل(جابـر) نظـرة واحـدة وكأنـه يسـبر أغـواره ويستشـف مـا بداخلـه قبـل أن يُجيـب بجملـة واحـدة أثـارت أول مـا أثـارت دهشـة عـم (سـعيد) نفسـه:

- حسنًا يا عم (سعيد) سيتسلم عمله بداية من غدًا.

لم تكـن عـادة (شـعبان) أن يقبـل عمـل أى أحـد عنـده دون أن يكـون عـلى درايـة كاملـة بماضيـه بـل بتاريـخ حياتـه بالكامـل ربمـا منـذ ولادتـه كذلـك إلا أنـه وقتهـا وافـق عـلى الفـور ربمـا كان ذلـك إكرامًـا لعـم (سعيد) الرجـل الطيـب المحبـوب مـن الجميـع وربمـا لأنـه لم يكـن عـلى إسـتعداد لسـماع أى رجـاء أو مجادلـة أو ربمـا كان ذلـك مـن حسـن حـظ (جابـر) وكفـى .. المهـم أنـه توفـق وبمسـاعدة عـم (سـعيد) فى الحصـول عـلى مسـكن مناسـب وعمـل يقتـات منـه.

أصبحت حياته الجديدة تتشكل تدريجيًا ..

حياة عليه أن يعيشها بكل جوارحه..

عليه أن يختلق ماضيًا يعيش به حاضره ومستقبله..
مستقبله الذى كانت سطور صفحاته أبعد ما يكون مخيلته.

*****

الفصل التاسع

أنغمس (جابر) فى عالمه الجديد بكل كيانه وجوارحه وألقى ماضيه بأكمله بكل مرارته خلف ظهره فها قد مرت شهور على تواجده فى المدينة وإستلام عمله فى مقهى المعلم (شعبان جودة) .. تغيرت حالته على مر الأيام فتخلى عن حالة الأنعزال التى لازمته طوال حياته وصار أكثر أختلاطًا بالناس فتوطدت صداقته مع كثير من زبائن المقهى يعرف عنهم وعن أخبارهم .. يشكون له هموم حياتهم وأشجان لياليهم .. يعرف عن أفراحهم وأحزانهم الكثير بينما لايُعرف عنه إلا القليل .. كان يسمع أكثر مما يحكى .. يُخفى أكثر مما يُبدى فلم يعرف عنه أحد إلا أسمه الجديد ..

(محمود الصعيدى) ..

كما تخلى أيضاً عن آخر ما يمت لحياته الماضية بصلة فخلع جلبابه وارتدى القميص والبنطلون كأبناء المدينة فصار منهم وذاب بين جموعهم.

من بين زبائنه الكثيرين الذين يتعامل معهم كان الخواجة (أستيفانوس) ..

ومن لا يعرف الخواجة (أستيفانوس) ذلك العجوز اليونانى ذو

القامــة القصــيرة والجســد الممتلـئ بعـض الشـئ مـع شـعره الأبيـض الناعــم كخيــوط الفضــة وبشرتــه البيضــاء المشربــة بالحمــرة وعينــاه الزرقاوتــان اللتــان تلمعــان كلــما ركــز بــصره عــلى أحــد مــا .. كان فى منتصـف السـتينات مـن عمـره ورث عـن أبـاه وأجـداده تجـارة ضخمـة وإن عمــد هــو إلى توســيعها وزيادتهــا حتــى صــار يمتلــك أكــبر وكالــة قــماش ومانيفاتــورة فى المنطقــة.

ولأنــه فى هــذه التجــارة منــذ الصغــر .. ولأن التجــارة تجــرى فى عروقــه مجــرى الــدم كان يمتلــك شــبكة ضخمــة مــن العلاقــات والأصدقــاء ســاعدوه فى زيــادة أربــاح تجارتــه ونمــو ثروتــه ..ولأنــه يمتلــك أيضــاً أبنتــه (مادلــين).

(مادلين) .. أسم على مسمى.

(مادلــين) أســم يونــانى مــن أصــل لاتينــى معنــاه فى قامــوس الأســماء والمعــانى الفاتنــة المغريــة.

(مادلــين) زهــرة يانعــة .. لوحــة بديعــة يحــار العاشــق فى وصفهــا .. ألهــة جــمال تركــت معبدهــا وســارت بــين مريديهــا تــوزع عليهــم نعمهــا مــن يحظــى بنظــرة ومــن يفــوز بإبتســامة فتُلهــب قلوبهــم وعقولهــم .. كانــت (مادلــين) أفروديــت مــن لحــم ودم بجســدها المتناســق البديــع وبشرتهــا ناصعــة البيــاض وشــعرها الكســتنائى الــذى تــرك حــرًا بــلا قيــود فأنســدل بنعومــة عــلى كتفيهــا وعيناهــا اللتــان ورثتهــما عــن والدهــا وإن كانــا أكــثر زرقــة وبريقًــا تظللهــما رمــوش طويلــة تجــرح قلــوب عاشــقيها فى صمــت.

أعتــاد (جابــر) كل صبــاح أن يــأتى للخواجــة (أســتيفانوس) بقهوتــه

المعتادة فيعتنى بها (جابر) أيما أعتناء فيُعدها من علبة البن المخصوص الذى يُبقيه المعلم (شعبان) لزبائنه المهمين ويصبها فى فنجانه الذى خصصه له ثم يضعها على صينية نظيفة ويسير بها عابرًا الشارع الطويل ملقيًا السلام على من يقابله أو من يجده جالسًا أمام دكانه ويتلقى تحية الصباح التى قد يصحبها طلبات من المقهى ليعدها ويحضرها بنفسه.

يصل (جابر) إلى الوكالة الكبيرة التى تحتل ناصية شارعين رئيسيين يعلوها لافتة كبيرة مكتوب عليها بالبنط العريض وبخط عربى منمق .. وكالة أستيفانوس لتجارة المانيفاتورة .. يقطع (جابر) الرواق الطويل حيث يزدحم الزبائن أمام طاولات البيع على اليمين التى توازى الرواق وتساويه فى الطول بينما يقف أمام كل طاولة بائع ومن خلفه على الأرفف تصطف أجود أنواع الأقمشة بمختلف ألوانها وأنواعها حتى يصل (جابر) إلى نهاية الرواق فيصعد درجتى سلم يعلو بهما مكتب الخواجة (أستيفانوس) عن كل أرض الوكالة فيُلقى عليه تحية الصباح واضعًا القهوة أمامه على المكتب ولا ينسى أهم ما فى هذه الزيارة السريعة وهو أن يُلقى نظرة خاطفة على (مادلين) .. نظرة يطبعها أمام عينيه مرسلًا منها نسختين ليحفظهما داخل عقله وقلبه .. على أن الأمر كان أحيانًا يتجاوز النظرة الخاطفة فيتعمد أن يتلكأ قليلًا حتى يملأ عينيه من صورتها أو يتنسم شذا عبيرها الذى يعبق به مكتب والدها ومرة أو مرتين رفعت عيناها الساحرتين نحوه وعندما لاحظت نظراته إليها منحته أجمل وأعذب أبتسامة على وجه الأرض إلا أنه لم يتخيل حتى فى

أجمل أحلامه ما حدث معه هذا اليوم فأثناء زيارته للوكالة وبعد أن وضع القهوة أمام والدها وأختلس نظرته .. قبلة حياته اليومية .. وأستعد للمغادرة فوجئ بها تنادى بإسمه وهى تُسرع الخطى خلفه حتى لحقت به أمام باب الوكالة:

- (محمود) .. (محمود) أنتظر.

التفت لها وقد أرتفعت دقات قلبه حتى كادت تصم أذنيه من فرط أرتباكه .. كانت تلك أول مرة يسمع فيها أسمه من بين شفتيها وأول مرة يكون بهذا القرب منها ينظر إلى عينيها الساحرتين.

- أريد منك خدمة لو سمحت.

قالتها وهى تتطلع إليه فحاول أن يرد بسرعة إلا أنه تلعثم وتحشرج صوته فخرج مبحوحًا يكاد لا يُسمع فزاد أرتباكه أكثر وأكثر فأطلقت هى ضحكة صافية وهى تنظر إليه .. ياالله ضحكتها كتغريد البلابل وأبتسامتها كسماء صافية فى نهار صحو أيمكن أن يكون هناك إنسانة بكل هذا الجمال .. تنحنح حتى يخرج صوته واضحًا وهو يقول:

- أنا تحت أمرك يا أنسة (مادلين).

زادت أبتسامتها أتساعًا وهى تقول:

- أريدك أن تأتى معى إلى محطة الرمل سأحضر شيئاً من هناك ثم نعود فسأستلم مبالغ مالية أخشى أن أسير بها فى الطريق وحدى.

كان هذا معناه أن يترك المقهى فترة لا بأس بها لكن هل يقدر على أن يرفض لها طلبًا ودون تردد قال:

- هيا بنا.

سارا جنبًا إلى جنب من محطة مصر إلى محطة الرمل وهو يشعر أن ساقيه لا تكاد تحملانه من فرط أرتباكه وإن أحس بمزيج غريب من الزهو والسعادة وهو يلاحظ نظرات الإعجاب التى تتلقاها (مادلين) مع نظرات حسد سددها الجميع إليه وهو يسير بجانبها حتى وصلا إلى ميدان محطة الرمل الكبير الذى تظلله الأشجار الوارفة فعبرا حتى توقفت هى أمام إحدى المحلات الكبيرة فأستدارت إليه قائلة:

- أنتظرنى هنا وسأعود إليك.

دخلت إلى المحل وغابت لدقائق بينما تسلى هو بالنظر عبر الميدان الفسيح حتى خرجت إليه دون أن يشعر فتطلعت إلى دار السينما حيث يُلقى بنظراته كانت عيناه معلقتين بدار سينما بلازا إحدى أكبر دور السينما فى محطة الرمل بمبناها الشبيه بالقصر فأبتسمت وهى تسأله:

- ألم تر دار سينما من قبل؟

التفت لها وقد تفاجأ بوجودها وأبتسم فى خجل وهو يُجيب أن نعم فأبتسمت له وهى تربت على ذراعه قائلة:

- لو تريد يمكننى أن أصحبك إلى السينما الليلة.

هتف فى دهشة ممزوجة بالفرح:

- حقًا.

هزت رأسها أن نعم وهى تصحبه عائدة بينما عيناه ظلتا معلقتين بها فالحقيقة أنه تفاجأ من عرضها ومن تحررها وجرأتها وهو الذى لم يسبق له أن تعامل مع أى فتاة من قبل .. أحس أنه فى

حلم جميل يرجو أن يستمر .. يبتغيه دائمًا لا أستيقاظ منه.
أعادها إلى المحطة ورافقها حتى باب الوكالة وهناك ودعته مع وعد بلقاء جديد فى المساء قبل أن تمنحه أبتسامة أخيرة وتغيب فى الداخل بينما عاد هو إلى المقهى كالمسحور وهو يحمل أحلامه بين طياته والفرحة تتراقص أمام عينيه ..
منتظرًا حلول مساء .. يحمل وعدًا بلقاء.

*****

فى المساء ..

واقفًا أمام مدخل السينما ينتظر .. يجول بعينيه يمينًا ويسارًا عله يلمحها إلا أن طيفها ظل عصيًا حتى نهش الخوف قلبه فسرت فى جسده أرتجافة باردة كالثلج .. أتراها نسيت ميعادهم أم أنها كانت تسخر منه من الأساس .. بدأ يتخيلها وهى جالسة الآن وسط أصدقاءها تنظر إلى الساعة وتضحك على الأحمق الذى ظن أنها ممكن أن ترافقه إلى السينما وهو الذى ظل يحلم من النهار للمساء يرجو الساعات .. يستحلف الدقائق ويستحث الثوانى .. هو الذى حاول أن يبدو متأنقا أيما تأنق هذه الليلة فأرتدى ثيابه الجديدة التى ابتاعها مؤخراً .. القميص الأبيض ذو الخطوط الخضراء الرفيعة والبنطال الأسود اللذان أظهرا جسده المتناسق وعضلاته المفتولة مع حذائه الأسود ذو اللمعة كما صفف شعره الناعم بعناية ليزيد من وسامته كل هذا من أجل مزحة .. أرتعدت فرائصه من فرط

الغضب وهم بالرحيل حين لمحها تخطر من بعيد فى ثوب أحمر ضيق أبرز مفاتنها وزادها جمالًا وسحرًا بينما تغطى كتفيها بشال أسود ذو فراء وفى يدها حقيبتها الحمراء الصغيرة.

أقتربت منه فى دلال تلاحقها نظرات الإعجاب من المارة ورواد السينما المتجمعين أمامها منتظرين السماح لهم بالدخول لبدء عرض الفيلم ثم قالت فى رقة:

- معذرة .. لقد تأخرت عليك.

هدأت نفسه وطاب خاطره وإن شعر بندم شديد لسوء ظنه بها إلا أنه رسم على وجهه أبتسامة فرح وسعادة وهو يقول:

- لا عليك .. كنت سأنتظرك مهما تأخرت.

أبتسمت لمجاملته ومدت له يدها فالتقطها فى لهفة وصعدا معًا درجات السلم الأمامية للسينما وحجزا تذكرتين أختارت (مادلين) مكانهما بعناية قبل أن يدخلا إلى القاعة الفسيحة المجهزة لعرض الفيلم.

جلسا على كرسيين متجاورين فى الصفوف الخلفية وسط صخب الحضور المنتظرين بدأ عرض الفيلم قبل أن تظلم القاعة ويعم السكون ثم أنبعث شعاع من الضوء الأبيض من خلف القاعة مع صوت هدير ماكينة العرض قبل أن تتكون الصورة على الشاشة.. بدأ العرض بأفلام قصيرة من أفلام الرسوم المتحركة الكوميدية فكانت تضج القاعة بالضحك مع كل مشهد من مشاهدها حتى (جابر) الذى لم يعرف معنى الضحك منذ سنين طويلة ضحك من قلبه كما لم يضحك من قبل .. الحقيقة أن (جابر) كان منبهرًا بكل

مـا حولـه ومبتهجًـا كطفـل فى ليلـة عيـد فظـل يتابـع العـرض وقـد أنعـزل عـن كل مـا حولـه وعينـاه معلقتـين بالشاشـة أمامـه قبـل أن يسـود الظـلام للحظـات ويبـدأ عـرض الفيلـم فمالـت عليـه (مادلـين) هامسـة فى أذنـه:

- عنـوان الفيلـم .. آثـار فى الرمـال .. فيلـم مـن بطولـة نجمـة محبوبـة أعشـقها تُدعـى (فاتـن حمامـه) ويمثـل معهـا نجـم آخـر أسـمه (عـماد حمـدى).

أسـتمر عـرض الفيلـم مـا يقـارب السـاعتين قبـل أن تُضـاء الأنـوار داخـل القاعـة ويبـدأ الحضـور فى المغـادرة مـن أبـواب الخـروج التـى تفـضى عـلى الشـارع الرئيـسى مبـاشرة ومـن بينهـم سـار (جابـر) و(مادلـين) متجاوريـن وهـى تسـأله:

- هل أعجبك العرض؟

أجابها وهو لايزال منبهرًا بكل شئ:

- أنه رائع .. كل شئ رأيته الليلة رائع.

ثم تهدج صوته وتمتم بصوت خفيض:

- وأنت أيضاً رائعة.

أبتسمت (مادلين) فى ثقة وهى تنظر إليه بدلال قائلة:

- حقًا.

لم يتمالك (جابر) نفسه فقال بمنتهى الوله:

- بل أنت تزيدين كل شئ روعة بجمالك.

أتسعت أبتسامتها قبل أن تجذبه من ذراعه قائلة:

- إذن هيـا نكمـل سـهرتنا .. سـأصحبك إلى مـكان جميـل نجلـس فيـه

سـويًا ونتنـاول مشروبًـا قبـل العـودة.
أصطحبتـه إلى مقهـى مـن دور واحـد عبـارة عـن كـوخ خشـبى معلـق عـلى واجهتـه الأماميـة لافتـة زرقـاء تحمـل أسـم .. إيليـت .. بالعربيـة والأنجليزيـة .. يحتـل المقهـى موقـع متميـز مـن الشـارع ومـا أن دخـلا إليـه حتـى أحـس (جابـر) أنـه أنتقـل مـن عـالم إلى عـالم آخـر تمامًـا فمـن صخـب الشـارع وأضـواؤه إلى الرقـى والهـدوء .. كان المـكان متوسـط الحجـم صُفـت فيـه الموائـد بشـكل منظـم مـع إضـاءة خافتـة إلى أقـصى درجـة مُريحـة للأعصـاب وقـد وُضـع عـلى كل مائـدة مشـعل صغـير بداخلـه شـمعة صغـيرة يضيئهـا النـادل عنـد جلـوس الضيـوف عـلى الكـراسى الجلديـة المريحـة حـول المائـدة بينـما تنبعـث مـن مـكان مـا موسـيقى كلاسـيكية تُضفـى عـلى المـكان أجـواء رومانسـية جميلـة وقـد أُحيـط المـكان بالكامـل بنوافـذ زجاجيـة لا تحجـب عنـه أو عـن رواده أضـواء الشـارع والسـائرين فيـه.
أنتقـت (مادلـين) مائـدة بجـوار النافـذة ومـا أن جلسـا حتـى أقـترب منهـما نـادل فى زى رسـمى خـاص بالمقهـى عبـارة عـن بنطـال أسـود وقميـص أبيـض عليـه صديريـة سـوداء وبابيـون لامـع مـن نفـس اللـون يضفـى عليـه أناقـة تناسـب رقـى المـكان .. أشـعل الشـمعة الصغـيرة بقداحـة ذهبيـة وقـدم لـكل منهـما قائمـة تحـوى مـا يقدمـه المـكان مـن مأكـولات ومشروبـات فتحهـا (جابـر) بخجـل وهـو يختلـس النظـر مـن فـوق القائمـة إلى (مادلـين) التـى لاحظـت أرتباكـه فأغلقـت القائمـة التـى فى يدهـا والتقطـت الأخـرى مـن يـده قائلـة:
- دعنى أطلب لنا مشروبًا جيدًا.

ناولـت القائمتـين إلى النـادل الـذى أقـترب ثـم طلبـت فنجانـين مـن القهـوة الـتركى ذهـب النـادل لأحضارهـما فقالـت ل(جابـر):

- مذاق القهوة هنا مختلف سيعجبك فهم يعدونها بطريقة مميزة.

مـن بعيـد مـرت بـين الموائـد سـيدة أوروبيـة فى منتصـف العمـر بيضـاء البـشرة عـلى قـدر مـن الإمتـلاء ذات شـعر ذهبـى قصـير وأبتسـامة تضيـف لجـمال المـكان جـمالًا آخـر.

هـزت السـيدة رأسـها ل(مادلـين) فحيتهـا هـى الأخـرى بإيمـاءة مـن رأسـها وأبتسـامة تابعهـا (جابـر) بعينـه فأوضحـت لـه (مادلـين) قائلـة:

- هـذه السـيدة (كرسـتينا كوسـتانتينو) مالكـة المـكان أشـترته منـذ فـترة وأضفـت عليـه الكثـير مـن الجـمال والسـحر بذوقهـا الرفيـع فصـار قبلـة لكثـير مـن الفنانـين والمثقفـين وأصحـاب الحـس الراقـى.

- المكان جميل جدًا وهادئ.

- أنه مكانى المفضل.

أبتسـم (جابـر) وقـال فى أفتتـان وقـد أزداد جـرأة فنظـر إلى عينيهـا مبـاشرة:

- ألم أقل لك أنك تجعلين كل ما حولك رائعًا.

بادلته النظر وهى تقول فى خبث:

- مادام هذا رأيك فلتبق بجانبى دائمًا.

- كم أتمنى.

رددها (جابر) من كل قلبه فأبتسمت هى فى ثقة أكبر ثم قالت:

- هذا يشجعنى لأننى كنت أريد أن أفاتحك فى أمر ما.

- ما هو؟

تساءل (جابر) فى دهشة فهمت (مادلين) بالكلام لكنها أنتظرت للحظات ريثما ينتهى النادل الذى أقترب من وضع فنجانى القهوة أمامهما قبل أن تعاود الكلام قائلة:

- أريدك أن تعمل معنا.

- أعمل معكم! .. أتقصدين فى المحل؟

هزت (مادلين) رأسها نفيًا ثم أجابت قائلة:

- ليس بالضبط .. أنه عمل آخر.

ثم رشفت رشفة من فنجان قهوتها قبل أن تُكمل قائلة:

- قد تكون لا تعلم الكثير عن عملنا لكن أغلب البضائع التى نبيعها فى المحل نأتى بها من الخارج ثم ننقلها من الجمرك بعد شحنها فى السفن على سيارات إلى مخزن تابع لنا ثم نبدأ بعد ذلك فى عرضها بالمحل حسب الطلب على كل صنف.

كان (جابر) يصغى إليها بإهتمام فلما توقفت عن الحديث سألها:

- وما دورى فى الموضوع بالضبط؟

- الحقيقة أن مواعيد أستلام تلك البضائع تكون متغيرة وأحيانًا كثيرة نستلمها ليلًا وأنت تعلم أن أبى قد صار كبيرًا فى السن وهذه الأمور المجهدة لم تعد تلائمه وأنا لن أستطيع أن أقوم بهذا العمل فهذا خطر على كما أن أبى لن يوافق على هذا.

ثم نظرت فى عينه قائلة:

- هذا العمل يحتاج رجل قوى.

ومدت يدها عبر المائدة لتمسك بكفه مكملة:

- رجل أستطيع الأعتماد عليه.

أربكتـه كلماتهـا .. حاصرتـه نظراتهـا .. ألهبتـه لمسـة يدهـا .. حاصرتـه بشـكل كامـل .. أغرقتـه فى محيـط سـحرها اللامتناهـى بـلا أى أمـل فى النجـاة وربمـا دون رغبـة كذلـك.

مـن ذا الـذى يرفـض طلبًـا لفتـاة بـكل هـذا السـحر .. كان الرفـض بـكل المقاييـس مسـتحيلًا لـذا لم يجـد منـاص مـن القبـول وهـو يقـول بهيـام:

- من أجلك أفعل أى شئ .. أضحى بحياتى ذاتها.

أتسـعت أبتسـامتها فى ثقـة أكـبر قبـل أن تُلقـى نظـرة عـلى سـاعة يدهـا ذات الإطـار المذهـب قائلـة:

- لقد تأخر الوقت .. هل ننصرف؟

أومـأ برأسـه موافقًـا فأنهيـا قهوتهـما وأصر هـو بشـهامة عـلى دفـع الحسـاب كاملًا قبـل أن ينهضـا مغادريـن المقهـى دون أن يلحظـا العـين الثابتـة التـى راقبتهـما منـذ أن كانـا فى السـينما حتـى غـادرا المقهـى.

*****

الفصل العاشر

قطعا الطريق سيرًا على الأقدام من ميدان محطة الرمل حتى منزل الخواجة (أستيفانوس) بمنطقة الإبراهيمية بجوار سوق شيديا الشهير .. كان الجو رائعًا فسارا عبر الكورنيش يستمتعان بهواء البحر المنعش مع لمسة خفيفة من البرد تُصيب الجسد برجفة لذيذة سرعان ما تزول حتى وصلا المنزل ودعها على الباب فصعدت بخطى سريعة وما أن دخلت من الباب حتى كان أبوها الخواجة (أستيفانوس) جالسًا ينتظر بترقب سائلًا أياها سؤالًا واحدًا:

- هل وافق؟

أبتسمت أبتسامة تجاوزت الثقة إلى الزهو والغرور قائلة:

- بالطبع وافق.

فى نفس التوقيت كان (جابر) يضم ياقة قميصه ويضع يديه فى جيبى بنطاله عائدًا لم تكن لديه رغبة ملحّة فى العودة لمسكنه فسار على طريق الكورنيش الذى خلا من المارة أو كاد فى ذلك الوقت حتى وصل إلى حديقة الشلالات فأنتقى أول مصطبة حجرية وجلس عليها محدقًا إلى البحر وموجه الذى يفور زبده الأبيض فى ثورة لاطمًا الصخور فى صخب قبل أن ينسحب على أستحياء فى

خجل فقط ليعاوده غضبه فيعاود الكرة من جديد.
مُطلقًا لمشاعره العنان سارحًا بخياله فى أحداث يومه الأغرب من الخيال جلس (جابر) يتفكر .. هل ما مرت به من أحداث حقيقة أم هو خيال ووهم صنعته أحلامه الواهية وسرعان ما سيفيق منه .. أيعقل أن يبدأ اليوم وهو يستجدى النظرة ويحلم بكلمة من بين شفتيها أو يظفر بإبتسامة يطويها بين جوانحه .. ينبتها تربة قلبه ويرويها بأشواقه فإذا بيومه ينتهى وقد قضى معها أجمل لحظات حياته ربما منذ وعى عقله على الدنيا .. أيعقل أن ترى فيه ما لم تره فى أحد من أبناء المدينة .. أن يكون الأقرب لعقلها وقلبها وتكون هى سبيله لحياة جديدة بلا الآم أو معاناة .. أيمكن أن تذوب كل الأختلافات بينهم فى بوتقة حب أقوى من الخلاف .. أختلاف النشأة والثقافة والدين أم أن كل ما حدث كان مجرد وسيلة إغواء له ليقبل بالعمل معهم.
نفض رأسه فى قوة ليطرد منها هذا الهاجس عندما واتاه ف(مادلين) بالنسبة إليه أطهر من أن تخدعه أو حتى أن تحاول فمن سمع يومًا عن ملاك مخادع.
(مادلين) ملاك شفاف لا يغدر ولا يخون ولو حدث هذا يومًا فالجنة جحيم ولنحترق جميعًا بنيران الغدر .. نفض رأسه مرة أخرى وهو يستبعد من ذهنه تلك الأحتمالات السيئة وسار فى طريقه عائدًا لمسكنه .. كان الوقت متأخرًا فساد الهدوء الشوارع وعم الظلام مع غلق المحال التجارية وإطفاء أنوارها خاصة فى المنطقة القريبة من مسكنه وبينما هو سائرًا يتهيأ لدخول الشارع

المفضى إلى مكان سكنه لمحهما.
ظلين فى آخر الشارع ميز فيهما ظل فتاة تلتف بملاءه تسرع الخطى يبدو أنها فى عجلة من أمرها أو تحاول الهرب من ظل آخر يتبعها بإصرار .. ظل رجل يستحث الخطى ليحافظ على المسافة بينه وبينها ويقربها قدر الإمكان حتى أنحرفت الفتاة فى أول عطفة قابلتها عن يمينها فأنحرف الظل الآخر متابعًا لها فى إصرار يزداد مع كل خطوة يخطوها .. ثوان وتصاعد صراخ آتيًا من ناحيتهم لم يحتاج معه (جابر) لتفسيرات أخرى فأندفع يقطع الشارع عدوًا حتى وصل إلى حيث أنطلقت الصرخة.
كان المشهد كما رآه أمامه واضحًا لا يقبل الجدل .. الفتاة التى ميز فيها ملامح (زينات) أبنة الحاجة (فردوس) صاحبة العقار الذى يسكنه ظهرها ملتصق بالحائط وعيناها تنطقان برعب شديد .. ما أن رأته حتى ظهرت على وجهها نظرة لهفة وأستنجاد بينما الرجل الآخر يثبتها إلى الحائط بيده اليمنى محاولًا كتم صرخاتها بيده الأخرى وعيناه تنضحان بشهوة مجنونة تكوى جسده وتلهب عقله المحموم دون ذرة واحدة من تعقل.
لم يضع (جابر) الوقت فى محاولات أكثر للفهم بل أمسك بتلابيب الرجل من الخلف ودفعه بمنتهى القوة بعيدًا عن (زينات) التى أستمرت فى صراخها عندما عاد الرجل إلى مهاجمة (جابر) مرة أخرى وقد أعمت الشهوة عقله فصار جنونه كاملًا كوحش كاسر وهو يُخرج من جيبه مدية صغيرة طوح بها فى وجه (جابر) فتفاداها الأخير بأعجوبة قبل أن يعاود المهاجم الكرة وهذه المرة أصابت

المدية يـد (جابـر) فجرحتهـا .. مزقـت لحمـه فسـالت دمـاءه .. أثـار منظـر الدمـاء غضـب (جابـر) فـركل المهاجـم بـكل قوتـه فى بطنـه ثـم دفعـه بكلتـا يديـه ليصطـدم بالجـدار خلفـه قبـل أن يلتقـط حجـرًا مُلقـى عـلى الأرض ويهـوى بـه عـلى رأس مهاجمـه ففقـد الأخـير أتزانـه وسـقط أرضًـا وهـو يضـع يديـه عـلى رأسـه التـى أنبجـس منهـا الـدم فالتقـط (جابـر) يـد (زينـات) وأبتعـد بهـا بسرعـة عائـدًا إلى البيـت.

عند المدخل وقفا يلهثان قبل أن يتمالك نفسه سائلًا أياها:

- ما الذى دفعك للخروج فى هذا الوقت المتأخر؟

همـت بالإجابـة عليـه لـولا أن قاطعهـما صـوت صراخ قـوى آتى مـن الطابـق الأعـلى للمنـزل فالتفـت لهـا فى جـزع وهـو يهتـف متسـائلًا:

- ما هذا الصراخ .. ماذا يحدث؟

أجابته بسرعة:

- هـذا سـبب خروجـى فى هـذه السـاعة أنهـا السـت (سـميحة) جارتنـا مرضهـا شـديد جـدًا ولابـد مـن إعطائهـا حقنـة مخـدرة لتسـكين الألم فذهبـت لإحضارهـا.

قالتهـا وأندفعـت صاعـدة درجـات السـلم بسرعـة يتبعهـا (جابـر) إلى الطابـق الثـانى حيـث تسـكن السـيدة (سـميحة) وأبنتهـا الصغـيرة (أنتصـار) .. دخلـت (زينـات) عـدوًا إلى حجـرة النـوم حيـث السـيدة (سـميحة) مُسـتلقية عـلى سريرهـا تحيطهـا أبنتهـا والحاجـة (فـردوس) وبعـض الجـارات الـلآتى جذبهـن صـوت الـصراخ فى هـذا الوقـت المتأخـر مـن الليـل.

جلـس (جابـر) عـلى أول كـرسى قابلـه فى مدخـل الشـقة متهيبًـا يرقـب

(زينـات) وهـى تحقـن (سـميحة) بالمحقـن الـذى سـبق وأن غلتـه أمهـا علـى النـار قبـل وصولهـما وثـوان وهـدأ كل شـئ حيـث غابـت السـيدة (سـميحة) فى ثبـات عميـق فأنسـحب (جابـر) فى هــدوء إلى غرفتــه بالطابـق الأرضى بعـد أن أحـس بأنـه قـد أتـم مهمتـه ..

مهمتـه التـى عكـرت صفـو ليلـة كانـت أجمـل مـن أحلامـه .. كاد يُهـم بخلـع ملابسـه لكـن أسـتوقفه صـوت طرقـات خفيفـة عـلى بـاب غرفتـه فأقـترب مـن البـاب متسـائلًا:

- من؟

جاءته الأجابة بصوت خفيض:

- أنا (زينات).

سارع بفتح الباب ليطالعه وجهها الذى خفضته فى خجل مغمغمة:

- جئت أشكرك وأطمئن عليك.

أفسـح لهـا الطريـق فدلفـت إلى داخـل الحجـرة بينـما تـرك هـو البـاب مواربًـا متعمـدًا قبـل أن يسـألها:

- كيف حال السيدة (سميحة)؟

- حمدا لله .. لقد هدأت الآن.

- هل هذه أول مرة يهاجمها المرض بهذا الشكل؟

تنهدت فى أسف قائلة:

- ليســت أول مــرة ولــن تكــون الأخــيرة فمرضهــا كــما فهمنــا مــن الطبيـب لا عـلاج لـه وهـى ترفـض البقـاء فى المستشـفى تحـت الملاحظـة فـلا سـبيل لدينـا سـوى حقنهـا بالمخـدر لتخفيـف الآمهـا كلـما هاجمهـا المـرض.

ثم تهدج صوتها فجأة وهى تقول:

- لا أدرى كيف أشكرك.

أبتسم لها ولوح بيده فى أستهانة قائلًا:

- لا داعى للشكر .. أى أحد فى مكانى كان سيفعل ما فعلته.

لاحظت يده الدامية فأتسعت عيناها وخبطت على صدرها صائحة فى جزع:

- أنت مجروح.

نظر إلى يده التى كانت لاتزال تنزف قائلًا لها مُطمئنا:

- أنه مجرد جرح بسيط.

مدت يدها فالتقطت يده المجروحه بحرص وألقت عليها نظره قبل أن تقول:

- ولكن لابد من تطهيره.

ثم أندفعت تغادر الحجرة مكملة:

- سأعود حالًا.

سمع صوت خطواتها وهى تصعد السلم عدوًا وغابت لدقائق ثم عادت حاملة معها زجاجة من المطهر وقطن ورباط طبى فجذبت كرسيًا وجلست أمامه وبمنتهى الرقة وبيد ماهرة بدأت فى تطهير الجرح بالمطهر وقد غلفهما الصمت .. حاول (جابر) أن يبادر بقول أى شئ يكسر حاجز هذا الصمت إلا أنه لم يجد ما يبدأ به كلامه فآثر السكوت وإن أنشغل فى التطلع إليها والتفرس فى ملامحها وهى منحنية عليه ومنهمكة فى تطهير الجرح .. كانت هذه أول مرة تكون فيها بهذا القرب منه .. ملامحها بالغة الرقة ورائحتها

الجميلة التى أفعمت انفاسه وملاءت صدره .. فتحة صدرها التى كشف من خلالها منبت ثدييها الراسخين.

كل هذه الأمور جعلت أنفاسه تضطرب ودقات قلبه تتسارع .. خاصة حين لاحظت هى نظراته .. ظهر هذا واضحًا من إختلاج شفتيها وإرتعاش يدها وهى تضمد جرحه قبل أن تبادر بالكلام محطمة حاجز الصمت قائلة:

- أنت رجل شهم يا (محمود).

- لقد فعلت الواجب ليس أكثر.

قالت دون أن تنظر إليه وهى منشغلة بتضميد جرحه:

- لكن كثيرين غيرك كانوا لن يحركوا ساكنًا .. لقد كدت تعرض نفسك للقتل بسببى وهذا جميل لن أنساه لك.

غمغم (جابر) بصوت خفيض وهو لايزال يتفرس فى وجهها:

- لن يهمنى شئ مادمت أنت بخير.

رفعت وجهها للحظة نحوه وقد أرتسمت أبتسامة على شفتيها والتمعت عيناها فى سعادة ثم نهضت على عجل بعد أن ربطت جرحه جيدًا وجمعت أدواتها وسارت ناحية الباب قبل أن تتوقف وتلتفت إليه قائلة:

- سأمر عليك كل يوم لأغير لك على الجرح.

- سأنتظرك.

قالها فمنحته أبتسامة عذبة مكملة:

- تصبح على خير.

سار حتى الباب وحجزه بيده كى يمنعه من الأنغلاق وظلت عيناهما

متلاقيتـان أثنـاء صعودهـا حتـى غابـت عـن نظـره فأغلـق بابـه وألقـى بجسـده المكـدود عـلى سريـره تداعبـه أحـلام جميلـة لم تواتيـه منـذ فـترة طويلـة .. ظـل سـارحًا فيهـا حتـى غلبـه النـوم فغـرق فى سـبات عميـق.

ولأول مرة منذ سنين كان نومه هانئًا دون كوابيس.

*****

لم تعـد (دريـة) قـادرة عـلى الصـبر .. صـارت حياتهـا كالجحيـم .. كان الأمـر أكـثر مـن قدرتهـا عـلى الأحتـمال .. لقـد عانـت الأمـرّيـن خـلال الفـترة الأخـيرة مـن حياتهـا مـع (شـعبان) فلـم يعـد بينهـا وبينـه أى قـدر مـن تفاهـم أو مـودة .. صـار الشـجار والمشـاحنة عـلى أتفـه الأسـباب أسـلوب حيـاة .. حـل الـصراخ محـل الـكلام .. علاقتهـم الزوجية أصبحـت كصخـرة وُضعـت عـلى منحـدر وبـدأت رحلـة السـقوط المـروع وعليهـما فقـط أنتظـار النهايـة.

أبتعـاد (شـعبان) عنهـا أفقدهـا حتـى المشـاعر البسـيطة التـى تحتـاج إليهـا أى أمـرأة صحيـح أنهـا لم تحظـى معـه بمـا حلمـت بـه منـذ أن وعيـت عـلى الدنيـا وهـو أن تعيـش قصـة حـب تكـبر معهـا وبداخلهـا طـوال سـنوات عمرهـا .. كان زواجهـا منـه زواجًـا تقليديًـا نجـح أبوهـا وأمهـا فى إقناعهـا بـه .. لم تحبـه ولم تكـن تُكِّـن لـه أيـة مشـاعر قبـل الـزواج لكـن ظـل الحلـم بداخلهـا ينتظـر .. ينتظـر يـدًا حنونـة ترعـاه وترويـه لينمـو ويمـلأ حياتهـا القاحلـة لكـن فقدانهـما أمـل الأنجـاب تدريجيًـا حطـم هـذا الحلـم عـلى صخـرة واقـع مريـر جعلهـا تفتقـد كل

شئ .. أفتقدت اللمسة التى تدغدغ أحاسيسها والكلمة التى ترضى غرورها كأنثى حتى المودة التى تنشأ بين أى زوج وزوجة صارت كحلم جميل زال سريعًا ولم تلبث أن أستيقظت منه .. غيوم كثيرة ظللت سماؤها وضباب كثيف أحاط حياتها من كل جانب حتى صارت وحيدة تمامًا .. ظلمة حالكة السواد بلا أدنى قبس من نور.

من بين هذا الضباب شعرت به ..

من وسط هذا الظلام رأته ..

شاب جميل أيقظ بداخلها كل ما فقدته من مشاعر الأنثى حين تتعلق برجل ..

حين تشعر بلهفة إلى نظرة منه وتشتاق إلى سماع صوته ..

حين تشعر بأنفاسه تملأ صدرها ويداه وهى تحتويها لتعطيها أمان طال أنتظاره ..

حين تحلق معه فى سماوات عشق لامتناهية بعيدًا عن عيون الناس..

فتنها فلم تعد ترى أحدًا غيره.

مرت شهور وهى تراه ولايراها .. حاولت أن تلفت أنتباهه إليها أكثر من مرة .. أن تلهب مشاعره وتؤججها .. كانت تتعمد أن تكثر فى طلب طلبات للمنزل لتجعل (شعبان) يرسله بها فتتجمل وتتزين وتنتظره حين يمر عليها لكن دون جدوى .. دائمًا يناولها ما طلبته ويُعاود أدراجه سريعاً .. يقابلها وهو مطرق إلى الأرض لا ينظر إليها .. تكاد تصرخ فى وجهه كى يرفع عينيه ليراها .. قلعة بلا أسوار ولا متاريس تنتظر الغازى .. لكن أنتظارها طال حتى كادت

تيأس بينما الرغبة تكويها كجمرة نار تأكل جسدها.

الغريب أن ما لا تعرفه هى أن (جابر) كان يشعر بكل ما تحاول إيصاله إليه .. ربما من تعمدها أن تطيل الوقوف معه عن طريق أسئلة لا معنى لها أو من تعمدها لمس يده حين يناولها ما أرسلت فى طلبه .. أو حتى من نظرة اللهفة التى تقابله بها فيلمحها بنظرة سريعة قبل أن يطرق بنظره مرة ثانية إلى الأرض ..

كان خوفه دائمًا يقف عائقًا بينه وبينها .. كان يخشى أن يتطور الأمر بينهما فلا يقدر على التراجع .. يخشى أن يفقد كل ما بناه طوال الفترة السابقة إن علم زوجها بما قد يحدث بينهما لذلك شعر بالتوتر حين طلب منه (شعبان) شراء بعض الطلبات وإرسالها إلى البيت لحظتها تلكأ وحاول أن يتعلل بضغط الزبائن وطلبات المقهى لكن (شعبان) ظل يُلح فى طلبه بل وزجره حتى يذهب فلم يجد مفرًا من الأنصياع لأمره وعند الباب كانت تنتظره .. كتلة من الرغبة تقف أمامه .. بريق عينيها وأنفاسها المتهدجة كشفا ما يعتمل بداخلها .. ناولها الطلبات وهم بالعودة حين أستبقته .. مدت يدها لتمسك بيده فى قوة وهى تقول:

- أنتظر يا (محمود).

نظر إليها متسائلًا فتابعت قائلة:

- أدخل فأريدك فى أمر ما.

أفسحت له الطريق فخطا مترددًا إلى الداخل بينما أغلقت هى الباب خلفه ثم أشارت إليه قائلة:

- أتبعنى.

سار خلفها عبر طرقة المنزل مما أتاح له أن يتفرس فيها .. كانت ترتدى روبًا منزليًا أغلقته حول جسدها بإحكام وقد عقصت شعرها خلف رأسها بينما قدميها الصغيرتين تخطران بنعومة على الأرض وكعباها المشربان بحمرة يوحيان بإعتنائها بنفسها أيما أعتناء.
دخلت إلى حجرة النوم فوقف هو خارجها متهيبًا فنظرت له فى أستمالة ممزوجة بدهشة مصطنعة صائحة:

- لماذا تقف عندك هكذا؟!

ثم أشارت إلى حقيبة كبيرة موضوعة أعلى صوان الملابس بغرفة النوم متابعة:

- أريدك أن تساعدنى فى إنزال هذه الحقيبة ولكن خذ الحذر فهى ثقيلة حاذر كى لا تسقط بها.

لم يجد بدًا من تنفيذ ما طلبته منه فدخل إلى الغرفة وأحضر مقعدًا كان موضوعًا بجوار الحائط وضعه أسفل الصوان ثم خلع حذائه وصعد عليه والتقط الحقيبة .. كانت ثقيلة بالفعل إلا أنه حملها ووضعها على الأرض قبل أن يلتفت إلى (درية) وتتسع عيناه فى دهشة عارمة ..

كانت (درية) تقف أمامه عارية تمامًا وقد سقط عنها الروب الذى كانت ترتديه بينما حلت عقدة شعرها فأنسدل فى نعومة على كتفيها كشلال من السواد الحالك يعكس بياض بشرتها الناصع وتتطلع إليه فى رغبة محمومة .. أزدرد لعابه فى صعوبة وهو ينظر لها فى شبق لم يفلح فى أن يداريه بينما عيناه تجوب أنحائها وتمسح كل شبر فى جسدها البض .. ثدياها الرابضان على صدرها فى ثقة..

بطنهـا المشـدودة مـع أمتـلاء خفيـف أثـار شـهوته إلى درجـة كادت تقتلـه .. يداهـا الناعمتـان وأظافرهـا التـى طلتهـما بعنايـة .. أسـتدارة وسـطها الـذى ينحـدر بشـكل مرسـوم فى أبـداع إلى فخذيهـا ناصعـى البيـاض ولم ينـس فرجهـا الـذى أزالـت شـعر عانتـه فأكملـت بـه روعـة جسـدها وبـدت كآيـة للجـمال .. لوحـة مرسـومة بدقـة لتفـتن ناظريهـا وتغيبهـم.

أقتربـت هـى منـه وهـى تتطلـع إليـه فى غنـج واضـح قبـل أن تتمتـم بصـوت خفيـض:

- أكان لابد أن تمر شهور كى تأتى إلى هنا؟

لم ينبـث (جابـر) ببنـت شـفة وتصاعـدت أنفاسـه وهـو لايـزال يقتحـم جسـدها بعينيـه فرفعـت يدهـا تتحسـس صـدره الصلـب متابعـة:

- منـذ أن رأيتـك وأنـا أنتظـر هـذه اللحظـة .. لحظـة أكـون أنـا وأنـت فيهـا وحدنـا.

ثـم التقطـت يديـه ورفعتهـما إلى شـفتيها لتقبلهـما قبـل أن تضعهـما عـلى ثدييهـا .. شـعر (جابـر) بسـخونة جسـدها الـذى يفـور بالرغبـة فأعتصرهـما بـين أصابعـه فى قـوة ألمتهـا فنـدت عنهـا آهـه خافتـة فجـرت ينابيـع الشـهوة بداخلـه فلـم يـدر بعدهـا (جابـر) بنفسـه إلا وهـو ينحنـى ليحملهـا بـين ذراعيـه ويسـير بهـا إلى السريـر ليلقيهـا عليـه بقـوة ويخلـع ملابسـه فى سرعـة قبـل أن يعتليهـا ويخـترق مـا بـين فخذيهـا فى عنـف جعلهـا تـصرخ فى ألم مشـبوب بمتعـة جعلتهـا تحلـق فى عـالم آخـر تحـررت فيـه مـن كل مـا عانتـه فى سـنواتها الأخـيرة .. كانـت تغلـق عينيهـا وتغيـب عـن كل مـا يحيـط بهـا .. وعيهـا ينسـحب عنهـا

فى بطء .. خدر لذيذ أحاط بها فسلمت (جابر) قيادها يديرها كيفما يشاء كمهرة شابة رائعة الجمال وجدت أخيرًا فارسها القوى. ظلت على هذه الحالة حتى النهاية إلا من بعض لحظات كانت تنشب أظفارها فى ظهره من فرط الألم حتى شعرت به ينتفض ويروى أرضها التى تركها (شعبان) صحراء قاحلة فأطلقت زفرة ملتهبة من أعمق أعماقها وأحاطت رقبته بيديها تتعلق به بينما هو يغمر صدرها ووجهها بالقبلات قبل أن ينهض عنها ليلتقط ملابسه من على الأرض ويرتديها على عجل بينما تمطت هى فى أرتياح ثم أعتدلت ناحيته متسائلة فى دلال:

- ألا تبقى قليلًا؟

أجابها وهو يعدل هندامه:

- يجب أن أعود لزوجك فى المقهى وإلا وجدناه أمامنا هنا.

نهضت من على سريرها وتعلقت بعنقه ونهلت منه قبلة أخيرة غابت فيها طويلًا قبل أن تلتقط هى الأخرى روبها من على الأرض وتضعه على جسدها وتسير معه حتى الباب مودعه ولم تنس أن تؤكد عليه قبل أن يغادر قائلة:

- حذار أن يعلم أحد بما بيننا أو يظهر عليك شئ أمام (شعبان).

أبتسم لها مطمئنًا ثم قال:

- لا تقلقى سيبقى ما بيننا فى طى الكتمان.

تخللت شعره البنى الناعم بأصابعها ثم قالت:

- سأنتظرك قريبًا.

نظر لها طويلًا قبل أن يفتح الباب ويخرج وما أن أغلقت الباب

خلفـه حتـى بصـق عـلى الأرض فى أحتقـار ومـضى فى طريقـه عائـدًا إلى المقهـى.

*****

الفصل الحادى عشر

أمـام حجـرة العنايـة المركـزة وقـف (شريـف) ووالـده والقلـق يعتـصر قلبيهـما منتظريـن خـروج الطبيـب المعالـج ليطمئنهـما .. الأب يقـف مسـتندًا إلى الحائـط ودموعـه تنسـاب عـلى وجهـه فى صمـت بينـما (شريـف) يتحـرك يمينًـا ويسـارًا أمـام بـاب حجـرة العنايـة فى عصبيـة شـديدة حتـى خـرج الطبيـب فأندفعـا نحـوه بلهفـة وعاجلـه (شريـف) بالسـؤال قائـلًا فى توتـر:

- كيف حالة جدى الآن؟

أجابه الطبيب فى جدية:

- لـن أخفـى عليـك حالـة جـدك ليسـت مطمئنـة .. لقـد أصيـب بذبحـة صدريـة شـديدة أثـرت عليـه بشـكل كبـير ومـع تقدمـه فى العمـر وحالـة قلبـه السـيئة أصبحـت حالتـه شـديدة الخطـورة.

أغمـض (شريـف) عينيـه وأطـرق برأسـه فى ألم محـاولًا كبـح جـماح دموعـه التـى تجاهـد لتتحـرر وتغـرق وجهـه بينـما أنتحـب والـده فى مـرارة قبـل أن يسـأل الطبيـب فى رجـاء:

- ألا يمكننا أن نراه الآن؟

أجابه الطبيب وهو يهز رأسه نفيًا:

- كلا بالطبع فحالته الآن لا تسمح ثم أننا وضعناه على جهاز التنفس الصناعى حتى تستقر حالته ربما فى الصباح يمكنكما زيارته ولكن ليس لمدة طويلة وبدون أى كلام معه حتى لا تجهداه.

شكره (شريف) وأصطحب والده إلى حجرة الأستقبال فأجلسه على أحد المقاعد وجلس بجانبه ثم ربت على يده قائلًا:

- أهدأ يا والدى .. أرجوك تمالك أعصابك وبإذن الله سيكون جدى على خير ما يرام.

- لن يمكننى أحتمال فقده يا ولدى.

- بعون الله لن نفقده .. كن مؤمنًا بقضاء الله وقدره.

- ونعم بالله.

- أننا لن نتركه .. سنبقى هنا معه حتى الصباح لنطمئن عليه.

ما أن أنتهى (شريف) من جملته حتى طالعه وجه أحد الممرضات وهى تبحث عنهما بعينيها حتى وجدتهما فأندفعت نحوهما بشكل أصاب (شريف) بالذعر إلا أنها قالت فى سرعة:

- أستاذ (شريف) .. جدك يطلبك الآن.

فقال (شريف) فى تردد:

- ولكن الطبيب شدد على منع الزيارة خوفًا من أن تسوء حالته.

أومأت برأسها إيجابًا وهى تقول:

- هذا صحيح لكنه يطلب رؤيتك بإصرار غريب ولا يستجيب لمحاولاتنا لتهدئته وهذا يزيد حالته سوءاً وليس العكس.

لم ينتظر (شريف) لسماع أكثر من هذا فأندفع خلفها إلى العناية

المركزة وما أن وصل إلى سرير جده حتى أنحنى يقبل يده وأطلق لدموعه العنان فتحررت بعد طول كبت وقد هاله منظره الذى تفارقه علامات الحياة رويدًا رويدًا إلا من أنفاس لاهثة تجاهد كى تتعلق بالدنيا فى صراع دائم مع الموت تعرف هى نتيجته المحتومة مسبقًا.

ظل (شريف) منحنيًا أمام جده يتطلع إليه فى حنان مشبوب بالأسى فمد الأخير يده الأخرى فأزاح جهاز التنفس عن وجهه بصعوبة بالغة ثم تمتم بصوت خفيض:

- (شريف) يا بنى أريد أن أوصيك وصية.

رد (شريف) من بين دموعه:

- سأنفذ أى أمر توصينى به يا جدى.

- أتقسم على هذا؟

أجابه (شريف) بإخلاص:

- أقسم يا جدى .. أقسم.

تنهد الجد فى أرتياح ثم قال فى إعياء:

- أترك هذه القضية.

زوى (شريف) ما بين حاجبيه فى دهشة وهو يتساءل فى إستغراب:

- أى قضية؟

- قضية المحطة.

لم يفهم (شريف) ولم يستوعب ما يقوله جده لقد ظن أنه سيوصيه على والده أو على أى شئ آخر يخصه لكن أن يترك قضية من قضايا عمله لا يعلم جده عنها شيئًا فهذا آخر شئ قد يتوقعه

لذلـك أكمـل أسـئلته قائـلًا:

- لماذا يا جدى .. لماذا؟

أجابه الجد وقد أجهده الكلام أكثر وأكثر:

- لن تجنى من خلفها خيرًا أبدًا.

ثـم أشـار إليـه أن يقـترب أكـثر ثـم أكمـل بصـوت مبحـوح يـكاد لا يُسـمع:

- فى حجرتى ستجد ما ينير لك الطريق.

أثـارت الكلـمات أنتبـاه (شريـف) وأهتمامـه وإن لم يُبـدى هـذا أمـام جـده الـذى سـعل فى قـوة عـلى نحـو متواصـل فتدخلـت الممرضـة قائلـة فى حـزم:

- يكفى هذا يا أستاذ (شريف) .. لندعه يستريح الآن.

أطاعهـا (شريـف) عـلى الفـور فنهـض مـن مكانـه ولم ينـس أن يربـت عـلى كـف جـده مُطمئنًـا قبـل أن ينـصرف.

فى صالـة الأسـتقبال طالعـه وجـه والـده ينتظـره بقلـق فطمأنـه عـلى صحـة جـده وأنـه فى خـير حـال وتعلـل بإنهـاء بعـض الأعـمال المتعلقـة عـلى أن يعـود إليـه فى الصبـاح ليدخـلا لزيـارة جـده معًـا ثـم أنـصرف عـلى عجـل لا يلـوى عـلى شـئ .. كان الفضـول يعتـصره لمعرفـة مـا يخفيـه عنـه جـده ومـا سر هـذه الوصيـة الغريبـة ثـم مـاذا قـد يكـون فى غرفـة جـده قـد يُنـير لـه الطريـق فى قضيتـه الغامضـة كلهـا أسـئلة ظلـت تتصـارع داخـل عقلـه فى ضراوة حتـى وصـل إلى المنـزل فتوجـه عـلى الفـور إلى غرفـة جـده فأنـار مصبـاح الغرفـة ووقـف يتطلـع إليهـا. كان كل شـئ فى الغرفـة تفـوح منـه رائحـة جـده .. سريـره الـذى يقـضى

عليـه أغلـب فـترات يومـه .. عـكازه الـذى يتكـئ عليـه كلـما غـادر سريـره لأمـر مـا .. مصحفـه الكبـير ومسـبحته الموضوعـان مكانهـما عـلى الكومـود بجانـب السريـر .. كانـت كل قطعـة أثـاث فى الغرفـة تحمـل طابعـه ولمسـته .. تحمـل جـزء لا يتجـزأ مـن روحـه وتذكـر مـا كان جـده يذكـره لـه دائمًـا عندمـا كان صغـيراً عـن أن الجـماد أيضًـا مـن مخلوقـات اللـه كالبـشر والنبـات والحيـوان يشـعر بمـا حولـه وبمـن يتعامـل معـه وكان دائمًـا يؤكـد لـه هـذا بآيـات مـن القـرآن الكريـم .. ألم يُذكـر فيـه أن الجبـال تسـبح بحمـد اللـه وتتصـدع مـن خشـية اللـه.

أغرورقـت عينـاه فى ألم عصـف بـه وهـو يتذكـر ذكريـات طفولتـه مـع جـده وكيـف كان دائمًـا حنونًـا معـه ومعلـمًا لا نظـير لـه يسـمع كل مـا يقولـه مهـما بـدا تافهًـا .. يسـمع أسـئلته الطفوليـة بصـبر وتـأن ويُجيـب عنهـا بسـهولة ويـسر دون أدنى تعقيـد حتـى يسـتوعبها ويحفظهـا .. لا يذكـر مـرة أن زجـره أو نهـره بشـدة .. كان دائمًا نعـم الصاحـب والرفيـق .. لذلـك يصعـب عليـه الآن أن يفقـده .. نعـم هـو يعلـم جيـدًا أن جـده شـيخ طاعـن فى السـن وأنـه مريـض منـذ فـترة ليسـت بالقصـيرة وأن الأعـمار بيـد اللـه ولـكل أجـل كتـاب ولكـن ألم الفـراق والفقـد والوحـدة كانـا أكـثر مـن قدرتـه عـلى الأحتـمال.

نفـض عـن رأسـه كل هـذه الأفـكار ودعـا اللـه فى سره ألا يريـه مكروهًـا فى أحـدًا يحبـه ثـم بـدأ بحثـه داخـل الغرفـة عـما يخفيـه جـده ففتـح الأدراج وصـوان الملابـس وقلـب حشـية الفـراش دون جـدوى .. أسـتغرق بحثـه مـدة طويلـة دون أن يعـثر عـلى شئ فوقـف فى منتصـف الغرفـة يتطلـع لمـا حولـه فى حـيرة حتـى التقطـت عينـاه صنـدوق صغـير..

صنـدوق وُضـع بعنايـة أعـلى صـوان الملابـس فأنتقـى أقـرب مقعـد وصعـد عليـه ثـم جـذب الصنـدوق ووضعـه أمامـه عـلى السريـر وفتحـه ثـم بـدأ فى إخـراج محتوياتـه ومطالعتهـا.

كان الصنــدوق يحتــوى عــلى مجموعــة مــن التــذكارات والنياشــين حصـل عليهـا جـده أثنـاء فـترة خدمتـه فى جهـاز الشرطـة بالإضافـة إلى مجموعـة مـن الصـور القديمـة جمعهـا وأخـذ ينظـر إليهـا الواحـدة تلـو الأخـرى .. صـور لـه فى مرحلـة الشـباب بالبدلـة الرسـمية .. صـور لـه مـع أصدقـاء فى مثـل سـنه يقفـون أمـام الكامـيرا ويبتسـمون فى سـعادة.. وصـورة وحيـدة لـه وهـو يقـف بجـوار سـيدة شـابة فى العشرينـات مـن عمرهـا وبينهـما طفـل صغـير لا يتجـاوز عمـره العامـين ثـم صـورة أخـرى للطفـل وحـده لا يتعـدى عمـره فيهـا الثـلاث سـنوات أسـتوقفته لبرهـة يتطلـع إليهـا فى أهتـمام وهـو يتذكـر أيـن رأى هـذه الصـورة مـن قبـل ثـم أتسـعت عينـاه فى ذهـول .. مـا هـذا العبـث أنهـا نفـس الصورة الموجـودة فى الصنـدوق الـذى عُـثر عليـه فى موقـع الجريمـة التـى يحقـق فيهـا الآن والتـى طالعهـا بنفسـه فى مكتـب الدكتـور (عـماد) طبيـب الطـب الشرعـى مـن قبـل.

أيعقـل أن تكـون الصـورة التـى رأهـا مـن قبـل هـى نفسـها صـورة أبـاه فى طفولتـه التـى يراهـا ويمسـكها بيـده الآن .. ومـا الـذى أتى بصـورة أبـاه فى صنـدوق يخـص سـفاح قتـل الكثيريـن منـذ أكـثر مـن نصـف قـرن .. أسـئلة كثـيرة وألغـاز تتصـارع داخـل عقلـه بـلا هـوادة وبـلا أمـل فى إجابـة تضئ ظـلام حيرتـه.

لم يسـتوعب مـا يحـدث فوضـع الصـورة فى جيبـه والتقـط مـن داخـل

الصندوق كتاب قديم ذو غلاف أسود بهت لونه وأصفرت أوراقه كتب عليه بخط منمق.

.. مذكراتى بقلم كامل مدكور ..

شعر (شريف) أن ما هو مقبل عليه سيفتح له أبواب لم يطرقها من قبل وأن غيوم الألغاز التى تحيط به على وشك أن تنجلى فحمل الكتاب معه إلى غرفته ووضعه أمامه على المكتب وأشعل سيجارة ينفث مع دخانها توتره ثم فتح الكتاب وبدأ القراءة ليعود بالزمن إلى الوراء ..

إلى حيث البداية.

*****

الفصل الثانى عشر

بللت قطرات العرق جبين (جابر) والتصقت بها خصلات شعره البنى الناعم بينما تصاعدت أنفاسه اللاهثة من فرط المجهود أثناء مضاجعته ل(درية) .. هذه الليلة كانت هى فى قمة النشوة وقد أستقبله جسدها بكل ترحاب وظهرت على ملامحها علامات السعادة والأرتياح جلية حتى أنها مدت يدها تجذب جسده ناحيتها لتجعله يغوص بداخلها أكثر مع أطلاقها آهات ألم أثارته أكثر وأكثر .. كانت لديه رغبة متفجرة ناحيتها هذه الليلة لم يتخلص منها إلا عندما شعر بنهره يفيض بداخلها عندها طوح برأسه إلى الوراء فى أرتياح قبل أن يميل عليها ليغيبا فى قبلة طويلة لاهثة .. قبلة قطعها صوت خافت عند باب الحجرة جعل (جابر) ينتفض فى ذعر ويلتفت ناحية الباب فإذا بصبى صغير ميز فيه ملامح يعرفها جيدًا يقف مرتديًا جلبابه الصغير وقد أتسعت عيناه فى دهشة صاعقة وصدمة عقدت لسانه وشلت كيانه فلم يحرك ساكنًا.

هب (جابر) من مكانه وهو يُعيد نظره ناحية (درية) فإذا بأمه (نعمة) مستلقية مكانها على السرير وقد بقيت على عُريها كما

كانـت فقفـز مـن عـلى السرير يُديـر وجهـه فى جميـع الجهـات لا يـدرى إلى أيـن يذهـب وأيـن المفـر مـن عينـا (جابـر) الصغـير وعينـا أمـه اللتـان تلاحقانـه وتجلدانـه كسـياط مـن الجحيـم قبـل أن تصطـدم عينـاه بمـرآة رأى فيهـا نفسـه فى هيئـة عمـه كـما رآه آخـر مـرة وهـو يبتسـم فى تشـفى فأخـذ يـصرخ ويـصرخ وهـو يغلـق عينيـه ويغطـى وجهـه بيديـه .. حتـى نهـض مـن نومـه مذعـورًا بينـما العـرق يغمـره ويسـيل عـلى وجهـه ورقبتـه .. فـإذا بـه فى غرفتـه كـما تركهـا قبـل نومـه وقـد عمهـا الظـلام إلا مـن ضـوء خافـت يـأتى مـن ناحيـة البـاب.

مسح عرقـه وغطـى وجهـه بيديـه فى أرهـاق فـإذا بصـوت خافـت يثـير أنتباهـه وذعـره فرفـع عينيـه ناحيـة البـاب ورأى أمـه وعمـه قادمـان تجاهـه بنفـس هيئتهـما وملابسـهما يـوم قتلهـما .. البـشرة الشـاحبة والعيـون الجاحظـة وأبتسـامة الـشر والتشـفى عـلى وجهيهـما فـصرخ وهـو يتراجـع فى سريـره ليلتصـق بالحائـط وصـاح فى ذعـر:

- ماذا تريدان منى؟

أجابـه عمـه بصـوت عميـق تـردد وقعـه فى أذنيـه كجمـر نـار ملتهبـة مـن الجحيـم:

- قتلتنى والآن صرت مثلى.

لـوح (جابـر) بذراعيـه وهـو يـزداد التصاقًـا بالجـدار والرعـب يتمثـل فى كل ملامحـه هاتفًـا:

- لا .. لا .. أنا لست مثلك.

أرتسـمت أبتسـامة شـيطانية عـلى وجـه عمـه أنطبعـت مثلهـا عـلى وجـه أمـه والأول يقـول:

- لقد خنت ولى نعمتك كما خنت أنا أخى.

ثم تقدما تجاهه وهما يرددان معًا:

- يجب أن تموت كما متنا نحن.

أنطلق صراخ (جابر) يشق الصمت وظل يصرخ ويصرخ حتى أستيقظ حقيقة هذه المرة مفزوعًا فقفز من مكانه يتأكد من إحكام غلق الباب .. قبل أن يلتقط زجاجة مياه أفرغها فى جوفه مرة واحدة ثم ألقى بجسده الذى تهدم بنيانه فى إعياء على سريره نتيجة هذا الكابوس المزدوج المفزع وظل مستلقيًا على فراشه وقد جافاه النوم ولايزال صوت عمه يتردد صداه فى أذنيه قائلًا:

- الآن صرت مثلى .. الآن صرت مثلى.

ثم صوتهما معًا وهما يرددان:

- يجب أن تموت كما متنا نحن.

كانت قسوة الكلمات تمزق جسده كضربات سكين مسنون وتحرق عقله وتلهب كيانه كمن سقط فى بحر من نار لا شاطئ نجاة منه .. لكن هل صحيح أنه صار مثلهم ..

شيطان فى صورة أنسان كما كان يراهم فى طفولته ولايزال حتى الآن ..

تُرى هل يتحمل عبء الخيانة ويكتوى بنارها؟

تُرى هل فعلًا يستحق القتل مثلما أستحقوه؟

وإلى متى ستظل تلك الكوابيس تلاحقه؟

أسئلة كثيرة ظلت تجول داخل أروقة عقله وتعبث بأفكاره كشيطان مريد حتى غاب عن وعيه تمامًا.

*****

تحت جنح الظلام وفى عتمة ليل أرخى ستائره السوداء القاتمة على المنطقة جلس (جابر) بجانب السائق فى سيارة نقل البضائع المُختفية عن الأنظار أمام بوابة الميناء يتلفت حوله فى توتر خشية أن يلحظه أحدهم منتظرًا الأشارة المُتفق عليها مع من يتعاملون معه بداخل الميناء.

مر أكثر من شهر منذ قبل (جابر) بعرض (مادلين) للعمل معهم وصارت كل مهمته أن يصطحب السائق والسيارة إلى الميناء ليحمل البضائع المُتفق عليها لينقلوها إلى مخزن خاص مُعد لهذا الغرض. كانت المهمة محفوفة بالمخاطر و(جابر) يعلم هذا جيدًا لكنه قبل بها عن طيب خاطر من أجل عيون (مادلين) التى أختصته هو دون غيره ليكون رجلها المخلص الذى تأتمنه وفى المقابل تهبه قلبها وحبها وهو لم يكن يريد أكثر من هذا .. أن تبادله حبًا بحب .. إخلاصًا بإخلاص .. ومن أحق بحبها أكثر ممن تثق به لتأتمنه على أموال وتجارة والدها .. الذى تحمل عنها عبء المخاطر والمسئولية ولم يطلب لنفسه شيئًا سوى أن يرى أبتسامة الرضى على ثغرها الجميل ويسمع كلمات الشكر من بين شفتيها فيحلق فى سماء السعادة مطمئنًا.

قطع شروده وتسلسل أفكاره ضوء قوى أنبعث من بطارية يدوية مرتين متتابعتين فأعتدل فى أهتمام وأنتظر حتى أنبعث الضوء لمرة ثالثة فغمز السائق بيده قائلًا:

- هيا بنا.

كانت تلك الأشارة المتفق عليها فما أن تحركت السيارة حتى

أنفتحت البوابة على مصرعيها فمرقت السيارة إلى الداخل حتى وصلت إلى رصيف الشحن فتعاونوا معاً على تحميلها بالبضائع حتى أمتلاءت عن آخرها فناوله (جابر) مظروفًا مغلقًا فيه المبلغ المتفق عليه مع الموظف المسئول وصعد بجانب السائق داخل السيارة مرة أخرى متخذين طريق العودة حتى وصلا إلى المخزن الخاص الذى لا يعلم أحد عنه شيئًا سوى الخواجة (أستيفانوس) و(مادلين) وعدد قليل من عمال الوكالة الذين أختصهم الخواجة ومنحهم ثقته والآن هو.

أنتهى من نقل البضائع إلى داخل المخزن مع بعض العمال من الوكالة الذين كانوا ينتظرونه هناك وأنتظر حتى رحلوا كما رحل السائق بسيارته فتمم على كل شئ ثم أحكم إغلاق المخزن وسار فى أتجاه بيت الخواجة (أستيفانوس) الذى لابد وأنه فى إنتظاره الآن على أحر من الجمر ليطمئن على أن بضاعته قد وصلت بأمان إلى مخزنه.

أثناء سيره فى أتجاه المنزل كان سعيدًا لأنه أتم المهمة على أكمل وجه مما سيُسعد الخواجة (أستيفانوس) والأهم أنه سيُسعد مالكة قلبه وسيدة أحلامه (مادلين) .. سرح خياله فى أنه بعد قليل سيراها ويسعد بإبتسامة الرضا والسعادة على وجهها فرقص قلبه طربًا وأنتشى فى سعادة فأطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا للحن أحدى الأغانى الرومانسية سمعها قريبًا فى مذياع المقهى وأعجبته كثيرًا وأخذ يردد مع نفسه كلماتها التى كان يشعر بأنها تصف ما بداخله وتحكى عن قصة حبه هو و(مادلين) ..

شفت حبيبى وفرحت معاه ...
كان وصل جميل حلو يا محلاه .. حلو يا محلاااه شفت حبيبى ...
بعد الوحدة وطول الأشجان كان قلبى وحيد وصبح فرحان ...
ياما قضيت الليل سهران ييجى اليوم أسعد بلقاه.

قطع أفكاره وترديده للأغنية صوت خطوات حذرة تتبعه فأنتبه وتوقف ليلتفت وينظر إلى الخلف فلم يجد أحد .. كان الشارع مظلمًا وخاويًا فعاد يكمل سيره من جديد وإن ظل منتبهًا متيقظًا حتى عاد صوت الخطوات من جديد يتتبعه .. هذه المرة لم يتوقف بل جد السير وأسرع خطاه حتى توارى فى أول شارع جانبى قابله وهناك وقف ينتظر ويترقب .. ثوان وتعالى صوت الخطوات يقترب حتى ظهر شاب يسير وحيدًا مرق من أمامه ولم يتوقف بل أستمر فى طريقه كما هو عندها تنفس (جابر) الصعداء ونفض عن نفسه هواجسه وأتخذ طريقه من جديد ناحية منزل الخواجة (أستيفانوس).

حين وصل إلى المنزل كانت هى فى أستقباله .. جائزته التى اجتهد كى ينالها .. واحته الخضراء بعد طول ضياع فى صحراء مترامية .. شربة الماء التى ترويه بعد سنوات من الظمأ .. تلقف بسمتها فى وجهه بشوق فاق كل الحدود وتركها تصحبه إلى الداخل قبل أن توصله إلى غرفة الصالون وتستدير لتذهب كى تخبر والدها بحضوره فمد يده ليمسك يدها يستبقيها وهو يهمس فى هيام:

- أوحشتنى.

أتسعت أبتسامتها الواثقة وكأنها أعتادت على نظرات الوله فى

عيـون كل مـن ينظـر إليهـا ثـم قالـت فى دلال:

- حقًا؟

- أتسألينني؟

سحبت يدها من يده فى لطف ومررت أصابعها على خده قائلة:

- فيـما بعـد عندمـا نكـون وحدنـا فـالآن يجـب أن أخـبر أبي بحضـورك ليطمـئن.

قالتهـا وذهبـت لتخـبر أباهـا بحضـوره تاركـة أيـاه يعـد الثـوانى لعودتهـا قبـل أن تسـتثيره هواجسـه مـن جديـد عندمـا تذكـر صـوت الخطـوات التـى كانـت تتبعـه فأقـترب مـن النافـذة وأزاح السـتار يُلقـى نظـرة عـلى الشـارع الخـالى تقريبًـا مـن المـارة فى هـذا الوقـت المتأخـر مـن الليـل إلا أنـه فوجـئ بالشـاب الـذى رآه قبـل ذلـك يقـف عـلى مسـافة قريبـة مـن المنـزل مسـتندًا بظهـره إلى الحائـط المقابـل وهـو ينفـث دخـان سـيجارته متطلعًـا بـين الفينـة والأخـرى إلى النافـذة التـى يقـف هـو خلفهـا.

توتـرت أعصابـه عندمـا تأكـد أنـه مراقـب وأن هنـاك مـن يرصـد خطواتـه ويكشـف تحركاتـه بينـما أسـتعر بداخلـه مزيـج غريـب مـن الخـوف والفضـول .. الفضـول لمعرفـة مـن هـذا الـذى يتبعـه ولأى جهـة ينتمـى والخـوف مـن أن يكـون أحـد عنـاصر الشرطـة ويكـون أمـره وأمـر المخـزن الـسرى قـد كُشـف .. عندهـا سـتنحل خيـوط حياتـه واحـدًا تلـو الآخـر وسـيكون سره الأخطـر والأهـم عُرضـة للكشـف هـو الآخـر .. يجـب عليـه أن يتخـذ كل سـبل الحـرص فى الفـترة القادمـة ويعيـد ترتيـب أوراقـه مـن جديـد.

سمع خطوات الخواجة (أستيفانوس) و(مادلين) تقترب فترك الستار وأعتدل فى مكانه وقد شعر أنه من الأفضل ألا يخبرهما عن هذا الشخص الذى يتبعه حتى لا يثير توترهما أو غضبهما منه وبالفعل نفذ ما أنتوى عليه فطمأن الخواجة على وصول بضاعته بسلام إلى مخزنه وتسليم المبلغ المتفق عليه إلى صاحبه وسلمه مفاتيح المخزن وأستئذن فى الأنصراف .. أثناء خروجه كانت (مادلين) ترافقه حتى باب المنزل عندها نظر خلفها ليتأكد أن الخواجة ليس قريبًا منهما ولا يستطيع سماعهما فقرب شفتيه من أذنها هامسًا:

- هل سنلتقى قريبًا؟

أجابته بصوت خفيض وهى تلتفت للخلف فى وجل:

- ليس الآن يا (محمود) .. سأحاول أن أرتب موعد لنا قريبًا.

نظر فى عينيها قائلًا:

- سأنتظر.

أومأت برأسها موافقة وربتت على كتفه تستحثه على الخروج ثم أغلقت الباب خلفه قبل أن تزفر بقوة فى ضيق وهى تلتفت إلى والدها الذى برز أمامها من داخل الغرفة قائلًا:

- أيضايقك إلى هذا الحد؟

ردت عليه متسائلة وهى تمط شفتيها فى قرف:

- إلى متى يجب على تحمل هذا الأحمق؟

أجابها بسرعة:

- حتى تنتهى حاجتنا منه.

ثم أردف وهو يبتسم فى خبث:

- أم أنك تريدين أستبداله بشخص آخر.
حدقت فى وجهه متسائلة:
- من تقصد؟
أتسعت أبتسامته الخبيثة أكثر وأكثر وهو يُجيب:
- أنـا لا أقصـد أحـد بعينـه ربمـا شـخص آخـر يسـعدك رؤيتـه ولا يثـير ضيقـك وغضبـك إلى هـذا الحـد.
نظرت له فى تنمر قائلة:
- أنـا أعلـم لمـن تلمـح ولكـن أعلـم أن (كـمال) شـئ و(محمـود) شـئ آخـر .. (كـمال) حـب حيـاتى لـن أتخـلى عنـه ولـن أعرضـه للخطـر أيـا كان السـبب.
قال وهو يشير لها بإصبعه محذرًا:
- لكننـا لازلنـا نحتـاج (محمـود) فـلا تظهـرى لـه هـذا الضيـق ومادمنـا لا نجـد لـه بديـل فلتبقـى عليـه حتـى ننتهـى.
تقلصت ملامحها فى أمتعاض وصاحت فى غضب:
- لكننـى لـن أحتمـل هـذه الحيـاة بعـد الآن .. لـن أقـضى حيـاتى بجـوار هـذا الحقـير لأنـه يخـدم مصالحـك لقـد أكتفيـت وأريـد أن أعيـش حيـاتى بحريـة مـع مـن أحـب وعليـك مـن الآن أن تدبـر أمـرك بـدون خدمـات هـذا الأحمـق لأنى سـأخرج مـن هـذه اللعبـة للأبـد.
أنطبعـت نظـرة ناريـة عـلى عينيـه الزرقاوتـين وهـو يصيـح فى ثـورة لم تعتدهـا منـه:
- كل هذا من أجل (كمال).
نظرت له بثبات وهى تقول فى تحد:

- نعم من أجل (كمال).

ثم سارت إلى غرفتها قبل أن تتوقف على بابها وتلتفت له مكملة:

- ومن أجلى أنا أيضًا.

وصفقت الباب خلفها فى قوة منهية حوار عاصف أحتدم بينها وبين والدها ..

ومنهية علاقتها ب(جابر) إلى الأبد.

*****

مع مرور الأيام أحس (جابر) بشئ ما خطأ .. لم تعد (مادلين) كما كانت من قبل .. تغيرت لدرجة كبيرة وبسرعة لم يكن يتخيلها من النقيض إلى النقيض .. وكأنها بُدّلت بأخرى .. صحيح أنها قابلته كما أتفقا يوم أن زارهم فى البيت ليطمئنها ووالدها أن البضاعة قد وصلت إلى المخزن إلا أنها لم تعد أبدًا كما كانت.

يومها جاءت متأخرة تتعلل ببعض المشاغل .. جاءت متأففة متعالية وسريعة الملل حتى أنها لم تجلس معه سوى دقائق معدودة لم يكملا فيها جملتين وطلبت أن تغادر لإنشغالها فى بعض الأعمال مع والدها .. كل هذا أكد لديه أحساسه الذى كان يلتهم كيانه وينهشه حيًا بينما هو يحاربه بكل ما أوتى من قوة وهو أن (مادلين) سأمت منه ..

تغيرت ولم تعد تحبه أو أنها لم تحبه من البداية قط.

لكن يبقى سؤال ظل يؤرقه ويقض مضجعه وهو لماذا تغيرت من ناحيته؟ ..

هل أساء لها فى شئ؟
ربما علمت عنه أشياء جاهد كى يخفيها عن ماضيه ولكن كيف كان سيخبرها بكل هذا دون أن يُخاطر بأن يفقدها للأبد ثم من أين لها أن تعرف شيئًا عن ماضيه ومِن مَن ..
أو ربما علمت عن ما دار بينه وبين (درية) .. ولكن لماذا لم تواجهه أو حتى تعاتبه .. ليتها فعلت .. عندها كان سيخبرها لماذا وقع ما وقع وسيقسم لها بكل ما فى نفسه .. سيقسم بحبه لها أنه لن يكرر ما حدث ثانية وأنه نادم أشد الندم على فعلته وسيجثو عند قدميها يطلب الصفح والغفران .. لكنها بدلًا من أن تعاتبه عتاب المحبين تتجاهله وتتعمد الخلاص منه بعد كل ما فعله ويفعله من أجلها.
لن يقبل بهذا أبدًا ولو أنها كانت تخدعه أو أن هناك أحد آخر خلب لبها وسلب منه قلبها فالويل له ولها منه .. سيكون أنتقامه منهما أشد قسوة من أنتقامه السابق.
عادت له روح الأنتقام بكل عنفوانها وشدتها .. تغلغلت داخله بعد أن أنهارت أسوار الحب التى بناها حول قلبه وأصبح عقله مدينة مباحة تغزوها الأفكار السوداء كيفما شاءت فعاد (جابر) القديم الناقم على كل شئ .. (جابر) الذى أسود قلبه منذ طفولته جراء قسوة أقرب الناس إليه .. لكن عليه أولًا أن يتأكد من كل ظنونه التى تصليه عذابه وأن يعلم السر وراء ما يلاقيه من المخلوقة الوحيدة التى أحبها فى حياته وعندها يكون ما يكون.
لذلك عمد تلك الليلة لأن يتتبعها ويراقب كل خطوة تخطوها

وبالفعل نفذ ما أنتوى عليه وهاهو الآن يتوارى بعيدًا عن الأنظار أمام بيتها ينتظر ويراقب المدخل جيدًا .. كان يعلم أنها أعتادت الخروج ليلًا بعد أن تنهى عملها مع والدها فى الوكالة وكم من مرة كانت تلقاه فى مثل هذا التوقيت ليقضيا معًا أجمل أوقاتهم لذلك كان يشعر بأنها قريبًا ستظهر .. ولم تكد أفكاره تنتهى حتى لمحها بالفعل خارجة من بوابة العمارة التى تسكنها وقد أرتدت فستان سهرة أسود أبرز مفاتنها وزادها جمالًا على جمالها مع تصفيفة شعرها وزينتها التى تبدع فى وضعها وعطرها الذى فاح من حولها حتى أن عبيره وصل إليه فى مكانه عندما مرت من أمامه وهو متوارى عنها .. ورويدًا رويدًا تصاعدت ثورة الشك فى أعماقه مع كل هذا السحر الذى خرجت به .. فتحرك فى خفة يتبعها من بعيد كى لا تلاحظه أو تشعر به والأصرار داخله يتزايد لمعرفة ما تخفيه عنه حتى وصلت وهو يتبعها إلى المقهى الذى أصطحبته معها إليه عند لقائهما أول مرة .. مقهى إليت بمحطة الرمل .. ومن الخارج وعبر النوافذ الزجاجية التى تكشف ما بداخل المقهى وجدها جالسة على نفس المائدة التى جلسا عليها قبل ذلك مع شاب آخر وقد تلاقت أعينهما فى هيام بينما سلمت له يداها ليحتويها بين يديه فى وجد .. عندها شعر وكأن ألف سكينًا قد غرس فى قلبه ودماؤه تفور داخل جسده وتصرخ طلبًا للأنتقام ممن هزأت بمشاعره وتلاعبت بقلبه ثم دهسته بقدمها دون رحمة أو شفقة.

اللعنة عليك يا (مادلين) وعلى كل خائنة...

ومـن داخلـه تصاعـد القسـم .. أنـه لـن يأمـن لأمـرأة مـرة أخـرى ولتكونـن حياتـه مكرسـة لهـدف واحـد..

هدف واحد فقط وهو الأنتقام.

كبح جماح مـارد الغضـب بداخلـه وجمـع شـتات نفسـه ليرحـل بعيـدًا عـن هـذا المشـهد وهـو يجـر أذيـال خيبتـه وحسرتـه فى الوقـت الـذى كانـت فيـه (مادلـين) تقـول لحبيبهـا:

- هـل جننـت يـا (كـمال) لتتخيـل أننـى ممكـن أن أحـب مثـل هـذا المعتـوه؟!!

تشبث (كمال أنطون) بيديها أكثر وهو يقول:

- لقـد كـدت أجـن بالفعـل وأنـا أراك تصطحبـين هـذا الحيـوان إلى السـينما ثـم إلى هنـا ..

لم أفهـم شـيئًا وقتهـا وأنـا أراقبكـما تتسـامران فى نفـس المـكان الـذى شـهد عـلى أول لقاءاتنـا ومولـد حبنـا .. ولم يهـدأ قلبـى إلا حـين قابلتنـى وشرحـت لى كل شـئ ولكـن ظلـت بداخـلى غصـة وأنـا أراك تسـيرين بجانبـه وهـو يحتضـن كفـك بيـده.

قالت له فى إخلاص:

- ليس فى قلبى سواك يا (كمال) فأطمئن.

- وإلى متى ستبقين على هذا الوضع؟

أجابته (مادلين) فى ثقة:

- لـن أبقـى فيـه لحظـة واحـدة بعـد الآن .. لقـد أنهيـت الأمـر مـع والـدى وعليـه هـو أن يبحـث عـن بديـل مناسـب.

نظر لها نظرة عشق قائلًا:

- أحبك يا (مادلين).

- أحبك يا (كمال).

وأستمرت جلستهما طويلًا فى وقت كان فيه (جابر) يحدق وحيدًا فى البحر الثائر وموجه المتلاطم..

ويفكر.

*****

الفصل الثالث عشر

تقلصت ملامحه بشكل كبير وهو يشعر ولأول مرة بالضياع والعجز يدب فى كيانه كمن تلقى صفعة زلزلت ما تبقى من رجولته بعد صفعة (مادلين) الأولى التى هزت أركان صرح كرامته .. لم يكد يستفيق منها حتى تأتيه الثانية لتنسفه نسفًا..

هذه المرة كانت الصفعة مع (درية) التى أستقبلته فى منزلها بكل اللهفة والشوق فلم يكد يغلق الباب خلفه حتى أرتمت بين ذراعيه تغمره بقبلاتها وهى تتحسس كل جزء من جسده بيديها كأم تطمئن على وليدها من أى مكروه قد يصيبه.

لم تكن تدرى لحظتها أنه مجروح جرح غائر عميق لا ينفع معه تضميد أو علاج .. جرح وأن كان غير ظاهر إلا أن وقعه كان أشد قسوة .. جرح شق قلبه بلا شفقة ولا رحمة أدمى فؤاده وصفى دمه .. جرح تركه مجرد جبلة خارجية .. كيان من لحم ودم دون روح يحركه فقط وازع الأنتقام.

تركها تحتفى به كما حلا لها .. تركها تعبث بجسده وتغمره بعاطفتها التى تخفى خلفها رغبة مشبوبة تحرقها حتى قادته إلى

حيث تريده .. إلى غرفة نومها وهناك تلاقا وهناك أيضًا علم أنه على غير ما يرام .. لم يفقد بعد الرغبة فى (درية) هذه حقيقة لابد وأن يؤكدها لنفسه إلا أنه لم يستطع أن يكون كما أعتادت منه أن يكونه .. أحس بالعجز من أول لحظة أعتلاها على السرير .. عجز سخيف سيطر على عقله وعلى جسده .. عجز صدع بنيانه وزلزل كيانه خاصة مع تشتت عقله ولقد أحست (درية) بغريزتها الأنثوية أنه ليس على ما يرام .. فحاولت أستثارته قدر إمكانها لتساعده لكن دون جدوى.

كان كالميت الذى لا يُجدى معه إنعاش وهو أيضًا حاول قدر أستطاعته لكن عقله خذله قبل جسده .. كانت صدمته فى (مادلين) لازالت فى أوجها إلا أن هذا لم يكن السبب الوحيد وربما لم يكن السبب على الإطلاق فالحقيقة أنه ومنذ أن دخل معها إلى هذه الغرفة وهو يراهم حوله فى كل مكان .. يرى نفسه صبيًا صغيرًا شلته الصدمة وألجمه الرعب فى مكانه ويرى أبتسامة التشفى وهى ترتسم على شفاه أمه وعمه وصوتهما يتردد فى أذنه عاليًا يكاد يصيبه بالصمم ..

- يجب أن تموت كما متنا نحن ..

ومع الوقت وتكرار المحاولة والضغط النفسى الذى يعانيه والعرق البارد الذى غمره رغم برودة الجو .. أستسلم جسده تمامًا .. فأنزاح عن (درية) وهو يحمل أحساس فظيع بالعجز والمهانة .. أحساس جعله يكره نفسه ويكره (درية) ويكره تواجده فى هذا المكان.

نهض على عجل يرتدى ملابسه والعرق لازال يلتمع على جسده

ومـن خلفـه نهضـت (دريـة) وقـد جعلهـا عجـزه والرغبـة التـى لازالـت تضطـرم فى جسـدها والتـى عجـز هـو عـن أطفـاء لهيبهـا عصبيـة ربمـا أكـثر منـه فسـارت خلفـه لتسـأله فى حـدة:

- ماذا بك اليوم؟

أجابها وهو يهرب بعينه بعيدًا عن نظراتها:

- لا شئ أنه مجرد إجهاد.

صاحت هى فى أستنكار غاضب:

- إجهـاد .. أم أنـك فجـأة فقـدت الرغبـة فى أن تكـون معـى أو ربمـا كانـت هنـاك أخـرى.

حاول أن يضبط أعصابه قدر أستطاعته وهو يرد قائلًا:

- كفى عن هذا الكلام الفارغ.

جذبتـه مـن يـده فى عنـف لتديـره ناحيتهـا وصوتهـا يتعـالى أكـثر وهـى تهتـف:

- ليس كلامًا فارغًا .. أم تظننى لا أعلم عنك وأبنة الخواجة.

أدهشه علمها بعلاقته مع (مادلين) إلا أنه قال فى مقت:

- اللعنـة عليهـا وعليـه .. لا تذكريهـما أمامـى مـرة أخـرى وإلا لـن تريـنى مجـددًا مفهوم.

قالهـا وأتجـه ناحيـة البـاب ليخـرج إلا أنهـا سـعت خلفـه وجذبتـه مجـددًا وهـى تـصرخ وقـد فقـدت أعصابهـا تمامًـا:

- لن تخرج من هنا إلا بأمرى أنا.

دفعهـا بيـده بمنتهـى القـوة لتصطـدم بالكـرسى خلفهـا وتسـقط أرضًـا وهـو يـصرخ فيهـا بغضـب:

- أبتعدى عنى.

نهضت من سقطتها وقد تحول غضبها إلى سخرية لاذعة وهى تقول:

- الآن تتصنع الرجولة وتدفعنى! .. أين كانت رجولتك بالداخل أيها الحقير وأنت عاجز لا نفع فيك .. أنت عاجز .. عاجز .. عاجز.

لم يدر بنفسه إلا وهو يرفع يده ويهوى بها على وجهها بمنتهى القوة فى صفعة ألجمتها وهو يهتف:

- أخرسى أيتها القذرة.

أتسعت عينا (درية) فى ذهول وهى تتحسس موضع الصفعة التى نزلت على وجهها قبل أن تتحول إلى لبؤة شرسة ففقدت أدنى قدر من التعقل وأطلقت العنان لشراستها وهى تندفع نحوه لتضربه بكلتا يديها على صدره وتصفعه على وجهه وهى تصرخ فى هياج وحشى:

- تضربنى أنا أيها الحقير .. تضرب سيدتك أيها الكلب .. أنا قذرة يا حثالة البشر بعد كل ما فعلته من أجلك.

أمسك يديها بكلتا يديه وقد تحجرت عيناه من فرط الغضب وقال من بين أسنانه:

- أنت لم تفعلى شيئاً من أجلى .. أتفهميننى؟ .. أنت سعيت لمتعتك القذرة فقط.

ثم دفعها بعيدًا عنه قبل أن يُكمل قائلًا:

- من الآن أبتعدى عن طريقى للأبد.

قالها وغادر المنزل وهو يصفق الباب خلفه فى قوة ومن خلف

الباب سمع صرخاتها الغاضبة:

- ستدفع الثمن يا (محمود) .. ستدفع الثمن.

وكم كانت صادقة .. صادقة تمامًا.

*****

مَن فى الحى بأكمله لا يعرف من هو (سليم فتوح) .. أن وجوده فى الحى كالقدر المحتوم فلا فكاك منه ولا سبيل لمعارضته .. أحيانًا تراه يسير فى خيلاء مرتديًا زيه الرسمى يتلقى التحيات التى يشيعه بها كل من يراه متهيبًا فى فتور ويردها فى تعالى وأحيانًا أخرى تجده فى مقهى (شعبان جودة) جالسًا على مقعده الأثير الذى لا يغيره أبدًا ويُحكى أن لهذا المقعد قصة حين حاول أحد شباب الحى تحدى سلطة (سليم) وجبروته فتعمد أن يجلس على مقعده فى ميعاد حضوره للمقهى ورغم تحذير الكثيرين له من مغبة ذلك إلا أنه أصر على التحدى وأن يكمل الشوط الذى بدأه للنهاية وبالفعل أنتظر الجميع فى ترقب ميعاد وصول (سليم فتوح) وأحتبست الأنفاس حين ظهر الأخير على أول الشارع قادمًا ناحيتهم وبنظرة ذئب خبير يعرف قوانين التحرش وقواعده لمح نظرة التحدى فى عين الشاب الجالس مكانه وإن كان هذا الشاب يُبدى اللامبالاة ويتصنع البراءة فأفتر ثغر (سليم) عن إبتسامة ذئبية قاسية وتجاهل الموقف برمته وسط ذهول رواد المقهى بأكمله حتى (شعبان) الذى كان يبسمل ويحوقل ويدعو الله فى سره أن تمر الليلة على خير .. وأختار مقعدًا آخر ليجلس عليه وكأن

شيئاً لم يكن .. بل تعمد أن يتحدث مع الموجودين دون أن يُبدى أى ضيق مما حدث حتى ظن الكثيرين أن الأمور قد سارت على خير ما يرام وأن خوفهم وهيبتهم من (سليم) كانت ضربًا من المبالغة وجبنًا لا داعى له لكن ما حدث بعد ذلك أكد لهم كم هم واهمون وأن (سليم) لا يغفر ولا يرحم من يتحداه ففى نفس الليلة وبدون سابق أنذار أقتحم مجموعة من المخبرين مسكن الشاب وساقوه أمامهم بحيث يراه كل أهالى المنطقة وهو يتلقى الصفع والركل والسباب بأقذع الألفاظ حتى وصل إلى نقطة الشرطة وهناك تأكد الفتى أن ما حدث معه طوال الطريق كان مجرد بداية .. بداية لهول آخر أشرف عليه (سليم) بنفسه على مدى أيام متعاقبة قبل أن يُطلق سراحه وقد أصبح كالخرقة البالية ليكون عبره لمن يعتبر ورسالة لمن قد يتجرأ بعد ذلك على تحدى سلطة (سليم) فى حيه .. ومن ساعتها لم يُشاهد هذا الشاب على المقهى مرة أخرى بل أنه غادر الحى بأكمله تشيعه نظرات الأسف والحسرة على ما آل إليه حاله ومن ضمنها نظرة أحتقار رماه بها (سليم) وهو جالس فى مكانه المعتاد على مقعده الأثير.

هذا كان الوضع وتلك كانت الظروف حين تعرف به (جابر) لأول مرة .. فى البداية حاول (جابر) تجنبه والإبتعاد عنه قدر الإمكان خوفًا من أن يكشف بعينه الثاقبة ما يخفيه من أسرار .. لكن مع شخص مثل (سليم) لا تستطيع الهرب طويلًا حتى لو حاولت .. كانت عيناه تتابعان (جابر) داخل المقهى وكأنما يسبر أغواره ويقرأ ما بداخله فأتبع (جابر) سياسة أخرى وهى سياسة التقرب خاصة

مع النصيحة التى تلقاها من عم (سعيد) ذلك المحصل العجوز الطيب حين قال له:

- أياك أن تثير غضب (سليم) أو تحاول معاداته .. كن معه خير من أن تكون ضده .. فأعمل على كسب صداقته لتأمن شره خاصة وأنت فى ظروف لا تحتاج فيها إلى لفت الأنتباه حولك.

تلك كانت نصيحة العجوز وتلك أصبحت سياسته الجديدة فصار يرحب ب(سليم) كلما أتى إلى المقهى كضيف فوق العادة فيسرع ناحيته وهو يلهج بعبارات الترحيب ويُعدّل من وضع المقعد الخاص به ويُسرع فى تنفيذ طلباته قبل أى طلبات أخرى ثم يُعاود المرور عليه كل فترة ليرى إن كان يريد شيئًا آخر .. كل هذا فعله (جابر) على مضض ليرضى (سليم) عنه ويُخرجه من حساباته بل ويضمه إلى خانة الأصدقاء .. لكن مع ذئب مثل (سليم) لم يكن من الممكن أن تنطلى عليه هذه الخدع بسهولة .. صحيح أن معاملة (جابر) الخاصة والمميزة له كانت تثير داخله نوازع الغرور وأمارات العظمة إلا أنها لم تمنعه من أن يتشكك فيه ويسعى لمعرفة ماضيه وما يخفيه.

هكذا كان (سليم) وهكذا كان أسلوب تعامله مع أبناء حيه .. كان يكره الغموض ويكره أن يبقى شيئًا مهما كان صغيرًا ومهما بدا تافهًا خافيًا عنه وهو بذلك يطبق ما تعلمه ممن سبقوه وهو أن أكثر ما يكسر شوكة الأنسان ويذل ناصيته ويحنى هامته هو أخطاؤه وما يسعى لإخفاءه حتى عن أقرب الناس إليه ومع المعرفة يزيد النفوذ وتتضخم السلطة .. هذا ما تعلمه وهذا ما

طبقه طوال حياته .. فمعرفته بأسرار وخبايا الناس من حوله تشعره بحالة لا تصدق من الأنتشاء وكأنه بذلك قد صار ملكًا متوجًا على الجميع وسيفًا مسلطًا على الرقاب ويستطيع بكلمة واحدة يُلقيها للشخص الماثل أمامه أن يجعله يخفض رأسه ويكسر عينه وتتحقق له السيادة المطلقة.

غير أن هذه الهالة وتلك السلطة المطلقة لم تكن تتجاوز أسوار الحى قط ف(سليم) على غير ما قد يتوقع البعض لم يكن ذو شأن كبير ولا له منصب سيادى يرجف الأوصال بل فى الحقيقة هو مجرد أحد معاونى الشرطة القدامى الذين عركتهم الحياة .. بالإضافة لطبيعته الماكرة وشخصيته القوية .. فصارت له سطوة هائلة وعلاقات مع مختلف الفئات .. حرص هو على الحفاظ عليها وزيادتها بالكلام المعسول تارة .. وبالقسوة والعنف تارة أخرى .. فهو بذلك يتبع سياسة الترغيب والترهيب القديمة قدم الدهر ولكنه أستقاها بفطرته دون قراءة أو دراسة فأصبح ذو شأن ومكانة بين زملاءه وبين أهالى منطقته لذلك لم يكن من السهل أن يُخدع فى شاب مثل (جابر) أتى غريبًا وبقى غريبًا لا أحد يعرف له أهل ولا منشأ ولا ماضى.

كان (جابر) يشعر منذ أن رأى (سليم) لأول مرة أن قصة كبيرة ستجمع بينهما وأن القدر لابد وأنه يخبئ للأثنين ما لا يخطر لهما على بال .. شعور بالنفور وعدم الأرتياح كان يجتاحه كلما شاهد (سليم) قادمًا ناحية المقهى خاصة مع تلك النظرة الماكرة التى يتطلع بها لكل من حوله وكأنه ثعلب عجوز .. ثعلب قادر على

أن يقـرأ مـا بداخـل طيـات العقـل ومـا يقبـع خلـف الصـدور .. وفى حالـة مثـل حالـة (جابـر) لديـه فى الخفـاء أكـثر مـما لديـه فى العلـن كان (سـليم) يشـكل خطـرًا بالغًـا .. خطـر لابـد مـن التعامـل معـه بحـرص أو إزاحتـه عـن الطريـق مهـما كان الثمـن.

كانـت كل هـذه الأفـكار تتصـارع داخـل عقـل الأثنـين دون أى بـادرة مـن الطرفـين لتطبيـق هـذه الأفـكار عـلى أرض الواقـع إلى أن جـاء يـوم .. يـوم تكاثفـت فيـه السـحب بشـكل غـير مسـبوق فأظلمـت الدنيـا كقلـب الكافـر ورعـدت السـماء منـذرة بالويـل حـين شـاهد (جابـر) أثنـاء سـيره عائـدًا إلى داره أثنـين مـن المخبريـن يترقبانـه عـلى ناصيـة شـارعه فأبطـأ خطواتـه وهـو يسـتدير بحـذر عائـدًا مـن مـكان مـا أتى ليفاجـأ بإثنـين آخـران يقطعـان عليـه طريـق العـودة .. عندهـا تأكـد أن أمـره قـد كشـف وأن ماضيـه المسـتتر قـد تـم فضحـه عـلى يـد (سـليم فتـوح) وزبانيتـه إلا أن هـذا لم يجعلـه يسـلم نفسـه لقمـة سـائغة لهؤلاء بـل عـلى العكـس زادت حـدة شراسـته إلى درجـة غـير مسـبوقة .. زادتـه قـوة لم يعهدهـا فى نفسـه .. بـل لم يتخيـل حتـى أن تكـون لديـه فألتحـم معهـم فى صراع ميثاقـه العنـف والـدم فجـرح منهـم مـن جـرح وتلقـى منهـم الضربـات الموجعـة بصـبر وثبـات حتـى زادت حـدة الوجـع عـما قـد يحتمـل فسـقط بينهـم متألمًـا وقـد نزفـت دمـاؤه فحملـوه حمـلًا إلى سـيارة كانـت تنتظرهـم وسـاقوه كالذبيحـة إلى جزارهـا.

كان الجـزار فى هـذه اللحظـة هـو (سـليم فتـوح) الـذى أول مـا رآه أمامـه حتـى أبتسـم فى بـطء أبتسـامته القاسـية المعهـودة .. جالسًـا خلـف مكتبـه عـلى مقعـده كسـلطان عـلى عـرش لا يتزحـزح يأمـر

فيطاع ومن حوله رجاله ينتظرون منه إشارة واحدة ليبدأ الأحتفال ويحظون بكل المرح إلا أن الأخير لم يعطهم الأشارة وكأنه بخبرته يزيد أشتياقهم للحظة كمن يجوع الذئاب لتزداد شراستها فى الفتك بفريستها بل على العكس من ذلك بدا (سليم) هادئاً لدرجة كبيرة وهو يميل بجذعه للأمام مشبكًا أصابع كفيه أمام وجهه وهو يقول بصوت خرج منه باردًا كالثلج:

- طبعاً أنت تعلم لماذا أحضرناك إلى هنا.

تصنع (جابر) الجهل وإن بدت نظرة المقت جلية فى عينيه وهو يقول:

- وكيف لى أن أعلم فرجالك لم يفعلوا شيئًا سوى أن يهاجموننى.

طقطق (سليم) بفمه فى أسف مصطنع وهو ينظر لرجاله معاتبًا:

- ألم أقل لكم أيها الأغبياء أن تصطحبوا (محمود) باشا إلى هنا فى أدب وتكرموا وفادته كأحد كبار الزوار.

ثم خبط على سطح مكتبه مكملًا:

- هل يشرفنا فى القسم شخص مهم مثله كل يوم.

ونظر إلى (جابر) قائلًا:

- أعذرنى على هذا الخطأ غير المقصود ولكنهم ظنوا بالخطأ أنى غاضب عليك فهم يحبوننى كثيراً هنا كما ترى.

- لماذا أنا هنا؟

سأل (جابر) فى حذر منتظرًا الأجابة لتجاوبه أبتسامة ساخرة على وجه (سليم) الذى هز رأسه فى أسف وهو يقول:

- لقد أغضبتنى كثيراً أيها الفتى .. حقًا أغضبتنى.

لم يكن قد أكمل جملته بعد حتى أنهال الضرب عليه من كل المحيطين به وكأنهم كانوا ينتظرون هذه الأشارة بفارغ الصبر فتحررت شراستهم المكبوحة من عقالها لتنصب على جسده بكل قوتها وعنفها و(سليم) لايزال جالسًا فى مكانه يتابع ما يحدث وكأنه لا يعنيه من قريب أو من بعيد والأبتسامة الساخرة مرتسمة على وجهه بينما (جابر) يتلقى الضربات والركلات ودماؤه تنزف فى غزارة من جسده ومعها ينزف كبرياؤه وكرامته قبل أن يكفوا عنه ويبتعدوا فى وقت واحد وكأنهم مدربين على هذا أو أن هناك من يحركهم بعصا خفية.

لحظتها نهض السلطان من على عرشه وأقترب منه فى تؤدة ثم أنحنى عليه يتطلع إلى الدماء التى تُغرق وجهه وملامحه التى شوهها الضرب المبرح فتورمت قبل أن يقول بنفس الهدوء:

- أتعلم ما أكثر شئ يضايقنى أيها الفتى؟

لم ينتظر بالطبع أجابة لسؤاله فجاوب هو مكملًا:

- أن ينسى أمثالك منزلتهم ويتخيلون أنهم قد صاروا أندادًا لأسيادهم.

ظهرت أمارات الدهشة على وجه (جابر) المتورم وهو يتساءل من بين أسنانه وبصوت متحشرج:

- لا أفهم.

صرخ (سليم) فى قوة:

- كف عن المراوغة أيها الأحمق وإياك أن تكذب على بعد الآن .. أم تظن أننى لا أعلم ما حدث منك تجاه سيدتك (درية).

ثم أشار بطرف عينه لرجاله فحملوا (جابر) على الوقوف عنوة

قبـل أن يعاجلـه بصفعـة مدويـة عـلى وجهـه وهـو يصيـح قائـلًا:

- هذه من أجل رفع عينك فى وجهها.

وصفعه الثانية وهو يكمل:

- وهذه من أجل محاولتك القذرة معها.

ثـم ركلـه بمنتهـى القـوة أسـفل بطنـه فـكادت عينـاه أن تخرجـا مـن محجريهـما مـن فـرط الألم وهـو ينهـى محاضرتـه قائـلًا:

- وهذه حتى لا ترفع رأسك فى وجه أسيادك مرة أخرى أيها الكلب.

ثم أستعاد هدوءه مرة واحدة وعاد ليجلس خلف مكتبه قائلًا:

- لـولا حكمـة سـيدتك وحسـن تقديرهـا لكانـت أخـبرت زوجهـا (شـعبان) وكنـت أنـت الآن فى عـداد الأمـوات ولكـن حسـنًا فعلـت أنهـا أخبرتنـى أنـا لأعـرف كيـف أؤدبـك.

ثم أشار بسبابته فى وجه (جابر) وهو يقول منذرًا:

- أكرامًـا لخاطرهـا لـن أُلقـى بـك فى السـجن أو أقطـع عيشـك مـن المقهـى ولكنـك سـتخرج مـن هنـا لتجثـو عنـد قدميهـا طالبًـا الصفـح وأقسـم أننـى لـن أرحمـك حتـى تخـبرنى هـى أنهـا قـد سـامحتك .. هـل تفهـم؟

قالهـا فى حـزم غاضـب وأشـار إلى رجالـه ناحيـة البـاب فسـاقوا (جابـر) الـذى تهدم بالكامـل إلى الخـارج فى الوقـت الـذى أشـعل فيـه (سـليم) سـيجارة وهـو يغـوص فى ظهـر مقعـده منتشـيًا .. وينفـث دخـان سـيجارته فى أسـتمتاع .. وبداخلـه يتصاعـد الأحسـاس بالعظمـة وأنـه ملـكًا متوجًـا تحققـت لـه السـيادة ..

والسلطة المطلقة.

*****

الفصل الرابع عشر

أمام باب قسم الشرطة ألقوه كمن يلقون خرقة بالية وعادوا إلى الداخل وكأن شيئًا لم يكن بينما حاول هو أن يلملم شتات نفسه ويجمع بقايا جسده الذى تضعضع من كثرة الضرب وأشلاء كرامته التى تبعثرت على يد (سليم) ورجاله بتوصية خاصة من (درية) .. فتحامل على نفسه وسار مبتعدًا فى بطء وهو يستند على الحائط بكلتا يديه بينما الأمطار لاتزال تنهمر فى غزارة وبين اللحظة والأخرى تشق ألسنة البرق السماء قبل أن يدوى هزيم الرعد .. وكم من مرة سقط على الأرض وعانى للوقوف مجددًا وهو يتعذب من نظرات الناس إليه .. النظرات التى غلب عليها الفضول فى البداية قبل أن تتحول إلى شفقة ألمته أكثر من الآم جسده حتى وصل إلى شاطئ البحر .. المكان الوحيد الذى أصبح ملاذًا يلجأ إليه كلما ناء بحمل ثقيل أقوى من أحتماله فسار مترنحًا حتى لامست قدماه مياه البحر الباردة وتوغل فيها بكامل ملابسه التى لوثتها الدماء ثم ألقى بحمل جسده كله داخل مياه البحر المالحة وتركها تتغلغل فى جسده .. تكوى جراحه وتدّبل أحزانه وتغمره

ببرودة لم تفلح فى إطفاء نيران قلبه أو تهدئة دماؤه الفائرة داخل عقله .. عقله الذى ظن فى بداية الأمر أن ماضيه قد كُشف وأن ما يحدث له نتيجة لما فعله سابقًا وعليه الآن أن يسدد ثمنه كاملًا .. لكن لم يتخيل ساعتها ولو للحظة واحدة أن الأمر كله بتدبير من (درية) .. تلك الحية الرقطاء التى علمت جيدًا كيف تنتقم وكيف تجبره على أن يحطم كرامته ويحنى هامته.

قالتها له يومها ولم يستمع .. قالت له أنه سيدفع الثمن وهاهو يدفعه .. قالت له أنها سيدته وهاهو (سليم) وزبانيته يأتون اليوم ليؤكدوا له هذا الأمر وبطريقة لا يمكن نسيانها .. كان درسًا أرادوه أن يحفظه ومن أول مرة ولكن لا ...

سيدفعون الثمن .. جميعهم سيدفعون الثمن ..

سيعلمهم هو درسًا قاسيًا ..

درسًا فى الأنتقام ..

ومن بين الأمواج الثائرة وكأنها تشاركه ثورته أنشقت المياه عن رأسه التى رفعها للسماء الممطرة وظل يصرخ ويصرخ ومن خلفه تتردد أصداء صرخاته فى الفضاء الواسع ..

حتى كلت حنجرته .. وبح صوته.

*****

مـع نسـائم الفجـر الأولى وقبـل أن يرحـل الليـل ويسـحب عباءتـه السـوداء الحالكـة عـن الكـون مفسـحًا الطريـق ومانحًـا الفرصـة لضـوء النهـار البهيـج ليمـلأ الدنيـا بنـوره تحركـت (زينـات) ربمـا للمـرة العاشرة هـذه الليلـة ناحيـة النافـذة تتطلـع عبرهـا إلى الشـارع المظلـم الخـالى تمامًـا مـن المـارة وقـد أسـتبد بهـا القلـق وعصفـت الظنـون بقلبهـا فهـذه أول مـرة يتأخـر فيهـا (محمـود) لهـذا الوقـت منـذ أن سـكن لديهـم .. كان دائمًـا يعـود مـع أنتصـاف الليـل ونهايـة عملـه وبعـد أن يغلـق المقهـى لكـن اليـوم كان مختلفًـا ليـس لأنـه تأخـر عـلى غـير عادتـه فقـط بـل لأن قلبهـا كان يُنبؤهـا بـأن هنـاك شـيئًا عـلى غـير مـا يـرام .. سـوء قـد حـاق بـه لا تـدرى كنهـه لكنهـا تستشـعره ومـع أزديـاد قلقهـا وتوترهـا وجـدت نفسـها تطـرح عليهـا هـذا السـؤال ..

ما سر كل هذا القلق والتوتر الذى ينتابها ولماذا؟

صحيـح أن (محمـود) أنسـان شـهم أنقذهـا مـن الأعتـداء بـل وعـرض حياتـه للخطـر مـن أجـل حمايتهـا وصحيـح أنهـا تشـعر بميـل لـه وكأن هنـاك مـا يجذبهـا ناحيتـه لكـن كل هـذا لا يـبرر هـذا القلـق الشـديد الـذى يجـرى فى عروقهـا مجـرى الـدم.

أنها تحبه ..

صدمتهـا الحقيقـة التـى كانـت تحـاول جاهـدة وبـكل قوتهـا نكرانهـا لكـن نفسـها عاندتهـا وخذلتهـا ..

صارحهـا قلبهـا وأمّـن عـلى هـذا عقلهـا .. نعـم هـى تحبـه بـل تحبـه بجنـون رغـم كل غموضـه وعزلتـه هـى تحبـه .. رغـم وحدتـه وفقـره ونظـرة الحـزن فى عينيـه هـى تحبـه ولـن تخفـى هـذه الحقيقـة لحظـة

واحدة بعد الآن .. ستعترف له بكل مشاعرها وستبقى معه للنهاية تشاركه أفراحه وأحزانه .. ستتحمل فقره وضيق حاله رغم أحلامها الكبيرة فى أن يكون رجلها فارسًا ثريًا يحقق لها كل ما تصبو إليه وكل ما حُرمت منه طيلة عمرها لكنها على إستعداد الآن أن تتنازل عن كل هذا لتبقى بجواره تكافح معه ليحققا أحلامهما معًا.

عاهدت نفسها على أن تصارحه بما يجوب فى قلبها عند عودته لكن القدر كان يُخفى لها أكثر مما يحتمل قلبها الغض فهاهى تراه قادمًا ناحية المنزل وهو يسير مترنحًا يكاد يسقط على وجهه .. وبدون أن تشعر وجدت نفسها تندفع خارجة من بيتها تهرول عبر السلالم لتلقاه وهى وجلة .. بل وكتمت صرخة كادت تفلت منها حين طالعته وقد بدا كالأشباح بملامحه المتورمة والكدمات الزرقاء تملأ وجهه بينما ملابسه مبتلة عن آخرها وقد التصقت بجسده فأندفعت نحوه تسنده وتعينه على الدخول إلى غرفته إلا أنه دفعها بمنتهى القوة بعيدًا عنه دون أن ينطق بحرف واحد وأكمل طريقه ليدخل غرفته فى صمت.

لم يكن من الممكن أن تتركه وهو فى هذه الحالة .. كان ما يحركها هو الحب الذى تشعر به نحوه لذلك تغلبت عاطفتها على كبريائها فأندفعت خلفه وهى ملتاعة وقد هالها منظره لتجده جالسًا على حافة سريره وعيناه سارحتان تتطلعان إلى اللاشئ فى وجوم فأقتربت منه وبحذر ربتت على كتفه متسائلة:

- ماذا جرى يا (محمود) ومن فعل بك هذا؟

لم تتلق جوابًا وظل على صمته وجموده كتمثال قدَّ من حجر

فأحست بـالألم يغـزو قلبهـا لأنـه يتـألم بهـذا الشـكل وبحنـان غامـر تجاهـه جعلهـا ترغـب فى أن تأخـذه بـين أحضانهـا ليسـمح لنفسـه ولـو لمـرة بـأن يخـرج لهـا مكنـون صـدره ويبـكى حتـى يفـرغ أنفعالاتـه فيسـتريح وتسـتريح معـه .. ودون أن تشـعر وجـدت نفسـها تجلـس على ركبتيهـا أمامـه وتأخـذ رأسـه بـين راحتيهـا لتضمهـا إلى صدرهـا وتمسـح عـلى شـعره المبتـل فى حنـان وفـاض قلبهـا بالسـعادة حـين شـعرت بـه وهـو يهـدأ ويسـتكين داخـل صدرهـا ويـده ترتفـع لتحيـط بهـا وكأنهـا تتشـبث بهـا فى قـوة فتمتمـت فى خفـوت وقـد تغلبـت عـلى خجلهـا:

- أحبك يا (محمود).

أصطـدم أعترافهـا بجـدار مـن الكراهيـة أحـاط بروحـه .. صديـد يجـرى فى عروقـه مجـرى الـدم ..

قيح لوث كل شئ فيه ..

تلقـى هـو تصريحهـا بقلـب متحجـر وعقـل مغلـق أشـعلته الرغبـة فى الأنتقـام ..

كان صوتهـا يـتردد عـبر أذنيـه بنـبرات أمـه و(مادلـين) و(دريـة) .. صـور متلاحقـة تـتراءى أمـام عينيـه توقـد غضبـه حتـى تـكاد تقتلـه ..

صورة أمه وهى فى أحضان عمه ..

صورة (مادلين) وهى مع حبيبها أمام عينيه ..

صـورة (دريـة) وهـى تـصرخ فى وجهـه أنهـا سـيدته وأنـه لابـد سـيدفع الثمـن.

كلهن سواء .. (نعمة) مثل (مادلين) مثل (درية) مثل ..(زينات).

كلهن سيدفعن الثمن.

ودون أن يشعر وجد يداه تعتصران عنقها ككلابتين من فولاذ وعيناها متسعتان فى ذهول وقد أحتبس الصوت فى حلقها فلم تقدر حتى على الصراخ وهى تحاول التملص من قبضته أو التشبث بأى شئ حولها فى حركات لا إرادية محمومة ولكن دون جدوى فقد كانت يداه ثابتتان كالقدر .. ثقيلتان كالموت .. بينما تطالعها عيناه الميتتين ونظرة البغض التى أحرقته وأحرقتها وأحرقت معهما كل شئ وتدريجيًا غامت الدنيا أمام عينيها وتداخلت الموجودات حولها حتى أظلمت تمامًا.

ظل هو متمسكًا بعنقها يضغط عليها بمنتهى القوة ويكاد يجتثها من جذورها حتى بعد أن أسلمت الروح وهمدت حركتها وتراخى جسدها .. قبل أن يتركها مرة واحدة لتسقط أمامه على الأرض وهو ينظر لها فى ثبات لمدة طويلة .. ثم تراخت أعصابه مرة واحدة فجلس على سريره وغطى وجهه براحتيه .. ودون إرادة منه تفجرت مشاعره كلها وشرع يبكى بكاءًا شديدًا.

لم يكن يبكى على ما أقترفته يداه منذ لحظات بل يبكى طريقه الذى يراه مرسومًا أمامه كأوضح ما يكون .. طريق لابد أن يقطعه حتى آخره رغم أنه يعلم جيدًا ما الذى ينتظره فى نهاية هذا الطريق لكن لم يعد هناك خيار آخر ..

ستكون نهايتهم أو نهايته ..

لن يبقى طوال حياته شريدًا تائهًا يخشى الماضى ..

لم يعد هناك مهرب .. لم يعد هناك مهرب ..

ترددت الجملة داخل أذنيه مرة تلو الأخرى فرددها هو بصوت

مسـموع وكأنـه يؤمـن عليهـا:
- نعم لم يعد هناك مهرب.
ثـم نهـض مـن مكانـه بعـد أن أسـتقر تفكـيره عـلى مـا سـيفعله وقد دب النشـاط فى جسـده مـع خوفـه وتدفـق الأدرينالـين فى دمـاءه فسـحب الجثـة إلى ركـن الغرفـة ثـم سـار بخفـة عـلى أطـراف أصابعـه إلى مدخـل البيـت وتحـت السـلالم المؤديـة إلى الأدوار العليـا بحـث بعينـه حتـى وجـد ضالتـه .. رفـش كبـير بـين عديـد مـن الأدوات المهملـة والتـى كان يسـتخدمها صاحـب البيـت والـد (زينـات) فى البنـاء ثـم ألقيـت فى موضعهـا هـذا منـذ ذلـك الحـين.
ألتقطـه وعـاد إلى غرفتـه وأغلـق البـاب خلفـه بحـرص ثـم فتـح مـزلاج الغرفـة الأخـرى الملحقـة بغرفتـه .. والتـى ظلـت مغلقـة عـلى بعـض الأشـياء القديمـة التـى تحتفـظ بهـا صاحبـة المنـزل منـذ فـترة طويلـة .. كانـت أرضيـة الغرفـة لحسـن حظـه ترابيـة كـما هـى فلـم يحـاول أحـدًا أن يضـع عليهـا طبقـة مـن البـلاط يعـانى هـو مـن إزالتـه وإعادتـه لموضعـه لـذا دفـن الرفـش فى الأرض بمنتهـى القـوة وبـدأ الحفـر.
أسـتمر يحفـر لمـدة سـاعة كاملـة حتـى سـال عرقـه بغـزارة وتصاعـد لهاثـه المجهـد لكنـه عندمـا أنتهـى صنـع حفـرة كبـيرة تناسـب مـا خطـط لـه فخـرج ثـم عـاد وهـو يجـر جثـة (زينـات) ليسـقطها فى الحفـرة الكبـيرة التـى صنعهـا ولم ينـس أن يجردهـا مـن بعـض المصوغـات الذهبيـة التـى كانـت ترتديهـا قبـل أن يُلقـى عليهـا النظـرة الأخـيرة ويُهيـل عليهـا الـتراب مـن جديـد حتـى عـادت الأرضيـة كـما كانـت.
تنفـس الصعـداء فى أرتيـاح بعـد أن أخفـى معـالم جريمتـه .. لم تكـن

جريمته الأولى ولن تكون الأخيرة ويبدو أن القدر لايزال يخبئ له الكثير فهو قد هرب من بلدته ليتناسى جريمة فإذا به يحط الرحال حيث تنتظره جرائم أخرى أشد قسوة .. لم تكن الجريمة جريمته هو بل جريمة كل من ظلمه صغيراً وكبيراً .. جريمة كل من قسا على طفولته وحطم براءته .. جريمة كل من عبث بقلبه ومشاعره .. وهو لن يتسامح بعد الآن سيصرخ فى وجوههم صرخة سيتردد صداها طويلًا ..

صرخة يسمعها الجميع.

*****

لم يمر غياب (زينات) على الجميع مر الكرام .. سادت حالة من التوتر الشديد عقب أختفائها وأمتلأ المنزل عن آخره بنساء الحى اللاتى ظللن يواسين الحاجة (فردوس) ويطمئنونها أن أبنتها بخير وأن (زينات) حتماً عائده وأنه على الأقل لا مكروها أصابها بدليل تركها للمنزل بإختيارها .. وهناك من تساءلت عما إن كان هناك خلاف قد نشب بينهما أو عن رغبتها فى الذهاب لمكان معين لكن الإجابات جاءت كلها بالنفى فحسب رواية الحاجة (فردوس) أنها دخلت لتنام تلك الليلة بينما ظلت (زينات) ساهرة لوقت متأخر وقد بدت متوترة .. حتى أنها سألتها إن كان هناك ما يقلقها فأجابت الأخيرة بالنفى وإن كانت ملامحها تكذب قولها .. ثم هل يُعقل لمن تريد ترك منزلها أن تغادر بدون أن تأخذ كل متعلقاتها وثيابها .. وإلى أين تذهب ومع من وهى منذ وفاة والدها تجلس

مـع أمهـا فى المنـزل لا تـرى أحـدًا ولا أحـد يراهـا.
كانـت الأسـئلة كثـيرة محـيرة حتـى بالنسـبة لرجـال الحـى الذيـن بحثـوا عنهـا فى كل مـكان إكرامًـا لأمهـا ولذكـرى والدهـا ولم يكـن هنـاك بـد فى النهايـة مـن تقديـم بـلاغ فى القسـم عـن إختفائهـا لعـل الشرطـة تُوفـق فيـما عجـزوا هـم عنـه ولكـن دون جـدوى ومـع الوقـت تنـاسى النـاس الأمـر برمتـه وخفـت الزيـارات عـلى المنـزل وأنفـض الجميـع مـن حـول الحاجـة (فـردوس) بإسـتثناء أبنتهـا الكـبرى وبعـض صديقاتهـا وأيضـاً عـم (سـعيد) الـذى ظـل يـتردد عليهـا للأطمئنـان عـلى صحتهـا التـى تدهـورت كثـيرًا بعـد أختفـاء أبنتهـا .. خاصـة مـع الأقاويـل الكثـيرة التـى تناقلتهـا الألسـن عـن هـروب (زينـات) مـع عشـيقها والأشـاعات عـن حملهـا منـه مـما دعاهـا لمغـادرة الحـى حتـى لا يفتضـح أمرهـا.
كل هـذا و(جابـر) ينتظـر ويترقـب .. كان يعلـم جيـدًا أن الأمـر سـيبدأ كعـادة كل الأمـور كبـيرًا ثـم سرعـان مـا يصغـر تدريجيًـا مـع أنشـغال النـاس فى أمـور حياتهـم فينـزوى مـن الذاكـرة حتـى يصبـح طـى النسـيان .. لقـد سـألوا الجميـع عنهـا إلا هـو وكأنـه لا يعيـش معهـم فى ذات المنـزل بـل وكأنـه لم يوجـد مـن الأسـاس وقـد بحثـوا عنهـا فى كل مـكان تقريبًـا بينـما هـى تقبـع أسـفل أرضيـة غرفتـه التـى أصبحـت تعبقهـا رائحـة البخـور القويـة .. البخـور الـذى أعتـاد عـلى إشـعاله مـن فـترة ليطـرد روائـح أخـرى لا يريـد لهـا الظهـور حتـى لا يفتضـح أمـره ومـع مـرور الوقـت عـاد الهـدوء للمـكان مـن جديـد ومعـه بـدأ هـو يفكـر فيـما هـو قـادم مـن أحـداث ومـا سـيحدث معـه هـو تحديـدًا.
كان يتوقـع هـذه اللحظـة وينتظرهـا .. حـين نـاداه (شـعبان) وأخـبره

أن يذهب لشراء بعض الطلبات ويرسلها إلى المنزل علم أن عقابه لم ينتهى بعد وعليه الآن أن يقدم فروض الخضوع والطاعة لسيدته التى أحسنت تأديبه لذلك لم يعترض أو يحاول التملص بل سار فى أستسلام كمن يُساق إلى حتفه وعلى باب المنزل توقف للحظة قبل أن يطرقه ليصل إليه صوت خطواتها تقترب .. حين فتحت له كانت على وجهها أبتسامة ساخرة ونظرة متشفية رمقته بها قبل أن تترك له الباب مفتوحًا وتدخل ليدخل هو وراءها ويغلقه خلفه.

كانت تنتظر هذه اللحظة بشغف كى يكتمل لها نصرها لذلك تأنقت كعروس فى ليلة عرسها فرأها تخلع روبًا أرتدته لحظة أن فتحت الباب ليطالعه جسدها البض وعليه قميص نوم أسود قصير لم يشاهدها به من قبل سارت به أمامه وهى تتمايل فى إغراء لتجلس على مقعد فى حجرة الجلوس واضعة ساقا على ساق مبرزة جمال فخذيها تاركة له الفرصة ليقول ما يفترض به قوله فتقدم هو ناحيتها متسائلًا:

- أمازلت غاضبة منى؟

قبل أن يركع على ركبتيه أمامها وهو يقول بلهجة أرادها أن تخرج منه متخاذلة واهنة:

- أسمعينى جيدًا .. لقد جئت إليك لأقدم أعتذارى وأرجو أن تسامحينى على فعلتى.

نظرت إليه دون أن تنطق فأردف قائلًا:

- صدقينى أنا لم أقصد كل ما قلته .. لقد كنت مستاء مما حدث

لى معك تلك الليلة وكنت ثائرًا فلم أدر ماذا أقول ولم أعى حرفا مما تفوهت به وكل ما أريده الآن أن ننسى كل ما حدث ونبدأ من جديد وأعدك أن نظل سعداء سويًا إلى الأبد.

أقتربت منه بوجهها ثم قالت فى بطء وهى تتعمد الضغط على كل حرف تنطق به ليصل المعنى كاملًا له:

- لا تحاول خداعى يا (محمود) .. لقد جئت اليوم لأنك خائف ولأن الدرس الذى أخذته لم تنساه بعد ثم لا تنكر أنك على علاقة بإبنة الخواجة رغم وعدك أنك ستكون لى.

رد بسرعة:

- أقسم لك أنا لست على علاقة بأحد .. لقد أرادت فقط أن أعمل مع والدها فى الوكالة ولكننى رفضت وتركتها هى ووالدها.

ثم رق صوته قائلًا:

- من أجلك.

أشاحت بوجهها قائلة:

- لا أصدقك.

مال يطبع قبلة على فخذها الناعم ثم تساءل فى خبث:

- وكيف أجعلك تصدقين؟

لاح على ثغرها شبح أبتسامة جعلته يدرك أنه لعب على الوتر الصحيح وأصاب هدفه لديها فتشجع أن ينهض ويجذبها من يدها لتقف فى مواجهته قبل أن يقول معيدًا جملته بصوت خافت:

- كيف أجعلك تصدقين؟

- أثبت لى حبك.

- سأثبته ولكن الآن هناك ما هو أهم.

ثم ضمها إليه أكثر قائلًا:

- أوحشتنى.

نظرت له فى عتاب ثم قالت:

- وأنت أيضًا.

أبتسم وهو يسألها:

- حقاً؟

لم ترد ولكن هزت رأسها إيجابًا وهى تطرق إلى الأرض فقال:

- إذا لنطفئ نار شوقنا.

قالها ثم مال ليحملها بين ذراعيه وسار بها إلى غرفة النوم التى أصبح يمقتها قدر مقته لصاحبتها وهناك قام بدوره على أكمل ما يكون .. دور العاشق المحموم الذى تتأجج بداخله الرغبة تجاه معشوقته وتضطرم فيطفئ لهيبها بين أحضانها .. وبعد أن أنتهى وبعد أن همدت حركتهما إلا من صوت لهاث يتصاعد وعرق غزير يغمرهما قال وهو يتطلع إلى جسدها العارى بجانبه:

- أريد أن أبقى بجوارك للأبد.

أبتسمت فى سعادة وهى تؤمّن على كلامه قائلة:

- كم أتمنى.

قال فى جدية:

- إذا لنحقق ما نتمناه.

نظرت له فى تساؤل فتابع قائلًا فى ضيق:

- إلى متى سنبقى على هذا الوضع .. نلتقى فى الخفاء ونحسب

الدقائـق التـى تجمعنـا معًـا بـل ونخـشى كل يـوم أن يفتضـح أمرنـا .. أى حياة تلـك التـى نحياهـا وأنـت مـع رجـل لا تطيقينـه وأنـا أقـف بعيـدًا أنتظـر .. أنتظـر لحظـة تجمعنـا لا تجـئ أبـدًا.

- وماذا بيدنا لنفعله؟

تسـاءلت (دريـة) فى حنـق فأجابهـا هـو بسرعـة وهـو ينهـض مـن جانبهـا:

- بيدنا الكثير.

عـادت تتسـاءل فى حـذر هـذه المرة وكأنهـا قـرأت مـا يـدور بخلـد (جابـر):

- ماذا تقصد؟

- أقصد ما فهمتيه بالضبط.

قالهـا فى ثقـة جعلتهـا تنظـر لـه بدهشـة كبـيرة وقـد أرتفـع حاجباهـا عاليًـا فتابـع بتصميـم أكـبر قائـلًا:

- نتخلص منه.

قالت فى أستنكار وهى تنهض بدورها لتواجهه:

- هل جننت؟

أجابها فى حدة:

- الجنون أن نبقى على ما نحن فيه.

وأمسكها من كتفيها بقوة وهو يردف قائلًا:

- الجنون أن تظلى بعيدة عنى .. الجنون أن تكونى لغيرى.

قبـل أن يُنهـى تمامًـا عـلى تفكيرهـا ويشـل إرادتهـا ويُوجـه ضربـة قاصمـة إلى مقاومتهـا وهـو يقـول مكمـلًا:

- الجنون أن تتخلى عن حلم الأمومة من أجل رجل كهذا.

ثم أحتواها بين ذراعيه وضمها إليه بقوة قائلًا:

- لن أسمح أن تغيبى عنى لحظة واحدة بعد الآن.

أبتسـمت فى سـعادة مـن كل هـذا الحـب الـذى يغمرهـا بـه .. الحـب الـذى بحثـت عنـه طويـلًا وأخـيرًا وجدتـه بعـد سـنوات مـن الوحـدة .. ينابيـع تفجـرت داخـل قلبهـا وجـرت فى شرايينهـا لـتروى جفـاف وقحـط أيامهـا .. كلماتـه كانـت لهـا مفعـول السـحر .. كلماتـه عـن أمومتهـا المفقـودة وحرارتـه وهـو ينطـق بـكل حـرف جعلتهـا تحـس إحسـاس مختلـف تمامًـا .. أحسـاس جعلهـا تقـول لا شـعوريًا وكأنهـا مسـلوبة الإرادة بالكامـل:

- سأظل معك للأبد وسأفعل كل ما تطلبه.

رفع وجهها ليحدق مباشرة فى عينيها قائلًا:

- أنـا مـن سـيفعل لكـن عليـك أن تنفـذى مـا سـأقوله لـك بمنتهـى الدقـة.

أومـأت برأسـها موافقـة فأحتواهـا مجـددًا بـين ذراعيـه وقـد أرتسـمت عـلى وجهـه أبتسـامة واثقـة ..

ومـن عينيـه أطلـت نظـرة أرتيـاح فمخططـه يسـير تمامًـا كـما أراد لـه .. وقريبًـا سـيحين وقـت الحسـاب ..

ويدفع الكل الثمن.

*****

الفصل الخامس عشر

فى آخر الليل وبعد أن أنهى عمله .. يسير (جابر) وحيدًا عائدًا إلى مسكنه وقد خيم الظلام وخفت الحركة فى الشوارع مع سوء حالة الجو والبرد الشديد الذى سرى بداخله لينخر فى عظامه قبل أن يبدأ المطر فى التساقط بغزارة فى الوقت الذى كان يعبر فيه شريط السكة الحديد المواجة لمنزله إختصارًا للمسافة فمضى فى طريقه يرمق عربات القطارات المظلمة الساكنة فى منطقة تخزينها التى يطلق عليها منطقة المناورات كوحوش غافية تنتظر لحظة الإستيقاظ لتزأر فى صخب.

حين إقترب من المنزل أستقبلته الصرخات المندلعة من داخله فأندفع إلى الداخل بسرعة وأعتلى درجات السلم عدوًا لتقابله الفتاة الصغيرة (أنتصار) أبنة المريضة وهى تبكى فسألها:

- ما كل هذا الصراخ؟

أجابته من بين دموعها:

- أمى تتألم بشدة.

تركها مكانها ودخل إلى حيث قابلته الحاجة (فردوس) التى ما أن رأته حتى هتفت فى لهفة:

- حمدًا لله .. لقد جئت فى الوقت المناسب.

- ما الأمر؟

سألها فأجابت وهى تناوله ورقة مطوية قائلة:

- أذهب بسرعة إلى الصيدلية الكبيرة فى الشارع الرئيسى ستجدها لازالت ساهرة وأطلب من الصيدلى هذا الدواء بسرعة كى ..

قاطعها وهو يلتقط منها الروشتة قائلًا:

- أعلم .. أعلم .. فقد أخبرتنى عنها (زينا ..

بتر عبارته بسرعة خاصة مع الأمتقاع الشديد الذى صبغ وجه الحاجة (فردوس) حين ذكر أسم ابنتها المفقودة فتلعثم للحظة قبل أن يقول وهو يهرب بعينه بعيدًا عن وجهها:

- سأذهب حالًا.

قطع المسافة بين المنزل والشارع الرئيسى فى خطوات سريعة حتى وصل إلى صيدلية الحياة .. أكبر صيدليات المنطقة والتى أعتادت أن تظل ساهرة لساعات متأخرة من الليل وفى رأسه كانت تختمر فكرة شيطانية ..

ها هى فائدة أخرى تعود عليه من قتله ل(زينات) ..

نعم كان لابد ل(زينات) أن تموت وإلا فمن أين كان سيتحصل على مراده ..

ما أن دخل حتى أستقبله الصيدلى العجوز ذو الشعر الأشيب قائلًا:

- خيرًا.

أخرج (جابر) الروشتة المطوية من داخل جيبه بحرص وفردها أمام الصيدلى متسائلًا:

- هل لديك هذا الدواء؟

وضـع الصيـدلى العجـوز نظارتـه الطبيـة فـوق عينيـه وقـرب وجهـه مـن الروشـتة ليقـرأ أسـم الـدواء وأسـم المريضـة المـدون عليهـا قبـل أن يُجيـب قائـلًا:

- بالطبع لدى .. أننى أحضره بإستمرار للحاجة (سميحة).

ثم نظر إلى (جابر) فى إستغراب متسائلًا:

- ولكن من أنت؟! .. هذه أول مرة أراك فيها؟

- أننى أسكن معهم فى ذات البيت وأسمى (محمود).

تهللت أسارير الصيدلى وهو يقول معتذرًا:

- سـامحنى يـا (محمـود) فقـد أعتـدت أن تـأتى إلى أبنتهـا الصغـيرة (أنتصـار) أو لـو كانـت الأجـواء مثـل هـذه أو الوقـت متأخـر كانـت تـأتى إلى (زينـات) أبنـة الحاجـة (فـردوس) صاحبـة البيـت.

ثم أستدار ليحضر المخدر من على أحد الأرفف مكملًا:

- على العموم لقد تشرفت بمعرفتك.

ناولـه قنينـة صغـيرة تحـوى المخـدر المطلـوب فنقـده (جابـر) ثمنهـا وأسـتدار ليخـرج مـن الصيدليـة قبـل أن يتوقـف للحظـة ويعـود إليـه متسـائلًا:

- ألا توجـد طريقـة أخـرى لإعطـاء هـذا المخـدر سـوى عـن طريـق الحقـن فالحاجـة (سـميحة) قـد كلَّـت مـن كـثرة الأبـر التـى نحقنهـا بهـا.

أبتسم الصيدلى وهو يُجيبه قائلًا:

- مـن الممكـن بالطبـع أن يُوضـع المخـدر فى أى شـئ لتشربـه ولكـن

سيكون مفعوله أبطأ فالحقن أسرع وسيلة للتخدير لأنه يسرى فى الدم مباشرة.

شكره (جابر) على المعلومة وأستدار ليعود أدراجه إلى المنزل وعلى وجهه أرتسمت أبتسامة ظفر واسعة فما أكده له الصيدلى سيخدمه بكل تأكيد فى تنفيذ مخططه وربما سيسهل عليه الأمور كثيرًا .. عليه فقط أن يُحسن التدبير وأن يختار الوقت المناسب ليضرب ضربته .. وعليه قبل ذلك كله أن يتأكد من مفعول هذا المخدر.

عرج على غرفته فأفرغ كمية صغيرة من المخدر فى كوب صغير لديه قبل أن يصعد إلى الطابق الأعلى ليعطى قنينة المخدر للحاجة (فردوس) التى تناولتها منه بسرعة وذهبت لتعد الحقنة لنجدة المريضة التى كانت لاتزال تصرخ من شدة الألم ويبدو أنها فى غمار لهفتها قد نسيت أسترجاع الروشتة الطبية التى أحتفظ بها (جابر) فى جيبه والذى تعمد هو الآخر ألا يلفت نظرها إليها ثم أنسحب فى هدوء عائدًا إلى غرفته.

أغلق الباب خلفه فى إحكام وبدَّل ملابسه ولم ينس أشعال كمية من البخور لتبديد الرائحة التى بات يحرص على إخفاءها .. ثم أعد لنفسه كوب من الشاى بعد أن أضاف إليه كمية المخدر التى أستبقاها لنفسه وشربه على عجل ثم فرد جسده على سريره الصغير وطفق ينتظر ..

لم يدر كيف ولا متى غاب عنه وعيه .. لقد أحس به ينسحب تدريجيًا قبل أن يتلاشى تماماً وفجأة وجد نفسه هناك .. فى بيته

القديـم.
كان يقـف مذعـورًا عـلى بـاب غرفـة أبيـه الـذى بـدا مريضًـا بشـدة وعـلى طـرف الفـراش يجلـس عمـه وكأنـه يسـاند بمنتهـى العطـف والحـب أخـاه فى مرضـه ورأى أمـه تُشـعل مزيـدًا مـن البخـور الـذى تسـللت رائحتـه الذكيـة إلى أنفـه وهـو واقـف فى مكانـه وهـى تعد شـيئًا مـا لأبيـه ليشربـه ورآهـا تضيـف شـيئًا آخـر مـن قنينـة صغـيرة تشـبه القنينـة التـى حمـل هـو فيهـا المخـدر مـن الصيدليـة وتضـع الكـوب عـلى صينيـة صغـيرة وتدخـل بهـا إلى والـده الـذى تحامـل عـلى نفسـه كى يعتـدل فى سريـره وهـى تناولـه الكـوب وتحـرص عـلى أن يشربـه كامـلًا.
أراد أن يـصرخ ويحـذر أبـاه مـن مغبـة شرب هـذا الشـئ .. أراد أن يطيـح بـه مـن يـده قبـل أن يشربـه وأن يخـبره عـن خيانـة زوجتـه وأخيـه ومخططهـم للخـلاص منـه لكـن الصرخـة أحتبسـت فى حلقـه فلم تخـرج ولم يسـمعها أحـد غيره .. ثـوان وبـدأ المخـدر عملـه ورأى والـده يغيـب عـن وعيـه ورأسـه تميـل عـلى وسـادته وقـد فقـد الأحسـاس بـكل مـا حولـه .. ورأى أيضـاً إبتسـامة الظفـر الواسـعة التـى أرتسـمت عـلى وجـه كل مـن أمـه وعمـه والأخـير يوجـه نظرتـه الحاقـدة إليـه وهـو لايـزال واقفًـا فى مكانـه بجـوار البـاب ثـم بصـوت حمـل كل المقـت قـال:
- هيا ساعدنا لندفنه.
أتسعت عيناه فى ذعر وخرج صوته ضعيفًا مبحوحًا وهو يقول:
- لكنه لم يمت.
نطقهـا فأرتطمـت عينـاه بزوجـين مـن الأعـين تحمـلان نظـرات غاضبـة

كارهـة وعمـه يـرد قائـلًا:

- سندفنه حيًا.

صاح فى وجل:

- لا .. هذا لن يكون .. لن يكون.

صرخ عمه فى وجهه بشراسة قائلًا:

- أخرس.

ثم أكمل بنفس النبرة قائلًا:

- نفذ ما أمرتك به أو ندفنك معه.

أنسـابت دموعـه مـن عينيـه لتغـرق وجهـه الصغـير .. دمـوع القهـر والعجـز اللـذان لازمـاه طـوال حياتـه وبخطـى بطيئـة سـار ناحيتهـم وهـو يلعـن نفسـه مـع كل خطـوة يخطوهـا ثـم تعـاون ثلاثتهـم عـلى حمـل جسـد والـده الغائـب عـن وعيـه تمامًـا وسـاروا بـه إلى سـاحة الـدار التـى حـوت حفـرة كبـيرة أعدوهـا خصيصًـا لهـذا الغـرض وهمـوا بإلقـاءه بداخلهـا ولكـن فجـأة أتسـعت عينـا والـده عـن آخرهـا وأمتدت يـده لتمسـك (جابـر) مـن تلابيـب جلبابـه وهـو يشـهق فى قـوة ..

ومعـه شـهق (جابـر) .. شـهق وهـو ينهـض مـن فراشـه مذعـورًا ليجـد نفسـه فى غرفتـه التـى سـادها الظـلام .. ورائحـة البخـور الـذى أشـعله .. والتـى صاحبتـه فى كابوسـه الرهيـب لازالـت تفعـم أنفاسـه فمـد يـده يمسـح وجهـه الغـارق فى دموعـه .. الـذى أكتشـف أنـه ذرفهـا أثنـاء نومه وأنخـرط فى بـكاء حـار بعـد أن أعـاد لـه الكابـوس كل ذكرياتـه المريعـة التـى عاشـها دفعـة واحـدة .. بـل لقـد زاد الكابـوس مـن همومـه همًـا عـلى هـم وأنتقـى لـه مشـهدًا أشـد قسـوة مـن واقعـه .. مشـهد أعـاد

لـه كل ذكرياتـه التـى جاهـد لـكى ينسـاها ومـن ضمنهـا ذكـرى ضعفـه وتخاذلـه اللـذان يجثـمان عـلى صـدره كحجـر صـوان لم يفلـح أنتقامـه فى أن يزيحـه مـن عـلى كاهلـه حتـى الآن.
لكنـه بعـد أن هـدأت نفسـه .. وبعـد أن كـرر قسـمه فى داخلـه .. وعاهد نفسـه مجـددًا عـلى أن ينتقـم مـن كل خائـن وخائنـة وأن يزيحهـم مـن عـلى وجـه الأرض ..
وجدت الأبتسامة طريقها إلى شفتيه ..
أبتسامة كانت تحمل له ولكل من حوله الكثير.

*****

أبتسـم (جابـر) أبتسـامة رسـمية طبعهـا عـلى وجهـه لحظـة لقـاءه مـع (مادلـين) التـى نزعـت مـن عـلى وجههـا غطـاء التصنـع فكشـفت عـن وجـه آخـر لا مـكان فيـه للعاطفـة أو التـودد وكأنهـا قـد حسـمت أمرهـا نهائيًـا بالإبتعـاد عـن (جابـر) حتـى لـو أدى ذلـك لإفسـاد أعـمال والدهـا .. الـذى سـعى بشـتى الطـرق إثنـاءهـا عـن قرارهـا هـذا دون جـدوى.
كان اللقـاء عـلى بـاب الوكالـة حيـث قابلهـا أثنـاء خروجهـا مـن هنـاك .. كتـم بداخلـه مشـاعر البغـض التـى تملكتـه عنـد مرآهـا وقـد خُيـل إليـه فى البدايـة أن يندفـع نحوهـا ليعتـصر رقبتهـا الجميلـة بـين يديـه ويشـاهدها ترتجـف ذعـرًا وألمًـا وهـى تنـزف حياتهـا لآخـر قطـرة لكنـه وارى خواطـره خلـف قنـاع مـن الهـدوء وهـو يرسـم تلـك الأبتسـامة عـلى وجهـه ويقـول:
- (مادلين) .. كيف حالك؟

أجابته (مادلين) التى بدت غير سعيدة لرؤيته:

- بخير حال يا (محمود).

ثم همت بالإنصراف على عجل وهى تغمغم:

- والدى ينتظرك بالداخل.

أستوقفها قائلًا:

- (مادلين) أريد أن أتحدث معك.

- ليس الآن يا (محمود) .. ربما فى وقت آخر.

همت بالإنصراف مجددًا لكنه أمسك يدها ليستبقيها قائلًا:

- تغيرت كثيرًا يا (مادلين) .. ماذا فعلت لتعاملينى بهذه الطريقة؟

أشاحت بوجهها بعيدًا فى ضجر وهى تُجيب:

- لا شئ يا (محمود) .. لا شئ.

- إذا لماذا تغيرت معاملتك لى بهذا الشكل؟

هنا فقدت كل قدرة لها على الصبر وهى تجذب يدها من يده فى عنف قائلة:

- أسمعنى جيدًا يا (محمود) قد يكون كلامى عسير الفهم عليك بعض الشئ لكن لابد وأن أقوله لك.

تطلع لها منتظرًا فألتقطت نفسًا عميقًا وهى تقول مردفة:

- هناك الكثير من الأختلافات بينى وبينك .. أختلافات فى كل شئ تقريبًا ومعها لن نكون سعداء أبدًا فأنا وأنت من عالمين مختلفين لذلك لابد وأن نضع نهاية لكل هذا حتى لو كانت نهاية صعبة أو مؤلمة لنا نحن الأثنين لكن لابد منها .. هل تفهمنى؟

ظل (جابر) يتطلع إلى عينيها التى طالما سحرته فى بطء شديد

وقال ضاغطًا على كل حرف من حروف كلماته:

- الآن تحدثينى عن الأختلافات يا (مادلين) .. بعد كل ما فعلته من أجلك .. بعد أن عرضت حياتى للخطر أكثر من مرة وتحملت مسئولية كل شئ من أجل سعادتك ومن أجل رضا والدك دون أن أحصل على أى مقابل ودون أن ..

رفعت يدها أمام وجهه لتسكته وهى تقول فى صرامة:

- هذا شأنك معه ولن يكون لى أى دور فيه بعد الآن .. بإمكانك الأستمرار وتحصل منه على الترضية التى تناسبك أو تنسحب وتنسى الأمر برمته.

أبتسم فى سخرية وهو يقول:

- أنسى.

ثم قرب وجهه من وجهها مردفًا:

- النسيان دواء العاجز وأنا أعدك أنى لن أكون ضعيفًا أو عاجزًا أمامك بعد اليوم.

قالها وأنسحب من أمامها إلى داخل الوكالة تاركًا أياها تنظر إليه فى رهبة ..

نعم رهبة شديدة تسللت إلى داخل قلبها ورجفته بقوة .. فقد كان وقع كلماته وطريقة نطقه بها التى تقطر تصميمًا لم تعهده فيه من قبل يجعلاها تشعر أن الأمور لن تسير على خير أبدًا .. وأن الخلاص من هذا المعتوه لن يكون سهلًا.

فى داخل الوكالة أستقبله الخواجة (أستيفانوس) فى ترحاب شديد فقد كان يخشى أن يخسره الآن لأى سبب ثم أنتحى به جانبًا فى

مكان لا يسمعهما فيه أحد ثم قال هامسًا:

- اليوم ستصل شحنة جديدة.

أبتسم (جابر) فى ثقة قائلًا:

- عظيم .. سأخبر السائق ليجهز العربة الليلة.

رفع (أستيفانوس) أصبعه محذرًا وهو يقول:

- (محمود) كن على حذر فالموظف الذى نتعامل معه يؤكد أنهم يدققون فى الأجراءات الأمنية هذه الأيام ويرصدون كل شاردة وواردة على مدار اليوم وبالتحديد بعد حالات التهريب المتكررة التى أنتشرت هذه الأيام خاصة بين اليهود.

هز (جابر) رأسه مطمئنًا وأتبعها بقوله:

- أطمئن سيكون كل شئ على ما يرام.

مد (أستيفانوس) يده داخل درج مكتبه والتقط مفاتيح المخزن ناولها له ومعها مظروفًا مغلقًا ألقاه أمامه على المكتب عرف (جابر) أن بداخله المبلغ المتفق عليه والذى سيدفعه للموظف فى الميناء نظير إخراج الشحنة .. وزنه بيده فوجد به مبلغًا محترمًا ولاحظ (أستيفانوس) حركته فقال بسرعة:

- هذه المرة سيكون لك مبلغًا كبيرًا يا (محمود) .. أعدك بهذا بعد أن تُحضر البضاعة إلى المخزن.

هز (جابر) رأسه بينما عيناه معلقتان بفتاحة خطابات موضوعة أمامه على المكتب ولم يعلق فآخر شئ يريده من هذه العائلة الآن هو المال .. أنه يريد شيئًا أكثر أهمية بالنسبة إليه .. يريد الأنتقام من (مادلين).

عـرج قبـل عودتـه إلى المقهـى عـلى أحـد محـلات صناعـة المفاتيـح وفعـل الشـئ الـذى لم يفكـر فى فعلـه قبـل الآن وهـو أن يصنـع نسـخته المقلـدة مـن مفاتيـح المخـزن.

كانـت الخطـة تختمـر فى ذهنـه فأصبحـت كالقطـار الـذى أنطلـق ولا سـبيل لإيقافـه ولا منـاص مـن أن يدهـس الجميـع فى طريقـه .. الجميـع بـلا أسـتثناء.

أنتهـى مـن صنـع نسـخته مـن المفاتيـح فعـاد إلى المقهـى ولم يجـد المعلم (شـعبان) فى أنتظـاره وحـين سـأل عليـه أخـبروه أنـه يسـتقبل ضيفًـا آتى إليـه مـن محطـة القطـار فأنهمـك فى عملـه لفـترة حتـى أنتبـه عـلى صـوت ضحـكات المعلـم (شـعبان) الصاخبـة وهـو يتسـامر مـع ضيفـه عـلى بـاب المقهـى .. ضيفـه الـذى كان شـاردًا مشـغولًا عـن مبادلتـه المـزاح والـذى ظـل يحملـق فى (جابـر) بعينـين مفتوحتـين حتـى تلاقـت عيناهـما .. ضيفـه الـذى ميـز فيـه (جابـر) شـخصًا يعرفـه جيـدًا .. (طلبة) صديق عمه.

*****

تسمر (جابر) فى مكانه .. وتصاعدت أنفاسه حتى وصلت إلى حد اللهاث .. مع أرتفاع صوت ضربات قلبه التى كانت تدوى كالطبل فى أذنيه وهو يحدق فى عينى (طلبة) ولم يقطع تلك اللحظة إلا صوت (شعبان) وهو يقول:

- أحضر لنا الشاى ورص لنا حجرين فسنجلس بالخارج فى الهواء.

قالها وجذب (طلبة) بيده فى رفق ليجلسا على أحد الموائد الموضوعة على الرصيف المواجه للمقهى بينما عينا (طلبة) لم تفارقا (جابر) لحظة واحدة حتى وهو يجلس بجانب (شعبان) الذى أنتبه لشرود صاحبه فسأله قائلًا:

- ما لى أراك واجمًا هكذا؟

بادل (طلبة) سؤاله بسؤال:

- من هذا الشاب؟

نظر (شعبان) إلى داخل المقهى وقد فهم أنه يقصد (جابر) الذى تشاغل يإعداد الطلبات حتى يبتعد عن مجال عينى (طلبة) الثاقبتين اللتان تكادا تخترقان صدره لتعرفا مكنون قلبه وما يخفيه وقال:

- أنه شاب مسكين من الصعيد أحضره لى أحد معارفى ليعمل لدى فلم أستطع أن أرد له طلبه.

عاد (طلبة) يسأل:

- وماذا تعرف عنه؟

أجاب (شعبان) وقد أندهش من كثرة أسئلة صاحبه وأهتمامه الشديد وقال:

- لا أعـرف الكثـير سـوى أنـه شـاب يتيـم ضاقـت بـه الحيـاة فى بلـده فـأتى إلى الأسـكندرية ليعمـل ويشـق طريقـه فى مـكان جديـد.

- ومن أين هو؟

- قلت لك أنه من الصعيد.

قال (طلبة) فى عصبية:

- أعلم أنه من الصعيد ولكن من أى محافظة فى الصعيد؟

قلـب (شـعبان) كفيـه فى حـيرة وقـد تفاجـأ هـو نفسـه بأنـه يعـرف أقـل القليـل عـن مـن يعمـل لديـه وقـال:

- حقيقة لا أدرى.

- وما أسمه؟

- أسمه (محمود).

فى تلـك الأثنـاء كان (جابـر) يتقـدم ناحيتهـم ويضـع صينيـة الشـاى عـلى المائـدة بينـما عينـا (طلبـة) لازالـت مثبتـة عليـه ولم ينتظـر أكـثر فبـادر قا ئلًا :

- سمعت أنك من الصعيد يا (محمود).

هز (جابر) رأسه أن نعم فسأله (طلبة) قائلًا:

- من أى مكان فى الصعيد؟

أجابـه (جابـر) عـلى الفـور وقـد توقـع هـذا السـؤال وجهـز إجابتـه قائـلًا:

- من المنيا .. مركز بنى مزار.

عاد (طلبة) يسأل فى إلحاح:

- من أى عائلة فى بنى مزار؟

أرتج على (جابر) للحظة ولم يعرف بما يُجيب لكن المعلم (شعبان) أنقذه حين أجاب هو نيابة عنه قائلًا:

- لا تحاول فلن يخبرك الحقيقة أبدًا فربما كان لديه ثأر فى بلده يخشى معه أن يعرف أحد من هو ومن أى عائلة.

ثم ضحك مبددًا كآبة الموقف وهو يكمل قائلًا:

- يبدو أن جميع الصعايدة لديهم ثأر فى مكان ما .. أليس كذلك؟

ثم أشار إلى (جابر) قائلًا:

- أذهب أنت الآن يا (محمود) وسأناديك عندما أحتاجك.

هم (جابر) بالإنصراف لولا أن أستوقفه (طلبة) بسؤال أخير قائلًا:

- من أين جاءتك هذه الندبة يا (محمود)؟

تحسس (جابر) الندبة التى تزين جبينه وقال وهو يداريها بيده:

- أنها آثر جرح قديم من أيام الطفولة .. جرحت عندما كنت ألعب مع أصدقائى.

قالها وأنصرف ليغيب عن بصرهما داخل المقهى تاركًا (طلبة) خلفه شاردًا تمامًا ..

شاردًا حتى عن حديث (شعبان) وقد ضيّق عيناه ..

وغرق فى تفكير عميق.

*****

الفصل السادس عشر

كانت الأمور تتضح أمامه الآن وكلها تؤدى إلى معنى واحد .. أنها النهاية إذًا .. كل الظروف تُعاكسه وتقف فى طريقه وها هو الآن على وشك إفتضاح أمره إن لم يكن قد فُضح بالفعل .. ما حدث اليوم يؤكد ذلك .. وهو يعلم جيدًا أن (طلبة) لابد وقد تعرف عليه ليس لديه شك فى هذا .. عليه أن يتصرف بسرعة .. عليه أن يبتعد قدر الإمكان .. عليه أن يختفى بلا أثر ويظهر فى مكان جديد بإسم جديد وقصة جديدة.

هكذا فكر (جابر) وهو يسرع إلى مسكنه ليلملم حاجياته ويغادر هذا المكان نهائيًا بلا رجعة .. صحيح أنه وضع خطط كثيرة للأنتقام لم يكن من ضمنها الهروب .. صحيح أن يديه تلوثت بالدم فى سبيل هذا لكن الأقدار كانت لها شأن آخر.

قطع أفكاره صوت طرق على الباب فتوجس .. ترك ما فى يده وأقترب من الباب وبصوت مرتجف صاح:

- مَن؟

أجابه صوت خشى كثيرًا فى تلك اللحظة أن يسمعه:

- (طلبة).

فتح الباب فى حذر فطالعه وجه (طلبة) وقد أرتسمت عليه أبتسامة قاسية فتساءل (جابر) وهو لايزال يسد الباب بجسده:

- خيرًا يا معلم.

- ألن تدعونى للدخول؟

قالها (طلبة) وهو يتطلع إلى ما خلف (جابر) فأفسح له هذا الأخير الطريق وهو يقول فى إستسلام:

- تفضل.

خطا (طلبة) إلى الداخل وهو يتطلع فيما حوله ثم جلس على أقرب مقعد قابله ليقول مبتدًأ الحوار:

- طبعا أنت تسأل نفسك عن سبب زيارتى لك الآن.

غمغم (جابر) فى خفوت:

- أنت على الرحب والسعة.

حدجه (طلبة) بعينه للحظة قبل أن يبدأ هجومه قائلًا:

- يبدو لى أنك تُخفى وراءك أسرارًا كثيرة أيها الشاب.

زوى (جابر) ما بين حاجبيه وهو يقول فى إستنكار زائف:

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن لديك ما يُثقل كاهلك ويجعلك دائمًا تتلفت حولك وتعيش كما يعيش كل من يخشى الماضى.

أرتج على (جابر) من جراء هذا الهجوم وحاول أن يعقب لولا أن (طلبة) لوح بيده فى وجه (جابر) مكملًا:

- لا تحاول الأنكار يا فتى فقد كانت ملامحك تفضح خوفك عندما

قابلتنى لأول مرة فى المقهى.

رد (جابر) بصوت حمل كل توتره وإن حاول جعله أكثر صلابة قائلًا:

- لازلت لا أفهم ماذا تحاول أن تقوله لى.

- أتعلم أنك تشبه كثيرًا أحد أبناء قريتى.

رفع (جابر) حاجبيه فى دهشة مصطنعة قائلًا:

- أنا!!

أكمل (طلبة) وكأنه لم يسمعه قائلًا:

- وهذا الشاب هرب من القرية بعد أن قتل بدم بارد أقرب الناس إليه .. أمه وعمه وأخوته .. لم يترك أحد منهم على قيد الحياة.

ثم تساءل فى خبث:

- برأيك ما الذى دفعه لفعل هذه الجريمة البشعة؟

كانت دماء (جابر) تغلى فى هذه اللحظة لكنه حاول التماسك قائلًا:

- لا أدرى ربما وجد منهم ما دفعه إلى كل هذا.

- لدرجة أن يقتلهم جميعًا حتى الأطفال.

رد (جابر) بصوت يقطر حقدًا:

- القسوة تولد القسوة وحيث الموت لا تنبت حياة.

هز (طلبة) رأسه فى تفهم قائلًا:

- معك حق فيقال أن هذا الفتى كان يُجبر على مشاهدة أمه وهى تضاجع عمه أمام عينيه قبل وبعد مقتل والده .. الذى كان ضعيفًا وتركه ليقاسى وحده كل هذه الأهوال ثم أن ..

- كفى.

أنطلقت صيحة (جابر) لتُخرسه فأبتسم فى ظفر وقال فى أنتصار:

- لم كل هـذه العصبيـة يـا (محمـود) .. أتـراك تأثـرت بالحكايـة لهـذه الدرجـة.

ثم أنقلبت ملامحه دفعة واحدة مكملًا:

- أم تراها حكايتك أنت.

ثم مال إلى الأمام قائلًا فى صرامة:

- أليس كذلك يا ... (جابر)؟

كانـت الأمـور قـد وصلـت إلى مرحلـة أقـوى مـن أى إنـكار لا طائـل مـن ورائـه فتسـاءل (جابـر) فى أستسـلام:

- ماذا تريد؟

ألتمعت عينا (طلبة) فى جشع وهو يقول:

- الأرض.

حدق فيه (جابر) مبهوتًا وردد خلفه وكأنه لا يعى ما يقول:

- الأرض.

قال (طلبة) فى صرامة:

- نعـم يـا (جابـر) الأرض .. أرض آل وهـدان التـى تركتموهـا جميعًـا فأصبحـت أقـرب إلى البـوار ومرتعًـا لـكل مـن هـب ودب يضـع يـده عليهـا.

قال (جابر) مدافعًا:

- ولكنها أرضى وأرض أبى.

قال (طلبة) فى شراسة:

- أرضك التى لن تراها مجددًا ما حييت لم تعد لك ولن تعود لها لأنك لو فكرت فى الأقتراب من القرية سيكون الأعدام مصيرك وأنت تعلم هذا.

تساءل (جابر) فى حذر:

- وما الذى يضمن سلامتى حتى لو تنازلت لك عن الأرض؟

أكمل (طلبة) بنفس الشراسة:

- لا ضمانات.

ثم تمالك أعصابه ليقول مكملًا:

- أنت تعلم هذا وأنا أعلمه فلا داعى لإضاعة المزيد من الوقت .. أنت ستتنازل لى رسميًا عن الأرض بعقد مُوثق وأنا سأتناسى أنى رأيتك فى يوم من الأيام .. ها فما قولك.

كان فى هذه اللحظة (جابر) يلهث بقوة من فرط الغضب وقد أرتكز بيديه على المنضدة مُعطيًا ظهره ل(طلبة) ثم هدأ قليلًا وزفر فى حنق قائلًا:

- للأسف أنت لم تترك لى الخيار.

تصاعدت أبتسامة (طلبة) الواثقة وهم بقول شيئًا ما إلا أن (جابر) قاطعه دون أن يراه قائلًا:

- لكن عليك أن تعدنى بشئ.

قال (طلبة) متسائلًا:

- وما هو؟

التفت له (جابر) وهو يُجيب قائلًا:

- أن تنسانى للأبد .. لا أنا رأيتك ولا أنت رأيتنى.

- لك ما تريد.

مد (جابر) يده نحوه ليصافحه فنظر (طلبة) لها للحظة فى شك قبل أن يمد يده هو الآخر مصافحًا .. عندها لم يدر ماذا حدث .. لم يدر متى أرتفعت يد (جابر) الأخرى ولا متى هبطت بمنتهى القوة لتغرس المحقن حتى آخره فى رقبته ويفرغه فيها بمنتهى الثبات .. المحقن الذى أعده بصبر وهو مُوليًا له ظهره .. ولا متى أندفع نحوه ليُسقطه على الفراش ويشل حركته وهو يُكمم فمه بيده .. كل ما شعر به (طلبة) فى لحظة واحدة هو أن وعيه ينساب بعيدًا عنه كما يتسرب الدم من وريد مقطوع إلى غير رجعة فحاول جاهدًا أن يتملص من مُقيده .. حاول بكل قوته ولم يُفلح .. حاول حتى أن يصرخ علّ أحدهم يسمع صرخته فيكون فى هذا نجاته لكن لم يستجب أحد لأن صرخاته لم تنطلق من الأساس فالأمور كانت أسرع حتى من خاطره فغاب كليًا عن الوعى بينما (جابر) لايزال مكممًا فمه بكل قوته حتى تأكد أنه هامد تمامًا بلا حراك عندها وعندها فقط تركه دفعة واحدة ونهض من فوقه وهو يرمقه بنظرة جمعت بين البغض والتشفى ..

لقد أستحق ما حل به وما سيحل عليه الآن ليس لأنه هدده أو أبتزه فقط بل لأنه يستحق هذا منذ سنين طويلة عندما خطط ودبر لعمه كيفية الخلاص من أبيه وهو الآن سيرد الدين ..

سيرد الصاع صاعين وسيكمل ما بدأه ولن يوقفه أحد.

وقف يلتقط أنفاسه بعض الوقت ثم أعتلى (طلبة) الغارق فى سبات عميق وأعتصر رقبته بلا رحمة حتى تأكد تماماً أنه قد أنقطعت

أنفاسه نهائيًا ثم وكما فى المرة السابقة أشعل الكثير من البخور وأحضر أدوات الحفر وبدأ فى مراسم الدفن التى لا يحضرها غيره. أستغرق الأمر منه ساعة أو أكثر قليلًا حتى كان (طلبة) يجاور (زينات) فى قبرها عندها جفف (جابر) عرقه وأستعد لمهمته الليلية التى سيكون لها هذه المرة طابع مختلف ..

طابع الموت.

*****

كان الأمر بالفعل كما توقعه الخواجة (أستيفانوس) .. هناك الكثير من الأجراءات الأمنية والمراقبة وتدقيق فى كل شئ .. أعصاب مشدودة وحراس متوترون فكانت هناك حراسة على المخارج والمداخل وتحفز تجاه أى سيارة تدخل أو تخرج لكنه برغم كل هذا كان مستعدًا وقد نسق مع الموظف المسئول وأتفق معه على كل شئ فتم تغيير مكان البضاعة حيث نُقلت فى وقت سابق من مخازنها إلى مخازن أخرى تُخزن فيها البضائع التالفة التى تنتظر أن يتم إعدامها كما تم تغيير مكان اللقاء حيث دخلت السيارة من أحد البوابات الجانبية التى كانت حراستها أخف وطأة من البوابات الرئيسية وأنتظروا حتى ميعاد تبديل نوبة الحراسة ليكون التركيز فى أدنى درجاته وعندها تم تحميل السيارة.

كانت مخاطرة كبيرة والقيام بها يحتاج إلى جرأة حقيقية لكن (جابر) لم يتردد كثيرًا فى القيام بها .. ليس حبًا فى (أستيفانوس) ولا أبنته ولا حتى طمعًا فى المكافأة التى وعده بها بل كانت مجازفته

لهدف أكبر من هذا بكثير .. كانت مجازفته ليسترد حقه كاملًا وفصل جديد من فصول أنتقامه لذلك تحمل كل هذا الخطر حتى خرجت السيارة بحملها وأبتعدت عن محيط الميناء حتى أصبحت فى الأمان عندها أمر السائق أن يُغير خط سيره المعتاد وسط دهشة هذا الأخير إلا أنه لم يجد مناصًا من طاعة (جابر) فأتجه بالسيارة إلى خارج المدينة وهناك أمره (جابر) بالتوقف حيث كانت بإنتظارهما سيارة أخرى تماثل سيارتهم تمامًا فتم نقل البضائع كلها إلى السيارة الأخرى ثم نقد (جابر) السائق أجرته قبل أن يأمره بالرحيل ونسيان كل ما حدث هذه الليلة.

كان الأمر غريب وغير معتاد لكنه كان الطعم الذى سيجذبهم جميعًا إليه لذلك تعمد أن يمر على الخواجة (أستيفانوس) فى منزله .. أنطلق من فوره إلى منزل الأخير الذى كان ينتظره على أحر من الجمر فتح له الباب وأستقبله واللهفة واضحة فى عينيه فأبتسم (جابر) أبتسامة خفيفة ودلف إلى الداخل حيث عاجله (أستيفانوس) بالسؤال وقد بلغ منه الصبر مبلغه:

- ها .. ماذا حدث؟

أخرج (جابر) مفاتيح المخزن من جيبه وناولها له وهو يقول بثقة:

- أطمئن.

عاد (أستيفانوس) يسأل:

- هل أستلمت الشحنة؟

جلس (جابر) على أقرب مقعد ولم يرد فأعاد (أستيفانوس) السؤال مرة أخرى قائلًا:

- (محمود) .. هل أستلمت الشحنة؟

نظر لـه (جابـر) فى دهشـة مصطنعـة وهـو يُجيـب عـلى سـؤاله بسـؤال قائلًا:

- أى شحنة؟

صاح (أستيفانوس) بإنفعال:

- مـاذا دهـاك يـا (محمـود) هـل تتلاعـب بى .. أسـألك عـن الشـحنة هـل أسـتلمتها أم ماذا؟

أجاب (جابر) وهو يتطلع فيه فى برود:

- وما شأنك أنت بهذه الشحنة؟

أتسعت عينا (أستيفانوس) فى ذهول وهو يقول:

- ما شأنى؟

قال (جابر) بنفس البرود:

- نعـم مـا شـأنك .. هـذه الشـحنة مـن حقـى أنـا .. أنـا مـن خاطـرت مـن أجلهـا لذلـك هـى حقـى وتعويـض عـن كل مكاسـبك السـابقة التـى كنـت أنـا سـببًا فيهـا.

تحول صياح (أستيفانوس) إلى صراخ وهو يقول:

- أى حـق وأى تعويـض .. أنـت تسرقنـى بمنتهـى الصفاقـة وتسـميها تعويـض.

- قـل ماشـئت لكـن هـذا لـن يغـير مـن الأمـر شـيئًا .. لقـد حصلـت عـلى حقـى وأنتهـى الأمـر ولا أعتقـد أننـا سـنتعاون مـع بعـض مـرة أخرى.

أندفـع (أسـتيفانوس) نحـو (جابـر) وجذبـه مـن ياقـة قميصـه وهـو يـصرخ فى هيـاج:

- أيها الوغد .. أيها الحقير .. أتظن أنك تستطيع سرقتى أنا .. سرقة (أستيفانوس) .. أقسم أن أجعلك تدفع ثمن ما فعلته غاليًا .. سأجعلك تندم على أنك جئت إلى هذه الدنيا من الأساس وستعيد كل مليم سرقته منى رغم أنفك .. هل تفهم؟

فى هذه اللحظة دارت مفاتيح فى ثقب الباب ودخلت (مادلين) لتجد أباها يمسك بتلابيب (جابر) بمنتهى العنف وقد أوشك وجهه على الأنفجار من فرط الأنفعال فصاحت فى جزع:

- رباه .. ماذا يحدث؟

نظر لها (جابر) ولم يعقب فصرخ (أستيفانوس) قائلًا:

- هذا الحقير .. سرق الشحنة وباعها لحسابه ويزعم الآن أنها من حقه .. أتتخيلين أنه أصبح لهذا الوغد حقوق.

أمسك (جابر) يدى (أستيفانوس) ودفعه بعيدًا عنه بمنتهى القوة وقال فى ثبات:

- أسمعنى جيدًا أيها العجوز المخرف بإمكانك أن تسبنى حتى الصباح لكنك لن تحصل منى على شئ .. الشحنة معى وأنا وحدى الذى أعرف مكانها ولن تطال منها شيئًا مهما فعلت لذا عليك القبول بالأمر الواقع ولا تحاول إثارة المشاكل معى وإلا فأنت من سيندم على يوم مجيئه إلى هذه الدنيا فأنا قد ندمت منذ زمن بعيد جدًا أبعد مما تتخيل.

قال جملته وأندفع يغادر المنزل وسط صراخ (أستيفانوس) وتهديداته ونظرات (مادلين) الذاهلة بينما على وجهه هو أرتسمت بسمة تشفى وأنتصار وجدت طريقها أخيرًا إلى شفتيه.

*****

علـى مقعـد فى مواجهـة بـاب المنـزل جلسـت تنتظـر .. تتحـرق لتلـك المواجهـة بشـدة .. كان لابـد أن تُنهـى الأمـر الليلـة وتصارحـه بـكل شـئ لذلـك كانـت (دريـة) فى حالـة غـير عاديـة مـن التوتـر خاصـة مـع أنتظارهـا عـودة زوجهـا التـى طالـت اليـوم عـن أى يـوم آخـر فظلـت تـروح وتجـئ داخـل المنـزل وترتـب أفكارهـا ومـا سـتقوله لـه عنـد عودتـه ربمـا للمـرة الألـف حتـى أتى خلاصهـا أخـيرًا عندمـا سـمعت صـوت البـاب وهـو يُفتـح ورأت (شـعبان) يدلـف مـن خلالـه وقـد بـدا عليـه القنـوط.

لحظتهـا فكـرت فى أن تتراجـع وترجـئ الأمـر إلى يـوم آخـر لكـن صورتـه التـى مـلأت عينيهـا وقلبهـا والتـى ملكـت عليهـا كل حواسـها لم تـدع لهـا فرصـة للـتردد فأندفعـت خلـف (شـعبان) الـذى ألقـى عليهـا السـلام ودخـل إلى غرفـة النـوم ليُبـدل ملابسـه وأقتربـت منـه لتجـده يزفـر فى قـوة فقالـت متسـائلة:

- ماذا بك يا (شعبان)؟

أجابها فى برود أعتادته منه فى الفترة الأخيرة فلم يعد يدهشها:

- لا شئ.

قالت فى إصرار:

- لا تنكـر يـا (شـعبان) فأنـا أعرفـك عندمـا يشـغلك شـيئًا مـا .. هيـا قـل لى مـا المشـكلة؟

زفر مرة أخرى وهو يُجيبها قائلًا:

- هنـاك صديـق لى قـادم مـن الصعيـد وكان بيننـا عمـل مـا ننهيـه وأتفقنـا عـلى كل شـئ وكان هنـاك ميعـاد بيننـا الليلـة لكنـه لم يـأتى .. جلسـت أنتظـره حتـى وقـت متأخـر فلـم يظهـر .. سـألت عليـه فى الفنـدق الـذى سـيبيت فيـه ليلتـه لكنهـم قالـوا لى أنـه لم يعـد منـذ خـرج فى الصبـاح.

- ربما تراجع عن هذا العمل بينكما وعاد إلى بلده.

قال (شعبان) فى أستنكار:

- دون أن يخبرنى.

قالت (درية) مفسرة:

- ربما أحس بالحرج منك وفضل أن يرحل دون أن تراه.

هز (شعبان) رأسه رافضًا الفكرة وقال:

- لا أعتقـد فهـذه ليسـت أول مـرة أتعامـل معـه وبيننـا صداقـة طويلـة لـن يفسـدها بتـصرف كهـذا كـما أنـه لم يبـد أى أسـتياء مـن مـا بيننـا مـن أعـمال وكان بيننـا أتفـاق عـلى كل شـئ فكيـف يُغـير رأيـه بهـذه السرعـة.

ثـم صمـت لحظـة مفكـرًا وجلـس عـلى حافـة سريـره ونظـر ل(دريـة) قائـلًا:

- لكن أتدرين لقد حدث أمر غريب لم أجد له تفسيرًا حتى الآن.

تساءلت (درية) قائلة:

- وما هو؟

أجاب قائلًا:

- عندمـا أصطحبتـه إلى المقهـى بـدا مصعوقًـا من مـرأى الفتـى (محمود)

وبـدا وكأنه رأى شـيطان.

ثم أكمل وهو يتطلع فى وجهها:

- شيطان يعرفه من قبل.

قالت فى إمتعاض:

- ما هذا الهراء؟

قال وهو لايزال يتطلع إليها:

- هــذا لأنــك لم تــرى وجهــه حــين رآه ولا كــم الأســئلة التــى لاحقــه ولاحقنــى بهــا حتــى أنــه ســألنى عــن عنــوان مســكنه وقــد حــيرنى الأمــر ســاعتها فلــم أكــن أرى مــا يســتدعى كل هــذا الأهتــمام.

تساءلت وهى تحاول أن تستشف ما يدور بخلده:

- أتظن أن ل(محمود) يد فى أختفاء صديقك هذا؟

قلب شفتيه وهز رأسه فى حيرة قائلًا:

- لست أدرى.

ثم ضيق عيناه فى تفكير مكملًا:

- لكننى سأعرف كل شئ .. حتما سأعرف.

هنـا قـررت أن تسـتغل حالـة الحـيرة والأرتبـاك التـى يشـعر بهـا وقـررت أن تلعـب عـلى وتـر شـكه فى (جابـر) الـذى أصبـح كجمـر النـار داخـل صـدره فقالـت:

- هناك أمر أريد أن أُخبرك به أنا الأخرى.

رفع عيناه إليها متسائلًا:

- ما هو؟

فركت يديها فى توتر وقالت وهى تُشيح بنظرها عنه:

- أمر كنت أخفيه عنك منذ مدة طويلة .. حاولت أن أتصرف فيه بمفردى كى لا أثير غضبك وأجعلك تفقد أعصابك لكن ..

قطعت كلامها وكأنها لا تجد ما تعبر به أو أنها تخشى الأستمرار فى الحديث وقررت التراجع فجأة فقال وقد بدأ يتوتر:

- لكن ماذا؟ .. وأى أمر هذا الذى تخشين أن تخبرينى به؟

قالت بصوت خفيض:

- أنه أمر يتعلق أيضًا بالفتى (محمود).

تساءل وتوتره يزداد:

- ماذا حدث؟

أجابت وهى لاتزال مُشيحة بوجهها بعيدًا عنه وكأنها تخشى النظر فى عينيه:

- أنت تعلم أنه يأتى إلى هنا كثيرًا .. أنت بنفسك كنت تُرسله دائمًا ليُحضر لى طلبات البيت.

قال فى ترقب وقد نفذ صبره:

- ها .. وماذا بعد؟

أغرورقت عيناها بالدموع وقالت فى أسى:

- فى مرة من تلك المرات كنت أستحم وفاجئنى صوت الطرق على الباب فلم أدر ماذا أفعل فوضعت الروب على جسدى وفتحت .. كان (محمود) على الباب وقد جلب الطلبات التى أرسلته بها فأمرته أن يدخلها إلى المطبخ ويخرج على الفور وتركت له الباب مفتوحًا بينما دخلت أنا إلى الحمام لأكمل أستحمامى وقد ظننت أنه قد وضع ما معه وخرج لكن بعد فترة وبينما أنا بداخل

الحمام لمحت من ينظر إلى من خلف الباب المـوارب وحين دققت النظر عرفت أنه (محمود) .. كان يتطلع إلى جسدى العارى وكأنه سيفترسه ثم عندما لاحظ أننى أنتبهت إليه خرج مسرعًا وأختفى فى لمح البصر.

جز (شعبان) على أسنانه وقال فى غل:

- الكلب .. سأعرف كيف أجعل منه عبره .. سأقتلع عينيه حتى لا ينظر بها لأسياده مرة أخرى.

قالت (درية) وهى تنتحب:

- لم أشأ أن أخبرك عن هذا الأمر فى البداية وقلت أنه شاب صغير وقد أثاره الأمر فغيب عقله ولم يدر ماذا يفعل وأيضًا لم يحسن التفكير فى عواقب فعلته ولكن ليت الأمر أقتصر على هذا.

أنعقد حاجبا (شعبان) فى غضب وصاح وهو يجذبها من ذراعها ناحيته فى قوة:

- تكلمى .. ماذا حدث بعد هذا؟

رفعت عيناها الدامعتين إليه قائلة:

- عندما لم أخبرك عن المرة الأولى ظن أننى لن أتكلم مهما فعل فتجرأ أكثر وأكثر حتى هذه المرة الأخيرة .. لقد أقتحم على المنزل حين فتحت له الباب وألقانى أرضًا وحاول أن يعتدى على لولا أن صرخت فخشى أفتضاح أمره وولى هاربًا.

قالتها وأنهارت باكية وكأن سدود مقاومتها قد أنهارت فجأة مطلقة لدموعها العنان ثم أرتمت فى أحضانه تستمد منها الأمان فأحاطها بذراعيه وهو يقول بغل:

- أقسم أن أقتله .. لن يعيش يومًا آخر بعد اليوم.

ردت هى عليه وكأنها تؤمن على كلامه:

- نعم .. لن يعيش يومًا آخر بعد اليوم.

وعلى محياها أرتسمت تعابير غدر لم يرها (شعبان) .. لسوء حظه.

*****

- ماذا سنفعل الأن؟

أنطلق السؤال من فم (أستيفانوس) بمنتهى الحدة فصاحت فيه (مادلين) قائلة:

- وما شأنى أنا .. قلت لك من قبل أننى خارج هذا الموضوع أكثر من مرة.

صاح (أستيفانوس) فى غضب:

- الأمر ليس لعبة يا (مادلين) نشترك بها وقت ما نشاء ونتركها وقتما نرغب أنها أموالنا .. أموالنا التى قضينا السنين فى جمعها .. هل سنترك هذا الحقير يسلبها منا.

جلست (مادلين) تفكر فيما قاله فجلس قبالتها وهو يردف:

- يجب أن نفعل شيئًا يا (مادلين) .. أى شئ.

قالت متفكرة:

- ليس بيدنا أى شئ نفعله الآن.

صاح (أستيفانوس) فى سؤال مستنكر قائلًا:

- ماذا تقصدين؟

أجابته قائلة:

- أى شئ سنفعله الآن سيكون محتاطًا له فهو يعلم أننا لن نسكت عليه .. قد نراقبه أو حتى قد نُؤذيه لذلك سيبقى على حذره حتى يرى كيف سنتصرف.

سألها (أستيفانوس) فى لهفة:

- وماذا نفعل؟

هزت رأسها نفيًا ولوحت بإصبعها أمامه يمينًا ويسارًا وهى تُقرن إشارتها بالقول:

- لا شئ.

أرتفع حاجباه فى دهشة وأنقلبت سحنته وهو يتراجع بظهره للوراء فى حدة مرددًا:

- لا شئ.

ردت (مادلين) بسرعة قائلة:

- ليس هذا معناه أننا سنقف مكاننا ساكنين ولكننا سنتصرف بشكل لا يلفت نظره من خلال أحد غيرنا لا يعرفه.

قال (أستيفانوس) وقد بدأ يفهم:

- أتقصدين ..

قاطعته قائلة بحسم:

- نعم .. سأجعل (كمال) يراقبه كظله ليل نهار .. هو لا يعرفه ولم يره من قبل فلن يرتاب فى أمره وحتمًا فى لحظة ما سيفقد حذره ويُقدم على فعل يجعلنا نمسك بطرف الخيط الذى سيقودنا لكل ما سرقه.

ألتمعت عينا (أستيفانوس) وقال:

- وعندها وبعد أن أحصل على مالى سأعرف كيف أؤدبه على فعلته هذه.

قالها بثقة دون أن يدرى أنه وأبنته يسيرون إلى شرك محكم ..

الشرك الذى أعده لهم (جابر) بدقة مذهلة ..

شرك جعلهم يسيرون إليه ..

وبإرادتهم.

الفصل السابع عشر

قل عـدد زبائـن المقهـى بشـكل ملحـوظ وبـدأوا فى المغـادرة تباعًـا فى هـذا الوقـت المتأخـر مـن الليـل وبـدأ (شـعبان) يجمـع حصيلـة اليـوم ويحسـبها وهـو يتابـع بعينـه (جابـر) ومـن معـه وهـم يعيـدون ترتيـب المـكان وتوزيـع الموائـد والمقاعـد مـن حولهـا وينظفـون الأرضيـة إذانًـا بغلـق المـكان .. والحقيقـة أنـه كان يختص (جابـر) وحـده بالمتابعة وكان ينتظـر بفـارغ الصبر أن ينهـوا عملهـم فظـل يـصرخ فيهـم يسـتحثهم أن يسرعـوا وقـد أنتـوى أن يصفـى حسـابه كاملًا مع (جابـر) هـذه الليلـة .. بعـد أن أنتهـوا تجمعـوا حـول (شـعبان) الـذى نقـد كل منهـم يوميتـه فبـدأوا فى المغـادرة كذلـك ومعهـم (جابـر) لـولا أن سـمع صـوت المعلـم (شـعبان) وهـو يهتـف بإسـمه يسـتبقيه قائـلًا:

- أنتظر يا (محمود).

توقف (جابر) والتفت له فى تساؤل فقال (شعبان):

- أريدك فى أمر ما.

تسـمر (جابـر) فى مكانـه بينـما نهـض (شـعبان) مـن عـلى مقعـده وأتجـه إلى بـاب المقهـى ليغلقـه عليهـما متجـاوزًا (جابـر) الـذى تطلـع إليـه فى دهشـة كبـيرة وتسـاءل فى توتـر مشـوب بالحـذر:

- ماذا هناك يا معلم؟ .. لماذا أغلقت الباب؟

أقترب منه (شعبان) ووقف قبالته يتفرس فى ملامحه قبل أن يقول:

- لماذا يا (محمود)؟

قال (جابر) وقد أربكته نظرات (شعبان):

- ماذا فعلت يا معلم؟

صرخ (شعبان) فى قوة:

- لا تراوغ.

صاح (جابر):

- أقسم لك اننى لا أفهم.

أندفع (شعبان) تجاه (جابر) وأمسكه من قميصه وجذبه ناحيته فى غضب قائلًا:

- أنت أيها الحقير تعتدى على حرمة بيتى بعدما أكرمتك.

صاح (جابر) فى قوة:

- كذب يا معلم .. أقسم لك أنه لم يحدث شئ من هذا.

هنا هوت الصفعة قوية من يد (شعبان) على خد (جابر) لتطيح به من مكانه وتسقطه أرضًا و(شعبان) يهتف فى غضب:

- قلت لك لا تراوغ.

ثم مال ناحيته ليجذبه من ملابسه مرة أخرى ويوقفه على قدميه وهم بتوجيه صفعة ثانية له عندما هتف (جابر) فجأة:

- أنها خائنة.

تجمدت يد (شعبان) فى الهواء وأتقدت عيناه من فرط الغضب وهو يقول بصوت كالفحيح:

- ماذا تقول؟

أجاب (جابر) قائلًا:

- أنها كاذبة .. أيًا ما كان ما قالته لك فهى كاذبة وتسعى لخيانتك.

ظل (شعبان) ينظر إليه فى ذهول فخلص (جابر) نفسه من بين يديه وقال:

- هذه هى الحقيقة يا معلم لم أشأ أن أخبرك بها من قبل لكن أن تتلاعب بعقلك وتتهمنى أنا بالخيانة فهذا ما لن أسكت أمامه أبدًا.

تفرس (شعبان) فى وجهه وكأنه يستقرئ صدقه من كذبه قبل أن يسأله قائلًا:

- ماذا حدث؟

التقط (جابر) نفسًا عميقًا وزفره فى قوة كى يستجمع شتات نفسه وقال وهو يتحسس موضع الصفعة التى تلقاها:

- لم أتخيل أن الأمور هكذا .. فى البداية كانت تعاملنى معاملة جيدة وظننت أنها تعطف على لأننى وحيد وليس لى أهل وظللت لفترة أقنع نفسى أن الأمور تسير على هذا النحو حتى أتى يوم .. توقف عن السرد وكأنه يخشى الأفصاح عن ما بداخله فقال (شعبان) يستحثه والغضب بادى على وجهه:

- أكمل كلامك بسرعة.

ثم رفع أصبعه فى وجه (جابر) مهددًا:

- وأعلم أنك إن كنت كاذبًا فأقسم بالله أن أدفنك مكانك.

أومأ (جابر) برأسه إيجابًا وهو يُكمل قائلًا:

- فى ذلـك اليـوم ذهبـت لهـا ككل مـرة أحمـل لهـا فيهـا الطلبـات ففاجئتنـى بأنهـا أغلقـت بـاب المنـزل علينـا وأقتربـت منى بنظـرة غريبة عـلى وجههـا تتحسـس جسـدى فلـما رفضـت وأبعدتهـا عنـى ظلـت تـصرخ فى وجهـى وتهـددنى بأنهـا سـتقطع عيـشى مـن هنـا وسـتخبرك كـما أخبرتـك الآن أننـى حاولـت الأعتـداء عليهـا ثـم مـرة واحـدة أنهارت فى البـكاء وقالـت لى أنهـا تعيـش وحيـدة وأنـك دائمًـا بعيـًدا عنهـا .. لا تشـعر بهـا ولا تسـتمع اليهـا ..

قـال (شـعبان) يسـتحثه وقـد بـدا ذاهـلًا وكأن الـكلام يتـسرب إلى عقلـه مبـاشرة يسـتولى عـلى تفكـيره ويغيبـه:

- ها .. وماذا بعد؟

أجاب (جابر) وهو يدور حوله ويصب الكلام داخل أذنيه:

- قالـت لى أنهـا سـئمت هـذه الحيـاة الجامـدة وأنهـا تريـد أن تعيـش حياتهـا كـما تريـد هـى وليـس كـما تريـد أنـت .. كـما قالـت لى أنـك لا تنجـب وهـى تريـد أن تحقـق حلـم حياتهـا فى أن تصبـح أمًـا .. ولأنهـا تعلـم جيـدًا أنـك لـن تقبـل أن تطلقهـا إذن فالحـل الوحيـد هـو أن تتخلـص منـك.

حدق فيه (شعبان) فى دهشة وأتسعت عيناه فى ذهول وهو يردد:

- تقتلنى.

أومأ (جابر) برأسه مرة أخرى وهو يقول:

- نعـم .. لقـد طلبـت منـى مسـاعدتها للخـلاص منـك وبعدهـا وعدتنـى بـأن تجعـل منـى شـخصًا آخـر كـما سـتعهد لى بـإدارة المقهـى وسـاعتها يمكننـا أن نُكمـل حياتنـا معًـا.

ظل (شعبان) يحدق فى لاشئ وهو يردد:

- إذا فالأمر هكذا.

- بل الأمر أكبر من هذا.

قالها (جابر) فبهت (شعبان) وقال متسائلًا:

- ماذا لديك أيضًا؟

قال (جابر) وقد قطع شوط سيكمله لنهايته:

- لقد أعترفت لى أنها كانت أيضًا على علاقة مع (سليم فتوح).

صرخ (شعبان) فى غضب:

- ماذا؟

أكد (جابر) قوله مغمغمًا:

- هـذا مـا قالتـه لى .. قالـت أنهـا كانـت ضائعـة وهـذا جعلهـا تُقبـل عـلى كل مـن يقـول لهـا كلمـة حـب أو يُشـعرها بحنـان وعطـف أفتقدتـه وعندمـا سـألتها لماذا تعترفـين لى قالـت أنهـا فضلتنـى عليـه لأنـه كان يريـد أمتلاكهـا.

أحمـرت عينـا (شـعبان) مـن فـرط الغضـب وجـز عـلى أسـنانه حتـى كاد يكسرهـا ثـم التفـت إلى (جابـر) وتسـاءل فى صرامـة:

- وكيف أتأكد أنك صادق فى كلامك؟

أجابه (جابر) على الفور:

- بإمكانى أن أثبت لك.

تساءل (شعبان) مرة أخرى فى لهفة:

- كيف؟

أبتلع (جابر) ريقه فى صعوبة قبل أن يقول:

- سـأجعلها تـأتى إلى فى منـزلى وعندهـا ستسـمع كل مـا قلتـه لـك الآن ولكـن عـن لسـانها هــى.

قال (شعبان) وقد بدا كمن ضُرب بألف مطرقة على رأسه:

- سأسـايرك حتـى النهايـة ولـو صـدق كلامـك فسـأقتلها وأغسـل عـارى بيـدى.

ثم نظر إلى (جابر) مكملًا:

- أما لو كنت كاذب فسأجعلك أنت تتمنى الموت.

قال الأخير وهو يدفع التهمة عن نفسه:

- سترى أننى صادق فى كل كلمة قلتها.

قالهـا وفتـح بـاب المقهـى وخـرج تـاركًا (شـعبان) غارقـاً فى لُجـة أفـكاره وقـد أيقـن أن الأمـور تسـير بقـوة غامضـة نحـو نهايـة محتومـة.

*****

بحـذر شـديد وبخطـوات سريعـة سـارت (دريـة) وهـى تُخفـى نفسـها

داخل ملاءتها وقد عمدت إلى إخفاء وجهها خشية أن يلمحها أحد ما ويتعرف عليها .. كانت تخشى هذا الموعد وتنتظره ومن داخلها تصاعدت ضربات قلبها الوجلة ونبتت حبات العرق على جبينها من فرط التوتر لكن لم يعد هناك مفر من المحتوم لقد دارت عجلة الأمر ولا سبيل لإيقافها.

كما قال لها (محمود) من قبل .. الآن إما هما أو هو .. لا يوجد حلول أخرى .. لذلك أطاعته فى كل ما طلبه منها .. حتى اليوم عندما طلب منها أن تأتى إليه فى منزله ورغم خوفها الشديد لم تملك إلا أن تُطيعه وتُنفذ ما طلبه منها وتحايلت على (شعبان) فأخبرته أنها ستذهب لزيارة أمها هذا الصباح ورغم نظرات الشك التى لاحقها بها إلا أنها لم تتردد لحظة واحدة.

وصلت إلى مسكن (جابر) فأستقبلها هذا الأخير على الباب وجذبها بيده بسرعة إلى الداخل ثم نظر خارج باب مسكنه ليتأكد أن أحدًا لا يتبعها ثم أغلق الباب والتفت إليها قائلًا:

- تأخرت كثيرًا.

قالت وهى تخلع الملاءة وتضعها جانبًا:

- أنتظرت حتى غادر (شعبان) كى لا يرتاب فى شئ.

- أنه قادم خلفك بالتأكيد.

هزت رأسها إيجابًا ثم سألت (جابر):

- لماذا أصريت على أن يكون الموعد فى منزلك .. لماذا لم ننفذ ما أتفقنا عليه فى منزلى.

أجابها بصوت خفيض:

- لم يكن هذا ممكنًا .. وإلا فكيف سنتخلص من جثته حينها .. لكن هنا ستكونين أنت بعيدًا عن أى شئ وسأعرف أنا كيف أخفيه.

قالت فى حماس:

- لقد كانت خطتك محكمة جدًا فمن ناحيتى أنا زرعت الشك فى قلبه تجاهك وأنت جعلته يشك فى أمرى أنا.

قال (جابر) بثقة:

- أنه الآن كمن ضُرب على رأسه فهو مُشتت لا يدرى أين الحقيقة والشك يأكله من ناحيتنا نحن الأثنين.

- لهذا سينفذ ما طلبته منه.

قال على الفور:

- بالطبع .. لقد قلت له أن دليل خيانتك أنك ستأتين إلى فى منزلى وطلبت منه ملاحقتك ليكتشف الأمر بنفسه وأنا واثق أنه الآن بالخارج يتحين الوقت ليدهمنا وبذلك نكون جعلناه يأتى إلى هنا بقدميه ويكون خلاصنا منه أسهل بكثير.

أقتربت منه قائلة:

- أتفعل هذا من أجلى يا (محمود)؟

- إن لم أكن أفعله من أجلك فمن أجل من.

رق صوتها وهى تسأل:

- أتحبنى حقًا؟

أجابها فى سخرية قائلًا:

- وما الذى سيدفعنى لإرتكاب جريمة قتل إن لم أكن أحبك؟!! .. ليس من هواياتى قتل الناس بالتأكيد.

- أنا أيضاً أحبك .. بل أعشقك.

- و(سليم)؟

ألقاها (جابر) متسائلًا فأجابت بسرعة:

- أرجوك يا (محمود) أن تنس هذا الأمر.

ثم أقتربت منه أكثر مكملة:

- حكايـة (سـليم) و(سـليم) نفسـه أصبحـا مـن المـاضى الآن والغـد لا يوجـد فيـه أحـد غيرنـا .. لا (سـليم) .. ولا (شـعبان).

قالتهـا ثـم التصقـت بـه والتقمـت شـفتيه بـين شـفتيها وغابـت معـه فى قبلـة طويلـة وهـو يمـد يـده ليخلـع عنهـا ثوبهـا ليكمـل تفاصيـل الخطـة فى اللحظـة التـى أقتحـم فيهـا (شـعبان) المكان وقـد بـدا كالثـور الهائـج وهـو يندفـع تجـاه (دريـة) التـى أطلقـت صرخـة فـزع وتراجعـت إلى الخلـف لكنـه أطبـق بيديـه عـلى عنقهـا وهـو يـضرب رأسـها بالجـدار فى هيـاج .. كل هـذا و(جابـر) يقـف فى منتصـف الغرفـة فى إستسـلام لا يفعـل شـيئًا وكأن الأمـر لا يعنيـه بينـما عينـا (دريـة) تسـتنجد بـه لينفـذ مـا أتفقـا عليـه وينقذهـا لكـن ملامحـه كانـت تعكـس شـيئًا آخـر ..

ملامحه كانت تقول كل شئ ..

لقـد غـدر بهـا وتلاعـب بعقلهـا حتـى يكشـفها ويضعهـا هـى فى مواجهـة (شـعبان) الـذى تلاعـب بعقلـه هـو الآخـر وبمسـاعدتها لينجـو هـو بنفسـه مـن الموقـف كلـه.

حاولـت الـصراخ لإنقـاذ نفسـها لكـن صرخاتهـا أحتبسـت مـع ضيـق الهـواء داخـل صدرهـا .. حاولـت التملـص مـن قبضـة (شـعبان) لكـن غضبتـه جعلتـه كالوحـش الـكاسر فأطبقـت قبضتيـه عـلى عنقهـا

ككلابتـين مـن حديـد .. إلا أن غريـزة البقـاء بداخلها جعلتها تـركل (شـعبان) بقدمهـا العاريـة بـكل قوتهـا فخفـت قبضتـه عـلى عنقهـا حتـى أسـتطاعت دفعـه بعيـدًا عنهـا وتحريـر نفسـها عندهـا حاولـت الهـروب تجـاه بـاب المنـزل لكـن فجـأة وجـدت مـن يطوقهـا مـن الخلـف ويطرحهـا عـلى السريـر ويُكبـل يديهـا فـوق رأسـها بينـما جثـم (شـعبان) فوقهـا يسـتكمل مـا بـدأه والغـل يطفـر مـن عينيـه حتـى أظلمـت الدنيـا أمـام عينيهـا مـع تـسرب آخـر رمـق مـن الحيـاة بداخلها وكان آخـر مـا رأتـه قسـمات وجـه (شـعبان) وهـى ترتعـش .. فى جنون.

*****

ذاهـلًا عـن كل مـا حولـه .. ضائعًـا فى لُجـة مـن الأفـكار تتنـاوب عـلى رأسـه فتُصليـه نـارًا مـن الجحيـم .. ناظـرًا إلى يـده التـى لم تكُـف عـن الأرتعـاش جلـس (شـعبان) بجـوار جثـة (دريـة) لا يـدرى مـاذا يفعـل .. أحسـاس كبـير بالضيـاع والعجـز أنتابـه وهـو يتطلـع إلى جثتهـا العاريـة بعـد أن أسـلمت الـروح وهمـدت تمامًـا بينـما عيناهـا لاتـزالان تحمـلان تلـك النظـرة الذاهلـة المرتاعـة.

لم يتخيـل مـا وصلـت لـه الأمـور بينهـما .. لم يتخيـل أن يـأتى اليـوم الـذى يجلـس فيـه جـوار جثتهـا بعـد أن يقتلهـا بيديـه .. صحيـح أن الحيـاة بينهـما لم تكـن عـلى مـا يـرام ودائمًـا مـا كانـت الخلافـات تنشـب بينهـما لأتفـه الأسـباب وأحيانًـا بـدون أى سـبب عـلى الإطـلاق ..

ربمـا ليـداروا بـه السـبب الحقيقـى وراء غضبهـما وضيقهـما مـن بعـض وهـو عـدم قدرتهـما عـلى الإنجـاب ..

ربما ليشعرا أنهما مازالا على قيد الحياة فيتشاجرا لمجرد الشجار ..
لكنـه لم يتوقـع ولـو للحظـة واحـدة أن تطعنـه فى ظهـره بهـذا الشـكل .. أن تسـلم نفسـها لرجـل غـيره والأدهـى أنهـا تتآمـر للخـلاص منـه.

كيف وصل هو إلى هذا؟ ..

كيف وصلت بها الأمور إلى هذه الدرجة؟ ..

دوامة تدور به فى دوائر لا نهائية لا نجاة منها ولا فكاك ..

دوامـة أبتلعتـه فى قلبهـا فـلا يجـد سـبيل للخـلاص منهـا بعـد أن ضـاع كل شـئ ..

تـرك (جابـر) يـد (دريـة) التـى كان يكبلهـا منهـا وأقـترب مـن (شـعبان) الـذى لم يرفـع عينـه ناحيتـه فربـت عـلى كتفـه قائـلًا:

- لا وقت للحزن الآن يا معلم.

نظر له (شعبان) وعيناه تحملان هم الدنيا وقال بصوت مبحوح:

- ومتى يأتى الوقت وقد ضاع كل شئ.

قال (جابر) بسرعة:

- لم يضع شئ.

ثم جذب (شعبان) ليقف على قدميه قائلًا:

- يجب أن تذهب الآن وتنسى كل ما حدث هنا.

أشار (شعبان) ناحية جثة (درية) وقال متسائلًا:

- وماذا عنها .. ماذا ستفعل بها؟

قال (جابر) فى حسم مطمئنًا:

- لا تقلـق سـأعرف أنـا كيـف أخفيهـا عـن الأنظـار ولكـن ليـس الآن بالطبـع يجـب أن أنتظـر حـين يحـل الليـل ولكـن أنـت يجـب أن تبقـى

فى المقهـى تمـارس حياتـك بشـكل طبيعـى تماماً وتُبـدى القلـق حـين تعلـم بتغيبها عـن المنـزل وأختفائهـا وتبحـث عنها فى كل مـكان وتسـأل الجميع بـل ويجـب أن تُبلـغ الشرطـة عـن أختفائهـا كذلـك حتـى تبعـد أى شـبهة عنـك.

نظر له (شعبان) وقال بصوت خفيض:

- لا أدرى ماذا أقول لك.

ربت (جابر) على كتفه وقال وهو يدفعه للخارج:

- فيما بعد يا معلم .. فيما بعد.

خـرج (شـعبان) فأغلـق (جابـر) البـاب عـلى نفسـه وأقـترب مـن (دريـة) ليحملهـا بـين ذراعيـه ويدخـل بهـا إلى الغرفـة الأخـرى حيـث أعـد كل شئ فوضعهـا جانبًـا وأشـعل البخـور المعتـاد ومـد يـده يلتقـط الرفـش ويبـدأ الحفـر ..

لم تمـض فـترة حتـى كانـت جثـة (دريـة) ترقـد فى قـاع الحفـرة التـى تصاعـدت منهـا روائـح شـيطانية نجحـت فى إخفاءهـا ببراعـة كميـة البخـور الهائلـة التـى أشـعلها (جابـر) الـذى كمـم أنفـه وفمـه بمنديـل وإن ظـل ينظـر إلى جثـة (دريـة) العاريـة ويتذكـر مـا مـضى ..

يتذكـر يـوم أقتـادوه كالخـراف إلى المذبـح وكيـف تـم ضربـه وتعذيبـه وإهانـة كرامتـه بغـرض التأديـب ..

يتذكـر يـوم ذهـب إلى (دريـة) وكيـف أنحنـى أمامهـا يعتـذر ويقبـل قدمهـا لتصفـح عنـه كأى عبـد يخـشى غضبـة سـيدته ..

يتذكـر كيـف أجـبر نفسـه عـلى مضاجعتهـا وإمتاعهـا بينـما كان يـود لـو يخنقهـا بيديـه ويمزقهـا بأسـنانه ..

مـر شريـط الذكريـات أمـام عينيـه فى ومضـات متلاحقـة قبـل أن يقـول فى تشـفى:

- أرأيـت .. لا أحـد يهـين (جابـر وهـدان) ويبقـى عـلى قيـد الحيـاة .. اليـوم كان يومـك وغـدًا يحـين يـوم الكلـب (سـليم).

ثم ضرب كومة الرمال بالرفش وقال:

- مع السلامة يا ... سيدتى.

أنهى جملته وألقى الرمال فوق الجثة حتى توارت عن الأنظار.

*****

لأيـام طويلـة أسـتمر البحـث عـن (دريـة) بـلا جـدوى .. كانـت حكايـة أختفائهـا هـى الشـغل الشـاغل لـكل أهـل المنطقـة وحديثهـم مـن الصبـاح إلى المسـاء فمـن ناحيتـه لم يتـوان (شـعبان) عـن فعـل أى شئ بينـما مـن ناحيـة أخـرى كانـت أسرتهـا تبحـث فى كل أتجـاه بـلا كلـل ولكـن ذهبـت كل جهودهـم أدراج الريـاح فلـم يعـثر لهـا عـلى أثـر حتـى الشرطـة التـى تـم إبلاغهـا بحالـة الأختفـاء لم تضـف أى جديـد رغـم كـثرة البحـث والتحـرى وأهتـمام (سـليم فتـوح) بالموضـوع عـلى المسـتوى الشـخصى.

وبـين النـاس سـادت أقاويـل كثـيرة .. منهـم مـن قـال أنهـا هجـرت (شـعبان) بسـبب أعمالـه المشـبوهة .. وآخـرون قالـوا أنهـا لاتـزال تأمـل وتسـعى للإنجـاب فقـررت أن تختفـى مـن حياتـه .. بينما كانـت الحكاية الأكـثر شـيوعا والتـى سرت كالنـار فى الهشـيم هـى أن (دريـة) قـد عرفت عشـيقًا غـير زوجهـا وهربـت معـه وأقـترن أسـمها بإسـم (زينـات) التـى

سبقتها وهربت هى الأخرى مع عشيقها فصارا مضرب الأمثال فى الخيانة وما آل إليه حال النساء هذه الأيام وكيف أن المرء أصبح لا يأتمن حتى أقرب الناس إليه.

تحدث الجميع وأدلى كل منهم بدلوه بينما (شعبان) و(جابر) لايزالا على صمتهما وينتظران .. تتلاقى عيونهما فتحكى كل شئ .. لم يكن هناك شعور بالذنب .. من ناحية (شعبان) على الأقل .. بل كان الخوف ثم الخوف من إفتضاح أمرهما وكشف ما عملا جاهدين لستره لكن كما بدأ الموضوع مرت الدائرة وانتهى وعاد الجميع لحياتهم فلم يعد هناك إلا بعض المواساة من الرجال سواء كانت صادقة أو تحمل قدر من التشفى ومصمصة الشفاه والتحسر على حاله من النساء بينما الأغلبية أنشغلوا بهموم حياتهم اليومية ونسوا الأمر برمته.

واحد آخر ظل ينتظر ..

واحد آخر ظل يتبع (جابر) كظله .. أينما يذهب يكون هو خلفه حتى كاد يعد عليه أنفاسه ..

واحد آخر لم يستطع رفض طلب (مادلين) حين طلبت منه مراقبة (جابر) ومعرفة ما يخفيه ..

واحد أسمه (كمال).

ظل هذا الأخير يتبع (جابر) طوال الأيام الماضية دون أن يستخلص أى معلومة قد تُفيد (مادلين) أو والدها حتى كاد ييأس ويعود لها ليخبرها أنه لم يستطع الحصول منه على شئ وأنه عليها أن تنسى الموضوع لفترة طالما الوغد شديد الحذر بهذا الشكل .. إلى أن أتى

هـذا اليـوم الموعـود .. كان يومًـا عاصفًـا لم تهـدأ الريـاح فيـه لحظـة واحـدة فبـدا وكأنهـا تريـد لـو تقتلـع كل شئ مـن جـذوره لتخـلى الساحة أمامهـا لتصفـر وحيـدة فى قفـر مهجـور.

مـع أنتصـاف الليـل أغلقـت أبـواب المقهـى وغـادر كل مـن فيهـا إلى بيوتهـم وهـم يسيرون عـبر شـوارع سـاكنة خاليـة ومعهـم غـادر (جابر) وتحفـز (كـمال) .. شـيئًا مـا بداخلـه أخـبره أن الليلـة سـتكون مختلفـة .. سـتكون غـير أى ليلـة سـابقة .. وبالفعـل وكأن (جابـر) لم يـرد أن يُخيـب ظنونـه وجـده (كـمال) وقـد أتخـذ خـط سـير مختلـف عـن مساره المعتـاد إلى منزلـه .. يتلفـت يمينًـا ويسـارًا شـأن مـن يخـشى أن يكـون مُراقَـب وبخطـى حـذرة متوتـرة سـار خلفـه .. كان لا يريـد أن يلفـت أنتباهـه فيفتضـح أمـره ومعـه يأخـذ (جابـر) كل الحـذر ويضيـع كل شـئ لذلـك ظـل يحافـظ عـلى مسـافة بينهـما حتـى وجـد (جابـر) يتوجـه بخطـى ثابتـة نحـو المخـزن الـسرى الـذى يملكـه (أسـتيفانوس) ويفتـح أقفالـه وينسـل إلى الداخـل.

ظـل (كـمال) واقفًـا بالخـارج لفـترة لا يـدرى مـاذا يفعـل .. هـل ينتظـر بالخـارج حتـى يظهـر (جابـر) أم يغامـر ويتقـدم ليُلقـى نظـرة عـلى مـا يـدور بالداخـل ..

كان الفضـول يقتلـه وهـو لا يـدرى مـا سـبب تواجـد (جابـر) فى هـذا المكان الآن والأغـرب أنـه قـدم هنـا وحـده وفتـح بمفاتيـح خاصـة بـه .. منـذ متـى وهـو يحمـل مفاتيحـه الخاصـة .. (مادلـين) قالـت لـه أنـه لا يملـك واحـدة .. إذن هـو يحمـل هـذه النسـخة دون علمهـما فلـماذا؟ .. بـدأ الشـك يـدب بقلبـه فحسـم قـراره .. سـيلقى نظـرة واحـدة تكشـف

لـه كل شـئ ثـم يغـادر عـلى الفـور عندهـا يكـون قـد أوفى بوعـده وفعل كل شـئ مـن أجـل (مادلـين) .. ببـطء حـذر بـدأ يتقـدم .. نظـر حولـه فى كل إتجـاه قبـل أن يخطـو إلى الداخـل وقـد ضايقتـه الظلمـة التـى تسـود المـكان فبقـى فى مكانـه لفـترة حتـى أعتـادت عينـاه هـذا الظـلام وبـدأ يميـز بعـض الموجـودات داخـل المخـزن ثـم تحـرك يسـتطلع المـكان وهـو يخـشى فى كل لحظـة أن ينقـض عليـه (جابـر) فتسـوء العاقبـة.

كان المخـزن كبـيرًا بالفعـل ربمـا لم يتخيـل (كـمال) أنـه بهذا الأتسـاع لكنه أيضًـا كان ممتلـئ عـن آخـره حتـى أنـه تسـاءل من أيـن ل(أسـتيفانوس) بـكل هـذه الأمـوال التـى أشـترى بهـا هـذه البضائـع؟ .. كيـف سـيبيعها؟ .. مـاذا تـرك لغـيره إذا كان هـو وحـده يمتلـك كل هـذا.

سـار بحـذر متسـترًا بأكيـاس ضخمـة مـن البضاعـة وهـو يبحـث بعينيـه عـن هـذا الشـبح الـذى دخـل وأختفـى كأنـه تبخـر فلـم يبـق منه أثـر .. مـرت ثـوان لم يجـد فيهـا أحـدًا ولم يـدر مـاذا يفعـل حتـى بـدأ الخـوف يـدب فى نفسـه فحسـم أمـره وقـرر أن يتراجـع .. لكـن فى تلـك اللحظـة سـمع صوتًـا خافتًـا كأن أحـدًا يعبـث فى شـئ مـا خلـف هـذا الركـن المكـدس بالبضائـع .. غلبـه الفضـول وشـعر بالخـزى مـن نفسـه حـين تملكـه الخـوف فقـرر أن يسـتجمع شـجاعته ويُلقـى نظـرة وبالفعـل وضـع تفكـيره موضـع التنفيـذ وخطـا حـول تلـك البضائـع يسـتطلع مـا خلفهـا ..

وهناك كانت بإنتظاره مفاجئة.

الفصل الثامن عشر

قلق شديد تملك (مادلين) فى اليومين الأخيرين .. قلق من النوع المفزع الذى يهاجمك بضراوة وتوحش فينهش روحك ويتركها أشلاء ممزقة .. قلق على حبيب أختفى فجأة دون أدنى أثر وبدون سابق إنذار .. حبيب دفعته بنفسها للقيام بمهمة غاب على إثرها منذ يومين دون أن يظهر أو تسمع عنه خبر يطمئنها ..

هى تحبه .. نعم تحبه بكل ما بقلبها من طاقة للحب وهى لا تخجل من الأعتراف بهذا ليس فقط بينها وبين نفسها ولكن أمام الناس جميعًا حتى أقربهم إليها .. والدها.

لذلك ظلت تفرك يديها فى توتر وتكاد لا تستقر بمكان ووالدها ينظر إليها وإلى قلقها قبل أن يقول:

- (مادلين) يجب أن تهدئى ربما ليس هناك سببًا ما لغيابه هذا.

التفتت إليه وقد جعل توترها نبراتها أكثر حدة وهى تقول:

- كيف يكون غيابه بدون سبب .. أنه يعلم خطورة ما نحن فيه وأننا ننتظر منه الأخبار على أحر من الجمر فهل هناك مبرر يدفعه للأختفاء هكذا دون أن يترك خلفه أدنى أثر .. لقد سألت عليه فى بيته وأمه لا تعرف عنه أى شئ مثلنا وقلقها أكثر من قلقنا وفى عمله لم يروه من يومها وأعتبروا غيابه غير المسبب

أنقطاعًا عن العمل.

تساءل (أستيفانوس) فى دهشة:

- وماذا بيدنا لنفعله؟

أجابته فى ضيق قائلة:

- أى شئ .. أى شئ غير أنتظارنا هذا.

ثم حدقت فى وجهه وهى تردف قائلة:

- ربما الجواب عند (محمود).

تساءل (أستيفانوس) مرة أخرى بدهشة أكبر:

- ماذا تقصدين؟

أجابته وقد بدت شاردة تفكر:

- ربما لاحظ (محمود) أن (كمال) يتعقبه فطاله بمكروه.

صاح فى هلع:

- هل جننت؟

صاحت هى الأخرى وقد فقدت السيطرة على أعصابها:

- قل لى عن سبب آخر يدفعه للأختفاء بهذا الشكل .. قل لى لماذا يترك بيته وعمله ويتركنا هكذا بدون سبب؟ .. ولماذا لم يحدث هذا سوى الآن عندما بدأ يلاحق (محمود)؟

ثم أكملت وهى تلتقط حقيبتها وتندفع نحو باب المنزل قائلة:

- كما قلت لك .. الجواب عند (محمود) وسأعرفه الآن.

وصفقت الباب خلفها بمنتهى القوة.

*****

متوارية عن الأنظار وعلى الناصية المواجهة للمقهى وقفت تنتظره..

تابعته بعينها وهو ينهى عمله ويغادر متجهًا إلى بيته .. كان الوقت متأخرًا لكنها سارت خلفه تتبعه وقد قررت أن تحسم معه الأمر الليلة وتعرف منه عن (كمال) ليهدأ وجيب قلبها ويستريح من وحش القلق الذى ينهشه ليل نهار.

كان (جابر) يسير متمهلًا وكأن لديه وقت الدنيا كله وقد وضع يديه فى جيبى بنطاله وهو يطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا تزجية للوقت حتى صادفه أول شارع جانبى فسلكه على الفور ومن خلفه (مادلين) تتبعه كظله .. أسرعت الأخيرة الخطى بعد أن غاب (جابر) عن نظرها خشية أن تفقد أثره فسارت فى خطوات واسعة حتى بلغت هذا الشارع الجانبى فدخلت فيه لترتطم بمن يقف فى مواجهتها ليسد عليها الطريق.

شهقت (مادلين) فى فزع وتراجعت للخلف فى رعب وهى تنظر إلى (جابر) الذى وقف أمامها هادئًا وقد شبك يديه أمام صدره وعلى وجهه أبتسامة واثقة ثم قال فى سخرية:

- يالسعدى .. (مادلين) هانم تسعى خلفى.

تمالكت (مادلين) أعصابها وأخذت نفسًا عميقًا تهدئ به من روعها قبل أن تقول وهى تنظر إلى هذا الأخير:

- نعم يا (محمود) فى الحقيقة أنا أسعى خلفك.

تساءل (جابر) والأبتسامة الساخرة لاتزال على وجهه:

- ولماذا يا ترى .. ماذا فعلت لأنال هذا الشرف؟

قالت (مادلين) بجدية وهى تنظر بمقت لإبتسامته الساخرة:

- لا داعى للف والدوران يا (محمود).

- لا أفهم.

قالت فى حدة:

- بل أنت تفهم جيدًا.

ثم التقطت نفسًا عميقًا زفرته فى قوة قبل أن تسأله بثبات:

- أين (كمال) يا (محمود)؟

- (كمال) من؟

- أنت تعلم.

أرتسـمت معـالم الأندهـاش عـلى وجهـه وإن أيقنـت هـى أنـه كاذب ثـم قـال:

- وما شأنى أنا بهذا الشخص.

كررت سؤالها فى تحد:

- أين هو يا (محمود)؟

قرب وجهه من وجهها وببسمة ترتسم على ركن فمه سألها:

- هل حقًا تريدين رؤيته؟

أجابت فى ثبات:

- نعم.

- والثمن.

ألقاها مرة واحدة فرفعت حاجبيها فى دهشة قبل أن تسأل:

- ماذا تريد؟

نظر فى عينيها قبل أن يسألها هو قائلًا:

- هل ستنفذين ما أطلبه منك؟

أجابته بسرعة:

- سأفعل أى شئ تطلبه.

- أيا كان.

أومأت برأسها إيجابًا وهى تردد خلفه قائلة:

- أيا كان.

قال وهو يبتسم فى سخرية:

- ألهذه الدرجة تحبينه؟

صاحت فى عصبية:

- هذا ليس من شأنك.

نظر لها فى تحد قائلًا:

- مـن قـال أنى أعـرف أى شـئ عـن مـكان حبيبـك هـذا ومـا علاقتـى بـه مـن الأسـاس .. أننـى حتـى لا أعرفـه.

صاحت (مادلين) فى عصبية أشد:

- (محمـود) لا تراوغنـى .. كلامـك يؤكـد أنـك تعلـم عنـه كل شـئ وتعـرف أيـن هـو الآن فـلا داعـى لهـذه الألاعيـب.

ثم تهدج صوتها وأنخفض وهى تقول فى أستعطاف:

- (محمـود) أنـا أعلـم أنى جرحتـك ولـن أبـرر نفسى أمامـك ولكـن ليكـن أنتقامـك منـى أنـا ولا تأخـذه بذنـب ليـس ذنبه.

وأنحدرت دموعها لتغرق وجهها وهى تكمل قائلة:

- أرجوك يا (محمود) .. أرجوك خذنى إليه.

ظـل (جابـر) يتطلـع إليهـا وهـى تبـكى أمامـه وتسـتعطفه بينـما بداخلـه بـركان يفـور ويقـذف حمـم الغضـب لتغـرق كل مـا بداخلـه .. لم تكـن الشـفقة أو الرحمـة لتعـرف سـبيلًا إلى قلبـه بعـد كل مـا مـر بـه ومـا

لاقاه مِن كل مَن حوله لذلك لم يكن يشعر تجاهها فى تلك اللحظة سوى بالمقت .. المقت الشديد.

مزيج من المشاعر المختلطة التى لا يعرف لها دواء ولا يملك منها مهرب ..

مزيج من الرغبة العارمة والوله والأفتتان مع كثير من البرودة والمقت.

كان كناسك أفنى عمره يتعبد فى إله لم يعد يشعر بوجوده أو كحارس أضاع أيامه فى حراسة خزائن فارغة لا قيمة لها ..

لقد أمضى أيامه الماضية يحلم ..

يحلم بحياته مع (مادلين) وأرتباطهما الأبدى الذى لا أنفصام فيه وكيف سيبدأ حياته معها من البداية ..

كيف سيكون أسرة جميلة ويعيش معها أيامًا هانئة سعيدة بعيدًا عن عالم القتل والخيانة ..

كيف سيعمل معها ومع والدها ينمى تجارتهما وينسى معهما ماضيه الأسود وأيامه التى أصبحت كوابيس تلاحقه كلما أغمض عينيه ..

كيف سيتقدم بهما العمر هو وهى ويشيخا معًا بينما الحب بينهما لايزال متقدًا والأخلاص والوفاء ميثاق لم ولن ينقضوه ..

ظل يبنى مستقبلًا كقصور من رمال ضربتها موجة قسوتها بلا رحمة ..

أوهام عاش فيها بكل جوارحه ليستيقظ منها على صفعة مدوية هزته من الداخل وضعضعت كيانه المتداعى من الأساس ..

نعم كانت (مادلين) حبه الأول والأخير لكنها بمنتهى السهولة خانته وتلاعبت بقلبه .. أستغلته لتحقيق مصالحها ومصالح والدها بينما عقلها لم ينشغل به .. قلبها لم يلفظ أسمه ولو مرة واحدة .. والآن تأتى لتستعطفه بل وتبكى بين يديه من أجل شخص آخر .. أى قسوة بل أى قلب هذا.

تركها تبكى وتنتحب أمامه ثم قال لها بصوت جامد:

- لم أكن أعلم أنك تحبيه لهذه الدرجة.

ثم أكمل وقد أتخذ قراره:

- سأجعلك تريه.

بدأت تشكره بشدة لكنه أستوقفها بإشارة من يده وقال:

- لكنك من الآن ستطيعين أوامرى بلا مناقشة.

هزت رأسها موافقة فسار فى طريقه وهى خلفه لا تدرى إلى أين يذهب ولكنها كانت على أستعداد أن تذهب للجحيم إذا أقتضى الأمر من أجل أن تطمئن على (كمال) .. (كمال) الذى لم تفارق صورته عيناها منذ غيابه .. لم تكن تتوقع ولو للحظة واحدة أن تقع فى الحب بهذه الطريقة .. أن يكون عندها أستعداد لأن تضحى بكل شئ حتى بحياتها من أجله هو.

ظل (جابر) فى طريقه وهى خلفه حتى وصل إلى بنايته ففتح باب غرفته وهو يقول لها:

- تفضلى.

ترددت للحظة فقال يستحثها:

- أدخلى يا (مادلين) ولا تخافى .. سأجمعك بمن تحبين قريبًا.

دخلت خلفه فأغلق الباب ودعاها للجلوس وهم بإعداد كوبين من الشاى فصاحت (مادلين) قائلة وقد لاحظت ما يفعله:

- ماذا تفعل يا (محمود) .. هل هذا وقته؟

قال وهو يحمل الكوبين ويستدير إليها:

- علينا أن ننتظر قليلًا وبعدها سنتحرك معًا لنذهب إليه.

ناولها كوبها قبل أن يجلس بجانبها وهو يقول:

- سامحينى يا (مادلين) .. لقد أحببتك بصدق ولم أقصد أن أسئ إليك.

رشفت (مادلين) الشاى فى رشفات سريعة وكأنها تستعجل الدقائق لتمر وقالت:

- أسامحك يا (محمود) .. ولكن دعنا ننسى ما فات ونسوى خلافاتنا بما يُرضى كل الأطراف.

هز رأسه موافقًا وقال وهو ينظر إليها:

- معك حق .. بعد أن يجتمع شملك أنت و(كمال) سأسوى كل شئ مع والدك .. أعدك بهذا.

أبتسمت له وإن زاغت عينها قليلًا ودارت رأسها فقالت فى دهشة:

- ما هذا؟

سألها (جابر) وهو يحملق فيها:

- ماذا بك؟

أجابته بصوت مرتجف وهى تضع يدها على رأسها:

- رأسى تدور بشدة.

ثم نظرت له وهى تجاهد كى تفتح عينيها وقد أصبح وزن جفناها

ثقيلًا :

- أننى أراك بصعوبة.

ثم أكملت فى فزع:

- ماذا فعلت بى؟

نهض من مكانه والتقط كوب الشاى من يدها قبل أن يُجيبها قائـلًا:

- فعلت ما وعدتك به .. وهو أن أجمعك بحبيبك الفاشل قريبًا.

حاولت النهوض بل جاهدت لتحرر نفسها من أسر هذا الضباب الذى أحاط بعقلها لكنها فشلت وقد خذلتها إرادتها فسقطت مكانها مرة أخرى ومالت على جانبها الأيمن وغرقت فى سبات عميق فأقترب (جابر) منها ومد يديه لتحيط برقبتها وهم بأن يعتصرها قبل أن يتوقف مرة واحدة ويده تتراجع وتتحسس جسدها بشبق غلب على عقله وقال وهو يبتلع ريقه بصوت مسموع:

- سأرسلك إليه لكن قبلها ستكونين لى .. لى وحدى.

مد يده ينزع عنها ملابسها بل أنه بالأحرى مزقها من على جسدها بمنتهى العنف حتى وجد نفسه يتطلع إليها وهى تستلقى أمامه عارية وعيناه تتخلل كل تفصيلة فى جسدها الذى طالما أثاره .. لم يتخيل حتى فى أجمل أحلامه أن تكون بكل هذا القدر من الفتنة .. وكأنه لم يرى أمرأة أخرى فى حياته من قبل.

كانت (مادلين) بالفعل مثال للفتنة المجسدة .. كل تفصيلة فيها كانت تنضح بالجمال والغواية .. خطوط ومنحنيات جسدها كانت وكأنها رسمت بيد رسام عاشق حتى أنفاسها كانت عطرًا يُنفث فى

أجواء الغرفة الخانقة .. رائحتها التى طالما أسكرته .. أضف إلى ذلك حالة الوله والعشق المسيطرة على (جابر) منذ أن رآها أول مرة لتعرف أحساسه الآن وهو يرقبها عارية.

كل هذا دفعه لينقض عليها مباشرة ..

يقتحمها دون تمهيد وبكل ما فى الكلمة من معنى وكأن كل عضلات جسده مسخرة لهذا الأمر بل وكأنها خُلقت لهذا من الأساس ..

كانت شفتاه تلتقم أى شئ منها ويداه تقبض بقوة على ما تلقاه من جسدها بينما كان يدفع نفسه ليلتحم بجسدها أكثر وأكثر وهو يلهث بشدة من فرط الشهوة .. كان فى إغتصابه لها نوع من أسترداد الحق المسلوب .. نوع من التشفى والأنتقام .. فالآن والآن فقط أصبحت (مادلين) له حتى ولو كانت مسلوبة الإرادة .. حتى ولو كانت فى غير وعيها .. المهم أنها الآن بين يديه خاضعة له بالكامل يفعل بها ما يشاء وهو كان يتمنى هذه اللحظة منذ فترة طويلة منذ أن صاحبته فى خيالاته وصارت سيدة أحلامه بلا منازع.

ظل يضاجعها بقوة وبلا توقف لمدة طويلة .. كان ينهل منها فلا يرتوى ولا تنطفئ ناره فينهل من جديد حتى تفصدت قطرات العرق من جسده لتغمرهما معًا .. وتصاعد لهاثه أكثر وأكثر حتى صار كشهقات جائعة للهواء وهو لا يتوقف حتى فقد القدرة على التحكم فى نفسه وتقطعت أنفاسه فهمدت حركته بعد أن طبع بصماته على كل جسدها فهم بتنفيذ ما كان سيفعله منذ البداية وما وعدها به من قبل إلا أن أصابعه تجمدت مرة أخرى ليس بسبب الرغبة هذه المرة ولكن بسبب صوت الطرق الشديد ..

الطرق الذى تصاعد على باب غرفته.

*****

كانت لحظة قاسية بالنسبة إليه .. ف(مادلين) أمامه لاتزال مستلقية فاقدة الوعى وهو وهى لايزالان على عريهما .. إن هذا الزائر والحق يقال أختار أسوأ الأوقات للزيارة .. إلا أن هذا لم يمنع (جابر) من أن يتصرف بسرعة قدر المستطاع فأرتدى ملابسه على عجل وحمل (مادلين) الغائبة عن الوعى ووضعها فى الحجرة الأخرى وأغلق الباب عليها بإحكام قبل أن يعدل من هندامه وهو يصيح:

- أنا قادم.

قالها وفتح الباب ليطالعه وجه صغير .. كانت (أنتصار) أبنه الحاجة (سميحة) .. المريضة التى تسكن الدور العلوى .. أول ما رآها حتى أرتفع حاجباه فى دهشة فهذه كانت أول مرة تطرق عليه باب غرفته لذلك سألها:

- ماذا هناك يا (أنتصار)؟

أجابته وعيناها تجوبان فضاء الغرفة من خلفه:

- لا شئ .. لقد كنت صاعدة لمنزلنا فسمعت أصواتًا عالية تنبعث من هنا فخفت أن يكون هناك شيئًا ما أو أن يكون مكروه قد أصابك فنحن جيران وأنت كنت شهمًا مع أمى فى مرضها آخر مرة حين تبرعت بشراء الدواء بنفسك.

هز رأسه أن لا شئ هناك وهم بقول شئ ما إلا أنه قاطعته آهة

ألم أنبعثت من داخل الغرفة .. كانت آهه خافتة لكنه التقطها وخشى أن تكون الفتاة أيضًا قد سمعتها لذلك سألها وهو يتابع مسار عيناها القلقتين:

- هل تبحثين عن شئ؟

أجابته بسرعة مذعورة:

- أنا .. لا أبدًا.

فقال (جابر) وهو يفسح لها الطريق ويقول بينه وبين نفسه أن اليوم ستكون هناك جثتين لا جثة واحدة:

- إذن أدخلى يا (أنتصار) .. لن تبقى بالخارج هكذا.

تراجعت للخلف فى خوف واضح وهى تصيح:

- لا .. لا .. لقد تأخرت على أمى.

ثم أتبعتها وهى ترتقى درجات السلم بسرعة:

- لقد كنت فقط أطمئن عليك.

تابعها حتى غابت عن نظره وقد بدأ الشك يدب فى قلبه من ناحية هذه الفتاة فهى على صغر سنها تملك عقلًا راجحًا وتتصرف أكبر من سنوات عمرها العشر كما أن تصرفها هذا يدل على أنها تشُك فيه أو أنها لاحظت أشياء الفترة الماضية يحاول هو إخفاءها قد المستطاع لكن لكل شئ وقته ليرجئ الآن التفكير فى تصرفات هذه الفتاة المريبة وليركز حاليًا على ما بدأه ولم ينهه بعد لذلك أغلق باب غرفته جيدًا وأشعل كمية البخور الضخمة التى أعتاد أشعالها حتى صارت لا تنقطع من عنده ثم توجه للغرفة الأخرى ليفتحها ويدلف إلى الداخل.

كان يتوقع أن يجد (مادلين) وقد بدأت تستفيق من غيبوبتها لكنه فوجئ بمن تنقض عليه فى شراسة وتغرس أظفارها فى وجهه بمنتهى القوة حتى أنه أطلق صرخة ألم شديدة قبل أن يدفعها بعيدًا عنه وهو يقول فى قسوة:

- كنت أعلم أنك مختلفة.

ثم هجم عليها وأنهال على وجهها بالضرب المبرح حتى تراخت مقاومتها فألصق وجهها بالحائط وكبل ذراعيها خلف ظهرها بيده اليمنى وأحاط عنقها بذراعه اليسرى وقال وهو يقرب شفتيه من أذنها:

- أنت مختلفة عن الأخريات حتى فى الموت.

حاولت (مادلين) أن تقاوم وأن تخفف ضغط ذراعه عن عنقها ..

أن تجاهد لتحرر نفسها ..

أن تستغل القوة الدافعة التى تعطيها لها غريزة البقاء لتقاتل وتحيا .. لكن حالتها بعد التخدير وأيضًا أرهاقها لحد الأنهاك ودماؤها التى تغرق أسفلها بعد الأنتهاك الوحشى الذى تعرضت له كانت كلها عوامل تلعب ضدها فى مباراة غير متكافئة كانت نهايتها محسومة قرأتها قبل أن تبدأ فتدريجيًا قلت مقاومتها وتهاوت ضربات يديها اليائسة وبدأت الدنيا تظلم من جديد ولكن بشكل أخير هذه المرة ولم تسمع قبل النهاية سوى جملة واحدة قالها (جابر) بمنتهى البرود وهو يقبل جانب وجهها بينما ذراعه الأخرى تعتصر الحياة منها إعتصارًا:

- حقاً .. أنت خسارة فى الموت.

*****

الفصل التاسع عشر

حقًا لم تعد الأمور كما كانت فى الحى كله .. صار الأمر أكبر من السكوت عليه ومن مجرد إشاعات وحوارات جانبية تتبعها مصمصة شفاه بل صارت حوادث الأختفاء والقتل محور أحاديث الناس بلا منازع يبدأون يومهم بها ويستمرون خلاله فى متابعتها ويُنهونه وقد حللوا وفندوا ووضعوا الأستنتاجات فقط ليبدأ يوم جديد بأحاديث جديدة لا تنتهى.

بعد مضى أكثر من يوم على إختفاء (مادلين) لم يعد أمام (أستيفانوس) سوى حل واحد أخير وهو أن يبلغ الشرطة .. والحقيقة أن بلاغ (أستيفانوس) كان مثار أهتمام كبير من رجال الأمن خاصة وهو ليس البلاغ الأول لوقائع أختفاء فتاة بل هو الثالث حيث سبقتها كل من (زينات) و(درية) بل وتعدى الأمر خطف الفتيات ليأتى بلاغ عن غياب وأختفاء شاب فى مقتبل العمر يدعى (كمال أنطون).

كان (أستيفانوس) الآن فى حالة يرثى لها من التوتر والخوف ..

أحساس بالبؤس أنتابه منذ غابت شمسه التى رافقته أيامه دون لحظة غياب ..

نعم كانت تلك أول مرة تغيب عنه فيها (مادلين) كل هذه المدة .. لقد أحس الآن كم يفتقدها وكيف أنه لم يعرف حياة الوحدة من قبل ولا يتخيل أن يعيش لحظة واحدة من دونها ..

كان على إستعداد ليدفع كل ثروته فى سبيل أن يطمئن عليها ويراها أمامه مرة أخرى .. أن يعرف فقط أنها بخير وأنه لا مكروهًا أصابها.

كان القلق يعتصره لأنه حتى الآن لا سبيل يهتدى به إليها ولا هناك دليل يقوده أو يقود غيره لمكانها .. حتى رجال الشرطة الذين أبلغهم بنفسه وأفضى لهم بكل مخاوفه وشكوكه وشاركهم وساوس تنهش قلبه وتكاد تفتك بعقله لم يُقدموا له أى جديد وكأن أبنته مثلها مثل غيرها ممن سمع عنهم وعن أختفاءهم قد ذابت بلا أثر كحبة ملح فى بحر عريض أو كأبرة فى كومة قش.

سارت التحقيقات فى رتابة كالعادة وأنتهت على لا شئ بل وتحمل مرغمًا غمزات بعضهم بأن أبنته ربما هجرته مع عشيقها وهذا يفسر سبب أختفاءهما معًا وفى نفس التوقيت أما عن شكه فى (محمود) والذى أفضى به إليهم فلم يجد لديهم أذنًا مصغية خاصة وأنه لا يوجد دليل واحد على علاقته بالأمر كما أن شهادة صاحب المقهى (شعبان جودة) جاءت كلها فى صالحه حيث قال أنه كان معه الفترة الماضية فى أعمال المقهى وكان يمضى معه أغلب اليوم تقريبًا من الصباح الباكر للمساء كما أن هناك أيضًا سببًا وجيهًا جعلهم يستبعدون أى شبهة عليه .. وهو أن (أستيفانوس) نفسه لم يذكر فى أى تحقيق رسمى صلته ب(محمود) ولا الأعمال المشبوهة التى كانا يرتبان لها سويًا .. كانت خشيته من أفتضاح

أمره وإدانته بإعترافه تجعله يخفى تلك المعلومات عن أى أحد ربما لأنه لم يكن يملك الدليل الذى يدعم به مزاعمه ولأن أحدًا ممن يشاركونه هذا العمل الخفى لن يتبرع بالشهادة فى قضية تدينه من أجل أمر لا ناقة له فيها ولا جمل فلا موظف الميناء ولا حتى السائق سينطقون بحرف بل سينكرون أى معرفة لهم ب(محمود) وبه هو شخصيًا.

أنتهى به الأمر وحيدًا فى منزله لا يدرى ماذا يفعل وقد أُسقط فى يده .. جلس متفكرًا يحسب خطواته القادمة وسط طوفان من مشاعر اليأس والأحباط حتى لاح له أسم ظهر فجأة أمام عينيه وأضاء بقوة داخل عقله ..

(سليم فتوح) ..

كان (سليم) من أكثر الداعمين له أثناء بحثه عن أبنته وهو أكثر من التفت لكلماته وأثار أهتمامه أسم (محمود) الذى أتى على لسانه فى التحقيقات وقد دب الشك فى قلبه أكثر حين علم من (أستيفانوس) أن (مادلين) كانت تحب (كمال) هذا بحق ولأنه هو يعلم شخصيتها جيدًا فهو متأكد من أنها لم تهرب معه بل هى ليست فى أحتياج لهذا من الأساس فهى قادرة بكل تأكيد على فرض إرادتها حتى على والدها ولو شاءت أن تحب (كمال) فستحبه .. ولو شاءت أن تتزوجه فستتزوجه مهما كانت الصعوبات أو التحديات.

كان اللقاء بينهما فى الوكالة عند (أستيفانوس) ..

على مكتب الأخير وبعيدًا عن مسترقى السمع وفى وقت تأخر

فخفت فيه أرجل الزبائن وقلت حركة البيع جلس (سليم) ببنيانه الضخم كما أعتاد كملك متوج أراح ظهره فى المقعد ووضع ساقًا على الأخرى قبل أن يسأل (أستيفانوس) الذى يجلس مترقبًا:

- طلبت لقائى أكثر من مرة يا خواجة فماذا تريد؟

أجاب (أستيفانوس) بصوت حزين مكسور:

- أبنتى .. أبنتى يا (سليم) بك.

قلب (سليم) كفيه فى حيرة وهو يقول:

- وماذا بيدى لأفعله يا (أستيفانوس) .. لقد تابعت معك التحقيقات من بدايتها لنهايتها وهذا من أجل خاطرك ثم أن البحث لايزال جاريًا عنها حتى الآن وأنا أتابعه من أجلك يوميًا ماذا أفعل أكثر من هذا؟

- أن تأتى لى بأبنتى.

قالها (أستيفانوس) فحدق فيه (سليم) وقد ظن بعقله الظنون قبل أن يقول فى دهشة:

- تتحدث كما لو كنت أنا خاطفها.

- لست خاطفها لكنك تعلم من هو.

هز رأسه فى فهم وأردف:

- تقصد (محمود).

أومأ (أستيفانوس) برأسه إيجابًا وقال فى أسى:

- نعم (محمود) .. ليس هناك غيره ولا يوجد أحد آخر مستفيد من خطفها أو قد يتسبب فيه غيره هو.

تساءل (سليم) فى دهشة:

- ولماذا (محمود) بالذات؟

- لا أفهم.

قالها (أستيفانوس) متصنعًا الجهل فقال (سليم) فى صرامة:

- بل أنت تفهمنى جيدًا .. قلت أنه المستفيد الوحيد من خطفها فلماذا؟

صمت (أستيفانوس) ولم يعقب فحدجه بنظرة أكثر صرامة وقال:

- ما وجه أستفادته من خطف أبنتك ثم ما علاقتك به من الأساس .. ما الذى يجمع بين خواجة صاحب وكالة مانيفاتورة كبير مثلك وشاب صعيدى يعمل فى مقهى؟

ظل (أستيفانوس) على صمته فهب (سليم) من مكانه وصاح فى غضب:

- لا داعى لإضاعة وقتى بعد الآن طالما أنت تريد أن تبقى على صمتك هذا.

هب (أستيفانوس) من مكانه بدوره وأمسك بيده يستبقيه قائلًا:

- أجلس يا (سليم) بك من فضلك.

ثم حنى رأسه فى يأس قائلًا فى أستعطاف:

- لا تتركنى فى هذا الموقف أرجوك.

بقى (سليم) فى مكانه يتطلع إليه بملامح غاضبة فقال (أستيفانوس) مرة أخرى وكأنه يستحلفه:

- أرجوك.

- ستخبرنى بكل شئ وستكشف الغموض عن علاقتك بهذا الشاب إن كنت تريد مساعدتى.

هـز (أسـتيفانوس) رأسـه موافقًـا فعـاد (سـليم) ليجلـس مكانـه فجلـس (أسـتيفانوس) هـو الآخـر خلـف مكتبـه وقـال:

- ماذا تريد أن تعرف؟

أجاب (سليم) فى صرامة منذرة:

- كل شئ.

أخـذ (أسـتيفانوس) شـهيقًا عميقًـا وزفـره فى قـوة ليخفـف مـن حـدة توتـره وجـال ببـصره حولهـما ليتأكـد أنـه لا أحـد قريـب أو يسـترق السـمع لحديثهـما قبـل أن يقـول:

- مـا سـأخبرك بـه الآن سرى الخـاص الـذى لا يعرفـه أحـد سـوى أقـرب النـاس إلى ولهـذا السـبب لم أكـن أسـتطع أن أبـوح بـه لأحـد حتـى أثنـاء التحقيقات.

أثـارت الجملـة الأخـيرة أنتبـاه (سـليم) ودغدغـت الحاسـة الأمنيـة لديـه فنظـر إلى (أسـتيفانوس) بإهتـمام يسـتحثه أن يكمـل فقـال الأخـير:

- لقـد كنـت أقـوم ببعـض الأعـمال فى الخفـاء بعيـدًا عـن أعـين الجميـع وكانـت أبنتـى (مادلـين) تسـاعدنى فى بعـض هـذه الأعـمال مـن آن لآخـر لكنـى كنـت أبعدهـا عـن كل الأعـمال الخطـرة التـى تحتـاج رجـلًا للقيـام بهـا وكنـت أقـوم بهـا وحـدى حتـى رأيـت (محمـود) ففكـرت أن أجعلـه يقـوم هـو بهـذه الأعـمال الخطـرة ويكـون فى المواجهـة وأبقـى أنـا وأبنتـى بعيـدًا عـن الأعـين لقـد قلـت لنفسـى لم لا وقـد كـبرت ولم أعـد قـادرًا عـلى هـذه المشـقة وهـو شـاب صغـير ووحيـد بـلا أهـل أو أقـارب.

- وهل قَبِل؟

سأل (سليم) فأبتسم (أستيفانوس) أبتسامة خفيفة سرعان ما زالت من على وجهه وقال:

- لا أحد يرفض طلب ل(مادلين).

أبتسم (سليم) فى سخرية قبل أن يعود ويسأل:

- وما هو نوع الأعمال التى كنتم تقومون بها؟

تحرج (أستيفانوس) فى الأجابة للحظات قبل أن يقول بصراحة:

- كنا نهرب البضائع من الميناء لمخزن سرى خاص بى.

أطلق (سليم) صفيرًا من بين شفتيه وهو ينظر إلى (أستيفانوس) فى دهشة قبل أن يقول:

- التجارة فى البضائع المهربة أكثر ربحًا بالتأكيد .. أليس كذلك؟

قال (أستيفانوس) فى مقت:

- كان هذا قبل أن يطمع فى هذا الوغد ويشق على عصا الطاعة.

- ماذا فعل؟

تساءل (سليم) فأجاب (أستيفانوس) بمقت أشد:

- سرقنى.

ظل (سليم) على صمته وبدا وكأنه غير مندهش من حدوث هذا الأمر فتابع:

- آخر مرة ذهب كالعادة إلى الميناء وكما هو متبع كان سيستلم البضائع ويعود بها إلى المخزن ليتم تخزينها هناك .. لكنه طمع فى المكسب كله لنفسه وأخذ السيارة إلى مكان آخر لا نعلمه أفرغ فيه البضائع وباعها لحسابه.

- وماذا فعلت أنت؟

- هددته .. لكنه رفض الأنصياع بل وهددنى بالمقابل ولم أدر ماذا أفعل خاصة وأن (مادلين) رفضت أن تُكمل علاقتها به أو أن يكون لها دخل بمثل هذه المواضيع مرة أخرى حتى أستحلفتها كى تتدخل بدلًا من أن يضيع كل شئ فى غمضة عين فأقترحت أن نجعل (كمال) فتاها التى تربطها به قصة حب وتستطيع أن تأتمنه على أسرارنا يسير خلف (محمود) .. قالت أنه لا يعرف شكله ولم يره من قبل ويمكنه أن يلاحق خطاه أينما ذهب عسى أن يكتشف هو ما خفى عنا نحن.

مط (سليم) شفتيه قبل أن يقول:

- وطبعاً أختفى (كمال) هذا بلا أثر.

قال (أستيفانوس) بسرعة:

- بل تبخر .. لقد قلبنا الدنيا كلها بحثًا عنه دون جدوى فلا أحد فى محيط مسكنه أو عمله يعلم عنه أى شئ.

- ها .. وماذا بعد؟

أجاب (أستيفانوس) فى ألم:

- بعد مرور أكثر من يوم على أختفاءه أرادت (مادلين) أن تبحث عنه .. كان أحساسها بالذنب يكاد يقتلها خاصة وأنها هى من طلبت منه هذه المهمة فقررت أن تسعى هى خلف من صار محل شكوكنا كلنا .. (محمود).

- وأختفت هى الأخرى.

قالها (سليم) منهيًا قصة (أستيفانوس) فأنتحب الأخير بصوت مسموع وقال:

- أنـا لا أدرى كيـف أتـصرف ولكـن كل مـا أعرفـه أن هـذا الوغـد لابـد وأنـه خلـف كل مـا حـدث لذلـك لجـأت إليـك لتسـاعدنى.

تساءل (سليم) فى مكر:

- وكيف أساعدك يا (أستيفانوس)؟

قال الأخير فى مداهنة:

- أنت رجل ذو سطوة ونفوذ وتقدر على فعل الكثير.

مد (سليم) يده وفرك سبابته وأبهامه فى علامة واضحة وهو يقول:

- ولكن هذا أيضًا سيكلفك الكثير.

بصبر وبأسلوب تاجر أعتاد البيع والشراء قال (أستيفانوس):

- سـيكون لـك كل مـا تطلبـه وأزيـدك عليـه أيضًـا لكنـى أريـد عـودة أبنتـى سـالمه فى أسرع وقـت مـع تأديـب الكلـب الـذى تسـبب فى غيابها.

قال (سليم) فى حذر:

- لنأمل فقط أن يكون تحركنا فى الوقت المناسب.

صاح (أستيفانوس) فى هلع:

- أتعنى أنه ربما يكون قد ..

لم يستطع أكمال جملته فقال (سليم) بسرعة:

- أنـا لا أقصـد شـيئًا ولا حتـى أتكهـن بمـا لا أعرفـه لكنـى أضـع أمامـك جميـع الأحتـمالات.

ثـم قـام مـن مكانـه فى ثقـل وقـال وهـو يسـتدير ليغـادر المـكان فى حـزم واثـق:

- سأرى ما يمكننى عمله.

قالهـا وغـادر تـاركًا (أسـتيفانوس) يجلـس متهدمًـا فى مقعـده لا يحـرك

ســاكنًا ..

يلملم أشلاء نفسه التى مزقتها كلمات (سليم) ..

وقلبه يبكى فى صمت غياب شمسه ..

(مادلين).

*****

الفصل العشرون

حين لاحظ وقوف رجال (سليم) على مسافة من المقهى يرصدون حركاته ويترقبون عَلِم أن اللقاء قريب .. اللقاء الذى لن يُبدى فيه (سليم) أى لمحة من تساهُل أو أى ذرة من شفقة أو رحمة.

كان يعلم أن اللقاء هذه المرة لن يكون للتحقيق معه أو حتى بغرض تأديبه كما المرة السابقة بل سيكون فيه نهايته لذلك أنهى عمله فى المقهى وهمس فى أذن (شعبان) بكلمات حذرة أنقلبت على أثرها سحنة الأخير وغادر يقصد وقوفهم .. كان سيره فى هدوء تجاههم محط أستغراب وتساؤل ودهشة غلبت عليهم فعلهم فتثبتوا فى أماكنهم وأُلجمت ألسنتهم حتى وقف هو بينهم وقال بمنتهى الهدوء:

- هيا بنا.

نظروا لبعضهم البعض وحاروا فيما يفعلون .. لقد كانوا يتوقعون هروبه أو حتى إبداء مقاومه كانت ستسعدهم وتدفعهم لممارسة هوايتهم فى ضربه أو التنكيل به لكن تصرفه قلب عليهم الطاولة فساروا به تجاه قسم الشرطة بدون كلمة واحدة حتى وجد (جابر) نفسه أمام مكتب (سليم) الذى أبتسم أبتسامة قاسية

وقـال:

- ها نحن نلتقى مرة ثانية يا عزيزى.

نظر له (جابر) فى هدوء تعمده فقال (سليم):

- أرجـو أن تكـون قـد تعلمـت مـن المـرة السـابقة ولا ترهقنـى فى أسـتجوابك فـإن لصـبرى حـدود تعرفهـا لذلـك سأسـألك سـؤالًا وأتوقـع منـك أجابـة فوريـة بـلا كـذب أو مواربـة.

ثم مال على مكتبه مكملًا:

- أين (مادلين)؟

ظل (جابر) على صمته لفترة قبل أن يقول ببطء:

- لا أعلم عنها شيئًا.

نظر له (سليم) فى غضب وسأله سؤالًا آخر:

- وأين الفتى (كمال)؟

أشاح (جابر) بوجهه إلى الناحية الأخرى ولم يُجب فقال:

- هكذا.

ثـم نهـض مـن خلـف مكتبـه وأمسـك بتلابيبـه وهـو يقـول بصـوت كظيـم:

- أسـمعنى جيـداً يـا أبـن العاهـرة .. أنـت لـن تخـرج مـن هنـا حتـى تنحـل عقـدة لسـانك فتخـرج جوابًـا يرضينـى وبعدهـا ستسـترحمنى ولتأمـل أن يكـون فى قلبـى متسـع لرحمـة لـك.

ثـم دفعـه بمنتهـى القـوة ناحيـة رجالـه الذيـن التقطـوا الأشـارة فأنهالـوا عليـه ضربًـا وصفعًـا كوحـوش جائعـة وجـدت مـن فورهـا فريسـة مستسـلمة حتـى أنبجـس الـدم مـن مواضـع شـتى فى جسـده وهـو

يكتم أناته حتى لا تسعد أذنى معذبيه فتكوم على الأرض يعض شفتيه فى ألم وغضب بينما الأرجل تستبيح كل بقعة من جسده فتصدع العظام وتهرس اللحم حتى غاب عنه وعيه بعد أن فقدت أرادته القدرة على المقاومة.

حين أفاق مرة أخرى على إثر دلو من الماء البارد أنسكب على رأسه كان فى مكان غير المكان ..

حجرة أخرى أشبه بقبو مظلم بلا نوافذ لا تدخله الشمس ولا يُسمع من داخله صوت .. كان مُقيدا لمقعد فى منتصف الحجرة وقد رُبطت يديه خلف ظهره وقدميه إلى بعضهما البعض وأمامه كان (سليم) يقف بين رجاله ويتطلع إليه مبتسمًا كفاتح منتصر ينظر فى وجه عدو متهدم ضاعت هيبته بعد أن فقد كل نصير له وقال:

- جميل أن أستعدت وعيك حتى نكمل ما بدأناه.

جز (جابر) على أسنانه من فرط الألم والبغض وهو يقول متوعدًا:

- سيأتى يوم تفقد فيه هيبتك المزعومة هذه وعندها لن ينجيك أحد.

أبتسم فى سخرية أشد وقال:

- عندما يأتى هذا اليوم .. هذا إن أتى .. ستكون أنت قد تعفنت فى قبرك منذ زمن.

- لن أدخل قبرى قبل أن أراك ذليلًا.

أطلق ضحكة مجلجلة ثم قال:

- يبدو أن الضرب أفقدك عقلك.

ثم أنقلبت ملامحه إلى الجدية وقال:

- والآن كفى هراءًا وأخبرنى أين (مادلين) وفتاها؟

صاح (جابر) فى غضب:

- أسأل صديقك فهو يعلم.

أنعقد حاجبا (سليم) وقال فى تساؤل:

- صديقى من؟

قال (جابر) فى تحد:

- (أستيفانوس).

قال (سليم) فى سخرية مستنكرة:

- أتقول أنه من خطفها ..

ثم أكمل فى صبر:

- يا فتى كن عاقلًا أم تريدنى أن أصدق أن الأب هو من خطف أبنته.

قال (جابر) فى تحد أكبر وهو يُكمل الدور الذى بدأه:

- لا ولكنه يعلم أين يُخفيها وأين يُخفى جثة عشيقها الخائن.

أنطلقت الكلمات كالسهام نحو عقل (سليم) تخترقه ..

لكن عقل هذا الأخير كان كالحصن المنيع ..

عقل فُطر على الدهاء والمكر .. عقل أثقلته الخبرة ودربته الدسائس والمؤامرات فتلقى السهم بأريحية وفند الرسالة التى يحملها بكل صبر ..

ما الذى يجعله يصدق كلام هذا الفتى؟ ..

ما الذى قد يدفع (أستيفانوس) لحجب أبنته وقتل حبيبها؟ ..

بـل ومـا الـذى يدفعـه للأسـتعانة بـه وطلـب خدماتـه ونقـده كل هـذه الأمـوال إن كان هـو حقًـا الفاعـل الحقيقـى؟ ..

توقـف عقلـه كثـيرًا عنـد التسـاؤل الأخـير ثـم ببـطء كَـسر السـهم المسـموم وتحركـت شـفتاه لترسـم بسـمة عـلى ركـن فمـه الأيـسر قبـل أن يقــول:

- محاولة فاشلة أيها الغرير.

ثـم أقـترب بنفسـه مـن المقعـد المقيـد إليـه (جابـر) وصفعـه صفعـة هائلـة عـلى وجهـه ثـم قـال فى صرامـة غاضبـة:

- عندما تفكر فى خداع الذئب لا تفكر بعقل حمل.

ثم قبض على شعره بيده ورفع رأسه قائلًا:

- لآخر مرة أين هما وماذا فعلت بهما؟

أجاب (جابر) فى إنهاك:

- لـو أعطيـت نفسـك الفرصـة لتسـمعنى وتفكـر فى كلامـى فسـتعرف حتـمًا أيـن هـما.

حـرر (سـليم) شـعره وجـذب كـرسى آخـر ليجلـس قبالتـه وهـو يشـير لرجالـه بمغـادرة الغرفـة وتابعهـم بعينـه حتـى خـرج آخرهـم ثـم التفت إلى (جابـر) المُقيـد آمـرًا:

- تكلم.

التقط (جابر) أنفاسه وبصق دماءًا تجمعت فى فمه قبل أن يقول:

- لا شـك لـدى فى أنـك تعلـم عـن الخواجـة (أسـتيفانوس) ومـا يقـوم بـه مـن أعـمال فى الخفـاء لكـن مـا لم يقلـه لـك أننـى أنـا و(كـمال) كنـا رجالـه الذيـن يعتمـد عليهـم فى مثـل هـذه الأعـمال وكانـت معنـا

(مادلـين) أو بالأصح نحـن مـن كنـا معهـا فهـى الصنـارة التـى يصيـد بهـا مـن يريـد أن يوقعهـم فى حبائلـه فيجعلهـا تتقـرب منـه وتغريـه .. تلعـب عـلى وتـره الحسـاس فتسـتولى عـلى قلبـه وتسـتخدم فتنتهـا ومكرهـا لتسـيطر عـلى عقلـه فيكـون طـوع بنانهـا كالخاتـم فى أصبعهـا ولـو أبـدى أى بـادرة مـن رفـض أو أعـتراض تتمنـع عليـه وتعـرض عنـه حتـى يـأتى إليهـا زاحفًـا عـلى بطنـه .. خاشـعًا راجيًـا ألا تطـرده مـن جنتهـا وألا تسـلبه وهمـه الـذى يُصليـه ويشـتعل بـه فـؤاده ..

تمتم (سليم) فى سخرية مقاطعًا:

- ونعم الرجال.

ثم قال يستحثه على المتابعة:

- أكمل.

تنهد (جابر) بقوة وقال:

- لا تلومنـى فلـم يكـن الأمـر بيـدى أو بيـد غـيرى وأنـا لا أبـرر مـا فعلتـه لكنـى أريـدك أن تعـرف أننـى كنـت كالمسـحور .. غيبتنـى بدلالها وفتنتهـا وأعطتنـى أمـل راودنى وعشـت عليـه أيامـى وحلـم صاحبنـى فى صحـوى ومنامـى.

- أأصبحت تقرض الشعر فيها؟

جال فى ذهنه مشهد جثتها العارية وهو يقول:

- بل أقتل من أجلها لو أقتضى الأمر.

قال (سليم) بنفاذ صبر:

- فهمنـا أنـك كنـت ومـن معـك مسـحوران بجمالهـا وقـد سـاقتكم كـما شـاءت كالخـراف فـماذا بعـد؟

- كان لابـد لهـذا السـحر أن ينفـك خاصـة وأنهـا ضاقـت بنـا وأصبحـت تتجاهلنـا وقـد عِلمـت أنهـا مارسـت أفاعيلهـا عـلى (كـمال) كما مارسـتها عـلى وهـو أيضًـا عـرف هـذه الحقيقـة لكنـه لم يغفـر أو يسـامح وتحـول حبـه لهـا نـار غضـب تحرقـه وتحـرق مـن حولـه وقـد قـرر الأنتقـام منهـا ومـن أبيهـا وعـرض عـلى مشـاركته لكنـى رفضـت ..

سأله (سليم) بدهشة:

- ولماذا؟

أجاب (جابر) وهو يخفض عينيه:

- لم أسـتطع .. كان حبـى لهـا يغللنـى ويجعلنـى أقبـل منهـا أى سـوء معاملـة وكنـت أنتظـر أن تغير معاملتهـا لى حـين تعلـم أنى ظللـت وفيـاً لهـا.

- و(كمال)؟

أجاب (جابر) وكأنه كان يتوقع السؤال:

- خانهـم .. وقـام بآخـر عمليـة لحسـابه وتهـرب مـن سـداد أمـوال البضائـع لهـم فقـرر (أسـتيفانوس) الأنتقـام منـه عـلى طريقتـه .. والآن يريـد أن يلصـق التهمـة بى لأنى الشـاهد الوحيـد عـلى مـا حـدث.

- ولمـاذا لم يذكـر (أسـتيفانوس) هـذا الـكلام فى التحقيقـات ومـا الـذى يدفعـه أن يبـوح بأتهامـه لـك لى أنـا؟

قـال (جابـر) مفسرًا وهـو يشـعر برعشـة قويـة لا يـدر لهـا سـببًا ترجفـه بشـدة ويقشـعر لهـا بدنه:

- لم يكـن يسـتطيع أن يقـول مثـل هـذا الـكلام فى تحقيقـات رسـمية فهـذا يُدينـه هـو قبـل غـيره لكنـه عمـد لـزرع بـذرة الشـك فى قلبـك

تجاهـى كى يجعلـك تسـير فى طريـق رسـمه لـك ويُبعـد الشـكوك مـن حولـه.

عاد (سليم) يسأل:

- وأين (مادلين) الآن؟

هز (جابر) رأسه بمعنى أنه لا يعرف وقال:

- أكيـد يخفيهـا فى مـكان مـا وقـد يكـون أخرجهـا خـارج البـلاد فقـد سـمعت أنـه يصفـى أعمالـه وربمـا سـيحاول الهـرب واللحـاق بهـا.

أنهى (جابر) حكايته فهز (سليم) رأسه رافضًا وقال:

- لا أصدقك .. ولا يوجد دليل واحد على صدق كلامك.

فى اللحظـة ذاتهـا دخـل أحـد رجالـه المـكان ومـال عليـه ليهمـس فى أذنـه ببضـع كلـمات غـيرت معـالم وجهـه قبـل أن ينظـر إلى (جابـر) مصعوقـًا ..

فقد كان ما سمعه يغير كل شئ ويدير الأمور كلها ..

يديرها رأسًا على عقب.

*****

الفصل الحادى العشرون

كان الكشف مذهلًا وقلب الدنيا رأسًا على عقب كما توقع (سليم) بالضبط فمن كان يتصور أن الخواجة (أستيفانوس) الذى كان الكل يتعاطف معه ويواسيه فى حادثة أختفاء أبنته يصبح اليوم متهمًا بجريمة قتل كشفت الغموض حول أختفاء شاب يونانى آخر هو (كمال أنطون).

بدأ الأمر حين تلقت أدارة الأمن العام رسالة من مجهول تخبرها بوجود جثة الشاب اليونانى المختفى فى مخزن قديم يمتلكه اليونانى (أستيفانوس) صاحب وكالة القماش والمانيفاتورة الكبيرة وعلى الفور وفى أستجابة سريعة ناتجة عن حالة التخبط الشديد وكثرة بلاغات الأختفاء فى الفترة الأخيرة داهمت قوة كبيرة من رجال الأمن المخزن السرى الخاص ب(أستيفانوس) فقلبت كل ما فيه ونبشت أرضه حتى عثرت على جثة (كمال) المدفونة فى أرضية المخزن ومعها فتاحة خطابات منقوش عليها أحرف أسم سيشغل رجال الشرطة لفترة طويلة ..

أسم (أستيفانوس).

كان الحدث جلل وتصاعد الصخب من حوله وما كان همسًا من

قبل أصبح الآن يخترق الأذان .. فجريمة مثل هذه لم تكن معتادة ولم يُسمع بها من قبل وكالعادة أخذت هذه الجريمة حيزًا كبيرًا من أهتمام الناس ومن محاوراتهم بل وتطوع البعض بتجويد التفاصيل والملابسات بإضافات من وحى خياله حتى أن أخبارها ظهرت فى الجرائد الرسمية وتبادل الجميع الأراء حول تطور الجريمة فى المجتمع المصرى وحالة القسوة وتبلد المشاعر التى أصابت الناس وما هى أسبابها وكيفية علاجها والجميع ينتظر حكم القضاء العادل الذى سيشفى الغليل فى الصدور ويعيد الحق لأصحابه بأخذ القصاص.

كل هذا الصخب لم يتسرب ولو للحظة إلى أذنى (جابر) .. فبعد يومين من أكتشاف جثة (كمال) لم يجد (سليم) بدًا من الأفراج عنه وإطلاق سراحه بعد أن غلبته دفة الأمور وسارت فى طريق آخر رُسم لها بدقة لكنه رغم ذلك أطلق سراحه على وعد بلقاء ثان ينهى فيه ما بدأه وقد قال له أثناء خروجه:

- لن تغيب عن عينى لحظة واحدة.

وصلت الجملة إلى أذنى (جابر) ضعيفة متقطعة مع حالة أنعدام الوزن التى أصابته فما كان يشعر بها رجفة أو رعشة أصبحت الآن هزة تزلزل كيانه وتجعله ينتفض مع تفصد العرق البارد من كل جزء فى جسده ليسيل مختلطا بدماؤه فى لوحة صارخة عنوانها التعذيب.

لم يدر كيف وصل إلى بيته لكن كل ما يذكره أنه سقط على عتبة الدار بلا حراك لتتلقفه أيدى الحاجة (فردوس) بعد أن أستنجدت ببعض جيران الحى فحملوه إلى حجرته وجسده لا يكف

عـن الأنتفـاض مـن فـرط الحمـى التـى ضربـت جسـده وغلفـت وعيـه وغيبتـه عـن كل مـا حولـه فى الوقـت التـى ظلت فيـه الحاجـة (فردوس) بجانبـه ترعـاه وتدفئـه وتضـع الكـمادات البـاردة عـلى جبينـه الملتهـب عمـلًا بنصيحـة الطبيـب حتـى تأخـر الوقـت ومعـه فقـدت هـى أيضًـا قدرتهـا عـلى المواصلـة فجـاءت ب(أنتصـار) أبنـة الحاجـة (سـميحة) جارتهـا وطلبـت منهـا البقـاء بجـواره وعلمتهـا كيـف تبـدل الكـمادات كل فـترة عـلى جبينـه كى تهـدأ حرارتـه ورغـم تهيـب (أنتصـار) وخوفهـا غـير المبرر حتـى مـن مجـرد دخـول الغرفـة إلا أنهـا قبلـت صاغـرة فى النهايـة تحـت ضغـط كبـير مـن (فـردوس) التـى غادرتهـا تاركـة أياهـا وحيـدة معـه فجلسـت عـلى طـرف السريـر وقـد حافظـت عـلى مسـافة بينهـا وبينـه تهيبًـا وخوفًـا.

منـذ فـترة ليسـت بالقصـيرة و(أنتصـار) تلاحـظ أمـورًا كثـيرة .. أمـور غريبـة تثـير ريبتهـا فى (محمـود) وتجعلهـا تخـشى حتـى مجـرد الأقـتراب منـه ..

منـذ شـاهدت (زينـات) وهـى تـتردد عليـه فى غرفتـه وسـمعت بعـض محاوراتهـما حتـى أختفاءهـا المفاجـئ ودون أدنى أثـر ..

منـذ أن رأت ذلـك الرجـل الغريـب الـذى حـضر إلى غرفتـه ولم تشـاهد خروجـه حتـى الآن ..

أصـوات العنـف والحـركات الصاخبـة والصرخـات المكتومـة التـى سـمعتها تنبعـث مـن داخـل غرفتـه والتـى توحـى بـأن هنـاك مـن يتصارعـا بالداخـل مـما دفعهـا لطـرق بابـه لتجـلى الغمـوض وتستكشـف الحقيقـة لكنهـا فوجئـت بـه يفتـح بابـه فى هـدوء جعلهـا تشـك حتـى فى

حواسـها خاصـة مـع سـنها الصغـيرة والتـى سـتجعل الكثيريـن يشـككون فى صـدق قولهـا فآثـرت الصمـت.
تصارعـت الأفـكار داخـل عقلهـا الصغـير بقـوة ألمتهـا فهـزت رأسـها لتنفـض عنهـا كل هـذا مـا جعلهـا تفيـق مـن شرودهـا وتـسرع لتبديـل الكـمادات البـاردة عـلى رأس (جابـر) الـذى كان فى هـذه اللحظـة غائبًـا تمامًـا عـن كل مـا حولـه وواقعًـا تحـت سـطوة الأحـلام التـى تتقاذفـه كمـوج البحـر المتلاطـم وقـد عـاد بعقلـه وكل كيانـه إلى هنـاك حيـث بـدأ كل شـئ ..
إلى قريته ..
كان الظـلام يكتنـف الموجـودات مـن حولـه والصمـت والسـكون يخيمان عـلى كل شـئ حتـى بـدا المشـهد كلوحـة جامـدة لا حيـاة فيهـا .. فـلا صـوت لهـواء أو حفيـف شـجر .. نبـاح كلـب ضـال أو نقيـق ضفـدع .. أو حتـى صـوت رتيـب لحـشرات الليـل.
كان منهـكًا والضعـف يـدب فى بدنـه كلـه لا يجعلـه يقـوى حتـى عـلى السـير فـكان يتطـوح يمينًـا ويسـارًا ويسـتند بيـده عـلى جـدران البيـوت وجـذوع الأشـجار بينـما أنفاسـه وكأنهـا تصارعـه فتـأبى الدخـول إلى رئتيـه وتتمنـع فى الخـروج منهـا حتـى كاد يسـقط أرضًـا متخليًـا عـن آخـر بريـق حيـاة فى جسـده.
وصـل إلى محيـط بيتـه وبيـت والـده .. بيـت (عبـد الحميـد وهـدان) .. فتطلـع إلى مـا حولـه فى حـذر مـن يخـشى أن يُلمـح أو يتعـرف أحـدًا حقيقتـه وسـار بخطـى وئيـدة إلى داره فدفـع بابهـا الـذى أنفتـح عـلى الفـور محدثًـا صريـر يوقـظ المـوتى فدفـع قدميـه ليدلـف إلى سـاحة

الدار التى غلفتها رائحة العطن التى تشى بأن هذا البيت مهجور من فترة ليست بالقصيرة ثم تمشى بعينه فى أرجاء المكان الذى شهد طفولته وبداية مأساته قبل أن يثبت عينه على باب غرفة والديه ..

الغرفة التى وقف يومًا على بابها والصدمة تشل أطرافه وتُفقده حتى القدرة على النطق فى الوقت الذى كانت تنبعث فيه من داخلها آهات أمه الحارة وهى فى لقاء حميم مع عمه أجج بداخلهما مشاعر الرغبة والشهوة .. وأجج بداخله مشاعر البغض والنقمة .. قتل كل ما بداخله من مشاعر الطفولة وسحق بمنتهى القسوة كل قدرة لديه على الحب ..

لقاء أحياهما وأماته ..

طفل مات يوم أن مات أبيه وترك شاب عاش مكللًا بالخزى والعار يحيا حياة هى عبارة عن مسلسل لا ينتهى من الهروب والخوف ..

تقدم بخطى وجلة نحو الغرفة وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة وجال بنظره داخلها تاركًا تفاصيلها تنطبع داخل عينيه .. رأى السرير الفارغ وملاءاته المتناثرة فى إهمال ورأى الحبل الغليظ المتدلى من السقف يتأرجح أمامه يمينًا ويسارًا ..

الحبل الذى شنق به عمه يومها ومن أسفله كان المقعد الصغير الذى دفعه بقدمه من تحته ملقى فى ركن الغرفة وقد غطت خيوط العناكب كل شئ من عروق الأخشاب الضخمة التى تدعم السقف إلى أعمدة السرير النحاسية التى أنطفأ لونها.

سار كالمغيب بجسده المنهك وعقله الذى أثقلته ذكرى الآلام إلى

السريـر فأعتـلاه وفـرد نفسـه عليـه ثـم أغمـض عينيـه وراح فى سبات لم يسـتمر سـوى للحظـات قليلـة .. سـبات قطعـه صـوت ضعيـف لإصطـكاك مفاصـل السريـر مـع أنامـل ملسـت بهـدوء عـلى شـعره ففتـح عينيـه فزعًـا ليجـد (نعمـة) تتطلـع إليـه فى حنـان لم يـره عـبر أيامـه مـن قبـل ..

وبصوت مبحوح مبهور قال:

- أمى.

تخللـت بأصابعهـا خصـلات شـعره الناعـم تمامًـا كـما كان يتمنـى أن يحـدث منـذ طفولتـه ورددت بصـوت لم يسـمعه مـن بـين شـفتيها مـن قبـل:

- أسترخى يا صغيرى.

ظـل يتطلـع إليهـا بلهفـة قبـل أن يطيعهـا ويرخـى جسـده بالكامـل فأسـتمرت تعبـث فى خصـلات شـعره ثـم مالـت لتطبـع قبلـة حانيـة عـلى جبينـه وفى موضـع ندبتـه القديمـة بالـذات ..

قبلـة كان لهـا مفعـول السـحر ففـى لمـح البـصر شـعر بدغدغـة خفيفـة فى مـكان الندبـة الغائـرة التـى كللـت جبينـه لسـنوات طويلـة وصاحبتـه منـذ طفولتـه حتـى الآن وحـين مـد يـده ليتحسسـها وجـد جبينـه وقـد عـاد سـليمًا تمامًـا ولم تشـعر أصابعـه التـى تتحسـس موضعهـا أى أثـر غائـر لهـا فأبتسـم والتقـط يـد أمـه يقبلهـا قبـل أن يقـول الكلمـة الوحيـدة التـى أرادهـا أن تسـمعها منـه الآن:

- سامحينى.

نظرت له نظرة لم يفهم معناها ثم قالت:

- ليس المهم أن أسامحك أنا.

ثم رفعت عيناها لتنظر حولهما قائلة:

- المهم أن يسامحوك هم.

حرك (جابر) عيناه إلى حيث نظرت ليجد كل من (زينات) و(درية) و(مادلين) يقفون حول أطراف السرير ويتطلعون إليه فى صمت متهم فلوح بذراعيه مخفيًا وجهه وهو يصيح فى ذعر شديد:

- لا .. لا .. لا تقتربوا منى..

لكن كلماته تبخرت فى الهواء ولم يجد صداها أى منفذ إلى أذان مغلقة فظللن يقتربن منه حتى أحطن بالسرير من جميع الجهات فى الوقت الذى التقطت فيه (أنتصار) تمتمته الخافتة وشاهدت حركة عينيه المضطربة من خلال جفنيه المغلقين فأقتربت منه بحذر ومدت يدها لتلصق ظهرها بجانب وجهه الذى كان يلتهب من شدة الحرارة ولسانه يهذى بكلمات من مكان آخر ..

مكان كان يواجه فيه أسوأ كوابيسه مع عجز تام سيطر عليه وأفقده القدرة على الحراك ..

شلل تام أصاب أطرافه فلم يقوى على تحريكها وذعر شديد أنتابه وهو يراهم يحطن به فصرخ بكل قوته وهو يحاول دفع جسده للحركة والخلاص من وضع أنعدام الحيلة الذى يعانيه:

- أبتعدن عنى.

بقين يتطلعن إليه فى صمت مهيب أرجفه وساهمت برودة الجو التى شعر بها فجأة فى جعل أرتجافته تتحول إلى أنتفاضة عظيمة هزته وزلزلت أعماقه جعلت (أنتصار) تحكم الغطاء حول جسده

بينما هو يحاول التشبث بأمه علها تحميه لكنها تركت جانبه فجأة وملامح وجهها تتغير لتستعيد قسوتها الأولى ولتقف بجانبهم مكملة الدائرة التى أُحكمت من حوله بملامح تنطق بالكره والرغبة فى الأنتقام ورويدًا رويدًا شعر بألم يعصف بجبهته فمد يده يتحسسها ليجد الندبة تتشكل من جديد مع دماء ساخنة أغرقتها وكأن الجرح القديم يأبى أن يفارقه وعاد حيًا من جديد وأمه تقول وهن يرددن من خلفها:

- لا سماح ولا رحمة لأمثالك.

مسحت (أنتصار) العرق الغزير الذى أنسال من على جبينه الملتهب وأختلط بماء الكمادات البارد فى وقت كان هو ينظر بهلع لقتلاه اللاتى تقدمن نحوه وتمسكت كل واحدة منهن بطرف من أطرافه فالتقطت أمه يده اليسرى و(زينات) اليمنى وجذبت (درية) القدم اليسرى و(مادلين) اليمنى وبمنتهى القسوة جذبت كل واحدة منهن طرفه بأتجاهها بقوة هائلة لا يمكن أن تتواجد فيهن أو فى أى أمرأة أو حتى رجل على وجه الأرض حتى شعر بأعضاءه تتمزق وعيناه تحتقن بعنف والدم يحتشد فيهما فصرخ بكل ما بداخله من حياة يسترحمهم واحدة واحدة ..

صرخ بأسم (زينات) التى تحجرت عيناها ..

صرخ بأسم (درية) التى أسود وجهها ..

صرخ بأسم (مادلين) التى أرتعدت ملامحها بغل ..

صرخ أخيراً بأسم أمه التى منحته نظرة قاسية لا تختلف عما شاهده منها طوال عمره وهى تزوم كالوحوش ..

ومـن خلفهـن وفى طـرف الحجـرة شـاهد (كـمال) وعمـه واقفـان يتطلعـان إليـه فى صمـت وعـلى وجهيهـما نظـرة بغـض رهيبـة جعلتـه يكـره اليـوم الـذى ولـد فيـه فى عـالم لا يطيقـه وبـشر حملـوا لـه كل المقـت منـذ وقعـت عينـاه عـلى الدنيـا ..

وكان آخـر مـا شـاهده قبـل أن تظلـم عينـاه هـو حبـل متـدلى مـن السـقف يتأرجـح أمـام عينيـه يمينًـا ويسـارًا.

*****

الفصل الثانى والعشرون

مبنى إدارة الأمن العام ..
الأسكندرية.

بخطـوات سريعـة واثبـة وجسـد قـوى ممشـوق .. أرتقـى اليوزبـاشى (كامـل مدكـور) سـلالم مبنـى إدارة الأمـن العـام بالأسـكندرية وسـار فى الـرواق الطويـل المفـضى إلى مكاتـب الأدارة بزيـه الرسـمى المهنـدم الأنيـق وحذائـه الأسـود اللامـع الـذى دق بـه أرضيـة المبنـى فى خطـوات صارمـة وهـو يتلقـى التحيـة العسـكرية ممـن يقابلونـه ويردهـا لهـم فى حـزم حتـى وصـل إلى بـاب حجـرة مكتـب الحكمـدار فوقـف للحظـة عـدل فيهـا هندامـه وتمـم عـلى هيئتـه ثـم بهـدوء طـرق البـاب طرقتـين متتابعتـين ودخـل مـا أن سـمع الصـوت مـن الداخـل يدعـوه للدخـول. كان الحكمـدار ذو مظهـر مهيـب ببنيانـه القـوى ونظراتـه الثاقبـة المقتحمـة التـى تكفـى واحـدة منهـا لتسـبر أغـوار أدهـى الرجـال وتفكك أوصـال أشـجعهم مـع شـعره الفـضى الـذى أنحسر عـن مقدمـة الـرأس تـاركًا أنطباعًـا عـن رجـل عركتـه الحيـاة وأثقلتـه الخـبرة والتجـارب.
وقـف (كامـل) أمامـه فى ثبـات وأدى التحيـة العسـكرية فى أحـترام حتـى

دعاه للجلوس قبل أن يبتسم فى وجهه قائلًا:

- كيف حالك يا (كامل)؟

أجابه (كامل) وهو يبادله الأبتسام بمودة:

- بخير حال يا سيدى.

- سعدت كثيرًا بأخبار نجاحاتك فى الصعيد وراجعت بنفسى كل تقاريرك الواردة من هناك وملفات القضايا التى أستطعت حلها بشكل أستثنائى.

أبتسم (كامل) أبتسامة هادئة وقد سعد بمدح رئيسه وأشادته بعمله قبل أن يقول فى هدوء:

- الفضل لله سبحانه وتعالى أولًا ثم لتعاون الزملاء ومساعدتهم وتوجيك لى منذ بداية عملى فى سلك الشرطة.

قال الحكمدار فى ثناء:

- أنت ضابط كفء يا (كامل) ولولا أصرارك على الذهاب للعمل فى الصعيد ما كنت فرطت فى وجودك معى هنا فى الإدارة.

- يسعدنى دائمًا العمل معك يا سيدى وهاهى الظروف تجمعنا معًا فى إدارة واحدة من جديد ولكنى أشهد أن العمل فى مناطق الصعيد قد أفادنى أشد الأفادة وجعلنى أكثر صلابة وأكثر قدرة على العمل مما كنت.

أومأ الحكمدار برأسه فى موافقة ثم قال فى جدية:

- الحقيقة أننى أستدعيتك اليوم من أجل قضية جديدة تثير شكى وريبتى منذ بدأت أتابعها.

تحفزت ملامح (كامل) وجلس على طرف مقعده وهو يتطلع إلى

الحكمـدار بأهتـمام شـديد وقـال:

- كلى أذان مصغية.

التقـط الحكمـدار ملفًـا مـن أمامـه وقـد بـدا أنـه سـبق وأن جهـزه مـن قبـل وفتحـه ليقـول:

- منـذ فـترة قصـيرة وردت إلينـا عـدة بلاغـات عـن أختفـاء فتيـات وسـيدات بـل ورجـال أيضًـا بصـورة غريبـة غـير مـبررة ودون أن يتركـوا أدنى أثـر وبعـد البحـث والتحـرى لم نصـل إلى أى طـرف خيـط يقودنـا إليهـم .. مـما سـبب حالـة عامـة مـن القلـق مـع مـا صاحـب هـذه الحـوادث مـن غمـوض.

تساءل (كامل) وقد جذب الموضوع أهتمامه:

- وهل كل هذه الجرائم فى محيط واحد .. أعنى فى منطقة واحدة.

ضيق الحمدار عينيه وهو ينظر له قبل أن يرد سؤاله بسؤال قائلًا:

- ما الذى دفعك لذكر ذلك اللفظ؟

تساءل (كامل) فى حيرة:

- أى لفظ؟

أجاب الحكمدار:

- لفظ جرائم.

قال (كامل) موضحًا:

- بالطبـع يـا سـيدى أنـا لا أسـتبق الأحـداث ولكنـى فقـط لا أؤمـن بقانـون الصدفـة أبـدًا .. وحـدوث مصادفـات كثـيرة فى منطقـة واحـدة أو حتـى فى توقيـت واحـد أمـر لا يهضمـه عقـلى ولا يستسـيغه بـل يدفعنـى للبحـث عـن السـبب الفعـلى خلـف كل هـذا.

لوح الحكمدار بأصبعه فى وجه (كامل) وهو يقول:

- لهـذا السـبب أخترتـك أنـت بالـذات لمتابعـة هـذه القضيـة لأن الشـك والبحـث سـيكونان رفيقـاك خلالهـا وأنـا أعتمـد عـلى ذكائـك وقدرتـك عـلى إدارة الأمـور خاصـة بعـد إشـادة رؤسـائك عندمـا أسـتطعت حـل غمـوض عـدد مـن الجرائـم فى الفـترة الأخـيرة.

تساءل (كامل) فى أستفسار:

- ما هى ظروف هذه القضية؟

أجابه الحكمدار وهو يطالع من الملف الذى أمامه:

- بدايـة الأمـر كانـت عندمـا أبلغـت أحـدى السـيدات وتدعـى (فـردوس الوكيـل) عـن أختفـاء أبنتهـا (زينـات الدمنهـورى) وتغيبهـا عـن المنـزل وقـد قمنـا بالأجـراءات المتبعـة فى تلـك الحـالات فبحثنـا عنهـا فى الأقسـام والمستشـفيات وراجعنـا فى حـالات الحـوادث عـن فتيـات توفـين أو قتلن دون معرفـة هويتهـن كـما قمنـا بعمـل نـشرة بأوصافهـا وزعناهـا عـلى مختلـف الأقسـام والكمائـن ولكـن كل هـذا كان دون جـدوى ولم يردنـا عنهـا أى معلومـات حتـى الآن.

ثم قلب الصفحة مكملًا:

- لم نكـد ننتهـى حتـى وجدنـا بلاغًـا آخـر مـن شـخص يدعـى (شـعبان جـودة) وهـو صاحـب مقهـى مـن نفـس المنطقـة أدعـى فيهـا أختفـاء زوجتـه (دريـة رضـوان) وعـدم عثـوره عليهـا رغـم بحثـه عنهـا فى كل مـكان ..

قال (كامل) متوقعًا:

- وطبعاً قمتم بنفس الأجراءات المعتادة.

أردف الحكمدار قائلًا:

- بالضبط .. لم يكن أمامنا غير هذا خاصة أن الحالتين أختفيتا بدون أدنى أثر.

تساءل (كامل) وقد أثار الأمر أهتمامه أكثر:

- وهل تكررت هذه الحالات مرة أخرى؟

هز الحكمدار رأسه أن نعم وهو يوضح قائلًا:

- بالفعل فبعد فترة أخرى وردنا بلاغًا عن أختفاء شاب يونانى يدعى (كمال أنطون) تغيب فجأة عن عمله وعن بيته بلا سبب واضح ثم تبع ذلك بلاغًا آخر عن أختفاء شابة يونانية تدعى (مادلين أستيفانوس) تغيبت بعد هذا الشاب بأقل من يومين ..

قاطعه (كامل) وهو يضيق عينيه مفكرًا:

- هذا غريب.

أغلق الحكمدار الملف الذى أمامه ونظر ل(كامل) قائلًا:

- الأغرب لم يأت بعد.

تطلع (كامل) إليه فى لهفة فأكمل مردفًا:

- وردنا بلاغًا آخر من الصعيد هذه المرة وتحديدًا من محافظة أسيوط فى إطار التعاون بين الإدارات حيث تم الأبلاغ عن أختفاء رجل بالغ يدعى (طلبة الشحات) من قِبَل أهله وقد شوهد لآخر مرة متوجهًا إلى محطة قطار أسيوط قاصدًا الأسكندرية وعند قيامنا بالبحث والتحرى وجدنا أنه وصل إليها بالفعل بل وحجز غرفة فى أحد الفنادق القريبة من المحطة ولم يمكث بها يومًا واحدًا حتى أختفى هو الآخر بلا أثر تاركًا كل متعلقاته فى الغرفة كما هى

وتـرك لنـا حـيرة لا توصـف.

تفكر (كامل) فيما سمعه ثم قال مفندًا المعلومات:

- مـن سـياق المعلومـات التـى سـمعتها مـن سـيادتك أن حـوادث الأختفـاء هـذه لا يجمـع بينهـا جنـس أو عـرق فمنهـم الرجـال والنسـاء ومنهـم المـصرى واليونـانى ولكـن أوجـه التشـابة والتـى تجمـع هـذه الحـوادث كلهـا فى حزمـة واحـدة هـى أنهـا وقعـت كلهـا فى محيـط منطقـة واحـدة وفى فـترة زمنيـة قريبـة.

- لكن هذا ليس كل شئ.

قالها فتطلع له (كامل) فى أستغراب فأردف قائلًا:

- لقـد ورد إلينـا بعـد ذلـك بلاغًـا عـن وجـود جريمـة قتـل بطلهـا (أسـتيفانوس) والـد الفتـاة (مادلـين) المختفيـة هـى الأخـرى وضحيتهـا هـو (كـمال أنطـون).

تساءل (كامل):

- وهل حققتم فى الأمر؟

أجاب الحكمدار:

- نعـم وبعثنـا بقـوة مـن رجالنـا إلى مخـزن خـاص تابـع لوكالـة (أسـتيفانوس) هـذا وهـو المـكان الـذى أشـار إليـه البـلاغ وعنـد تفتيشـه بدقـة عثرنـا عـلى جثـة الفتـى مدفونـة فى أرض المخـزن بالفعـل وبذلـك لم يكـن لدينـا غـير توجيـه تهمـة القتـل العمـد ل(أسـتيفانوس) وهـو الآن قيـد المحاكمـة والأغلـب أنـه ينتظـر حكـمًا بالأعـدام.

قال (كامل) فى شك:

- لكن هذا لا يفسر باقى حالات الأختفاء.

أمن الحكمدار على جملته قائلًا:

- هـذا بالضبط مـا يثـير ريبتـى وأعتقـادى أن هنـاك شـخص خفـى وراء كل مـا يحـدث .. شـخص سيكشـف ظهـوره كل خبايـا هـذه القضيـة.

- بالفعل لابد وأن هناك تفسيرًا آخر.

- وما رأيك؟

سأل الحكمدار فى إهتمام فأجاب (كامل) فى حذر:

- لدى تفسير واحد فقط لكل هذا لكنى أخشى الأفصاح عنه.

ضيق الحكمدار ما بين حاجبيه فى دهشة متسائلًا:

- وما هو؟

تردد (كامل) للحظة قبل أن يُجيب قائلًا:

- التفسـير هـو أن هنـاك جرائـم وقعـت كلهـا فى هـذه المنطقـة وفى وقت قصـير وتكـرار هـذه الحـوادث ينفـى بشـكل قاطـع فكـرة الأختفـاء بـل يشـير بقـوة إلى وقـوع جرائـم قتـل بـل ويشـير أيضًـا إلى أن هنـاك فاعـل واحـد يكمـن خلـف كل هـذا وبمعنـى آخـر وبعـد كل مـا سـمعته أقـول بثقـة أننـا نبحـث الآن عـن ..

ثم نظر للحكمدار بثقة وأكمل:

- عن سفاح.

تراجع الحكمدار فى مقعده مبهوتًا وردد دون وعى:

- سفاح.

هز (كامل) رأسه إيجابًا وقال:

- هذا التفسير الوحيد.

تمالـك الحكمـدار نفسـه بسرعـة وأسـتعاد صرامتـه المعهـودة بعـد أن

تخلص بسرعة من صدمة المفاجأة وقال فى حزم:

- (كامل) .. هذه قضيتك منذ هذه اللحظة وسيكون لك كل الدعم الذى تطلبه ولكنى أريد منك حسم هذا الأمر فى أسرع وقت ممكن فما قلته لى الآن يشير أننا مقبلين على مرحلة صعبة ولا الأوضاع الأمنية ولا حتى السياسية تسمح الآن بالأعلان عن وجود سفاح وإحداث ذعر نحن فى غنى عنه بين المواطنين.

نهض (كامل) من مكانه والتقط الملف الذى ناوله له الحكمدار ثم أدى التحية العسكرية بمنتهى الأحترام قبل أن يقول:

- سأسعى لإنهاء هذا الأمر فى أسرع وقت ممكن.

قالها وغادر الغرفة متوجهًا إلى مكتبه الجديد ومن داخله تصاعدت الأسئلة ..

هل حقاً سيقدر على حل هذه القضية؟ ..

هل سيكشف الغموض الذى يُحيط بها من كل جانب؟ ..

إن كان الأمر هكذا .. فلماذا يشعر بكل هذا التوتر إذن؟ ..

لماذا يشعر بكل هذا الأنقباض يعتصر قلبه؟ ..

لماذا يصيح عقله بداخله أن هذه القضية ستكون مختلفة وستؤثر ليس فقط على عمله بل ستترك أثرها على حياته بأكملها؟ ..

أسئلة كثيرة تزاحمت داخل عقله ولن يجد لها جوابًا إلا بالبحث والتوغل فى أكثر شئ يقلقه الآن ..

تلك القضية.

*****

الفصل الثالث والعشرون

ليومين كاملين كان (جابر) فى عالم آخر ..
ليومين كاملين كان فريسة لكل مخاوفه وأرض خصبة تلهو فيها كوابيسه وتمرح بحرية كيفما شاءت ..
يومين كان فيهما لا يكاد يفيق من أحدها حتى تتلقفه الثانية وتؤمن عليها الثالثة ليظل فى دوامة من الرعب لا تنتهى بلا رحمة ترتجى ولا سبيل لخلاص ..
حين أفاق من غيبوبته كان منهك القوى وكأنه خاض غمار معركة شرسة فى حرب ضروس خرج منها مهزومًا مضعضع البنيان لكنه تحامل على نفسه فأرتدى ملابسه وهم بالخروج رغم أعتراضات الحاجة (فردوس) التى أصرت على أن يبقى لفترة فى سريره حتى يتعافى ويسترد صحته دون أن تدرى أن السرير التى تشير إليه لن يجد فيه راحة أبدًا والغرفة نفسها صارت قبر يضمه كما ضم من قبل ضحاياه الساكنين على بعد خطوات منه ..
آه لو تدرى أن أبنتها التى قلبت الدنيا بحثا عنها تسكن الآن أسفل قدمها .. وأن من ترعاه فى مرضه هذا هو من حرمها منها وأنهى حياتها بيديه أنتقامًا من غدر وقسوة لازماه طيلة عمره.

خرج من المنزل وسار بخطى مترنحة حتى وصل إلى المقهى فدخل إلى حيث (شعبان) الذى هاله منظره وصاح فى ذعر متسائلًا:

- أين كنت كل هذه الفترة ومن فعل بك هذا؟

كان (شعبان) يشير إلى آثار الضرب المبرح والكدمات التى أنتشرت فى كل جسده ولم يزل أثرها بعد لم ينمحى لكن (جابر) رمقه بصمت للحظة ولم يعقب أو بالأحرى لم يكن لديه أى قدرة على الكلام سوى بجملة واحدة ألقاها فى صيغة تساؤل:

- ماذا حدث؟

أجلسه (شعبان) على أحد مقاعد المقهى وجذب مقعد آخر جلس عليه قبالته وقال:

- لقد حدث الكثير خلال الفترة الماضية.

ثم أستطرد مكملًا:

- بعد أن أختفيت أنت أنتظرت يومًا كما أتفقنا ثم أرسلت تلك الرسالة التى تركتها معى والتى لم أعلم محتواها حتى الآن فقد خشيت أن أفتحها وأرسلتها مغلقة كما هى.

هز (جابر) رأسه فى أمتنان فأكمل (شعبان) قائلًا:

- لكن أثناء غيابك كانت الدنيا مقلوبة فهاجم رجال المباحث وكالة (أستيفانوس) اليونانى وقبضوا عليه ووجهوا له تهمة قتل شاب يونانى يدعى (كمال) رغم أنه وحتى الآن لم تظهر أبنته (مادلين).

تمتم (جابر):

- ولن تظهر أبدًا.

أقترب منه (شعبان) متسائلًا:

- ماذا قلت؟

لوح (جابر) بيده مجيبًا:

- لا شئ.

ثم سأل (شعبان) قائلًا:

- ألم يأتك أحد من رجال المباحث ويسألك فى أمر غياب زوجتك؟

أنقلبت ملامح (شعبان) فجأة عند ذكر سيرة (درية) وقال فى قرف:

- لقد ذهبت إلى الجحيم من غير رجعة ولم يعد أحد يهتم أو يسأل عنها الآن.

ثم نظر مليًا إلى (جابر) متسائلًا هو الآخر:

- ولكن قل لى بصدق أين أختفيت وماذا حدث لك؟

جز (جابر) على أسنانه بغضب وقال:

- ليس الآن يا معلم فقريبًا ستعلم كل شئ ولكن تأكد أن ثأرنا قد أصبح واحد ونحن لم نحصل عليه كاملًا بعد.

قال (شعبان) فى مقت:

- تقصد (سليم).

قال (جابر) مؤمنًا على قوله:

- نعم .. يجب أن يدفع هذا الوغد ثمن ما فعله ويفعله بنا.

- أهو سبب أختفاءك؟

سأل (شعبان) فأجاب (جابر) قائلًا:

- لقد أخفانى لأيام لكننا سنخفيه للأبد.

قالها وتلاقت أعينهما ..

تلاقت على هدف واحد.

*****

وحيـدًا فى الظـلام .. منزويًـا فى ركـن الزنزانـة .. جلـس (أسـتيفانوس) يجـتر مـرارة أحزانـه ويسـترجع كل مـا فـات كشريـط فيلـم يـدور داخـل عقلـه بالسرعـة البطيئـة.

كيـف وصـل بـه الحـال إلى إعتبـاره مذنبًـا ينتظـر حكـمًا بالأعـدام فى جـرم لم يرتكبـه؟ ..

كيف خسر كل ما لديه فى لحظة واحدة بعد كل ما كان فيه؟ ..

كيـف أسـتطاع شـخص واحـد أن يسـلبه أبنتـه الوحيـدة وحياتـه وكل مـا يملـك؟ ..

أحسـاس بالعجـز والمـرارة أنتابـه وحـزن شـديد سـيطر عليـه والأسـئلة تتـوالى داخـل عقلـه تبحـث بحـيرة عـن إجابـة لا يملكهـا فخبـط رأسـه بالجـدار خلفـه عـلَّ الضجيـج بداخلهـا يهـدأ قليـلًا فاسـحًا المجـال لبصيـص مـن تفكـير وتعقـل.

قُطعـت أفـكاره بغتـة حـين سـمع صـوت مفاتيـح تـدور فى القفـل قبـل أن يُفتـح بـاب الزنزانـة ويُطالـع وجـه الحـارس وهـو يبحـث عنـه بعينيه عـلى الضـوء المتـسرب مـن خلفـه ثـم قـال حـين وقعـت عينـاه عليـه:

- (أستيفانوس) .. لديك زيارة.

تساءل فى دهشة:

- مَن يا شاويش؟

أجاب الأخير فى صرامة:

- لا أدرى .. هيا بسرعة ولا تتلكأ.

نهـض (أسـتيفانوس) فى تثاقـل مسـتندًا إلى الجـدار خلفـه قبـل أن يتبـع الحـارس إلى غرفـة خاصـة فتـح لـه بابهـا وأشـار لـه بالدخـول فأمتثـل

لأمـره ودلـف إلى الداخـل ليرتـد بظهـره إلى الـوراء فى عنـف مصعوقًـا فقـد كان أمامـه آخـر شـخص يرغـب أو يتوقـع رؤيتـه الآن ..

أبتسـم (جابـر) حـين شـاهد الذهـول عـلى وجهـه وأشـار إليـه أن يجلـس قبالتـه فجلـس وقـد بـدا تائهًـا أو كأن الذهـول قـد أفقـده عقلـه فيـما قـال الحـارس وهـو يرنـو بنظـره إلى خـارج الحجـرة خشـية مـرور أحـد:

- أمامك ربع ساعة لا أكثر.

نهض (جابر) من مكانه متجهًا للحارس وهو يقول:

- ربع ساعة تكفى وتزيد.

ثـم أخـرج مـن جيبـه رزمـة مـن النقـود وضعهـا فى يـد الحـارس الـذى طالعهـا بنظـرة خبـيرة مقـدرًا قيمتهـا قبـل أن يخـرج ويغلـق البـاب خلفـه ليلتفـت (جابـر) ل(أسـتيفانوس) الـذى جلـس يتطلـع إليـه فى مقـت منتظـرًا فبـادر هـو قائـلًا:

- أغلق فمك الذى تفغره عن آخره قبل أن يدخله الذباب.

قال (أستيفانوس) بصوت مبحوح:

- أنت من دون كل الناس.

ضحك (جابر) فى سخرية وقال فى تعجب:

- وهل كنت تنتظر أحدًا آخر؟

قال (أستيفانوس) بصوت يقطر حقدًا:

- جئت تشمت فى أليس كذلك؟

هز (جابر) رأسه نفيًا وتوجه إلى مقعده فجلس وهو يقول:

- لا دخل للشماتة بالأمر.

ثم نظر له نظرة أحتقار مكملًا:

- أنت أتفه من أن أكلف نفسى كل هذا لأشمت فيك.

تلقى (أستيفانوس) الإهانة فتساءل بحدة:

- إذن لماذا جئت؟

- جئت لأشكرك.

أرتفع حاجبا (أستيفانوس) فى دهشة وهو يقول مرددًا:

- تشكرنى.

أومأ (جابر) برأسه إيجابًا وهو يقول:

- نعم أشكرك فأنت وأبنتك أصحاب فضل على .. فمن مكركما وخستكما معى جعلتما منى شخصًا آخر .. شخص يستطيع التدبير بروية .. شخص يعرف كيف يُلقى الطعم ويصبر على صيده حتى يقع بين يديه .. تمامًا كما وقعت أنت وأبنتك.

ثم التقط نفسًا عميقًا زفره فى حرقة مكملًا:

- أبنتك التى ظنت أننى أقل من مستواها وأننى قروى ساذج تتلاعب به كيفما شاءت فتقربه منها وتبعده عنها وقتما تريد ثم عندما تمل منه وتنتهى منفعتها تدهسه بقدمها دون رحمة وتسحق أحلامه داخل قلبه بلا شفقة وكأنه ليس أنسان لديه مشاعر لتحترمها.

صاح (أستيفانوس) بغضب:

- والآن تشعر أنك قوى يا (محمود) .. أنك حققت أنتقامك وشفيت غليلك .

صاح (جابر) بغضب أكبر:

- نعم حققت أنتقامى وأخذت حقى منك ومنها ومن هذا الأحمق

الـذى فضلتـه عـلى ثـم مـن فضلـك لا تدعـى الطيبـة والـبراءة فأبنتـك فعلـت معـى كل مـا فعلـت بتدبـير منـك أنـت .. وأنـت أسـتغللتنى لتحقيـق كل مصالحـك دون أن تفكـر فى سـلامتى أو مصلحتـى أنـا فلـماذا تعاتبنـى عـلى أمـر تعلمتـه منـك أنـت؟

ثم أكمل فى تشفى وهو يرفع رأسه عاليًا:

- كانـت لعبـة لعبناهـا سـويًا .. لعبـة وضعـت أنـت قواعدهـا وجررتنـى إليهـا بإرادتـك .. لعبـة أنـا تفوقـت فيهـا عليـك وأنتـصرت والفائـز يحصـد كل شـئ.

- وهل كانت أبنتى جائزتك؟

أشاح (جابر) بوجهه فصرخ (أستيفانوس) مكررًا:

- هل كانت أبنتى جائزتك؟

ولدهشـته شـاهد إلتماعـة عينـاه والدمـوع تترقـرق فيهـما وهـو يُجيـب قا ئلًا :

- بل كانت السيف الذى غُرس فى قلبى.

قالهـا وقـام يغـادر المـكان فأنقـض عليـه (أسـتيفانوس) وأمسـك بـه مـن ملابسـه صائحًـا:

- أين أبنتى يا (محمود) .. أين هى؟

نظر (جابر) فى عينيه بثبات وهو يُجيب قائلًا:

- تنتظرك.

أقشـعر بـدن (أسـتيفانوس) بشـدة وأتسـعت عينـاه عـن آخرهـما وهـو يتراجـع فى تخبـط إلى الخلـف وقـد دارت رأسـه وهـو يتمتـم :

- هل تعنى أنها .. أنها ..

ولم يكمل جملته هذه أبدًا ..

الـدوار الـذى أصابـه ومحيـط الحجـرة الـذى ضـاق فجـأة ليطبـق عـلى صـدره ونظـرة (جابـر) التـى تكويـه بنـار حاميـة ..

كل هذه الأمور جعلت نهاية اللقاء حتمية ..

وفى وسط الحجرة سقط (أستيفانوس) مغشيًا عليه.

*****

أنخـرط (كامـل) فى قـراءة كل تفصيلـة مـن تفاصيـل تلـك القضيـة وذلـك مـن واقـع الملفـات ومحـاضر البحـث والتحـرى التـى وعـلى الرغـم مـن دقتهـا لم تسـفر عـن شئ وغـاص بـكل كيانـه فى الوقائـع التـى يطالـع أحداثهـا أمامـه عـلى الـورق حتـى أنـه لم يشـعر بزميلـه اليوزبـاشى الآخـر (إبراهيـم خليـل) وهـو يدلـف إلى المكتـب ويجلـس قبالتـه قبـل أن يتنحـنح مُلفتًـا أنتباهـه ويسـأله قائـلًا:

- أراك منهمكًا بشكل كبير فى هذه القضية؟

أجابه (كامل) وهو يرفع عينه عن الأوراق:

- الأمـر بالفعـل غريـب فـلا وجـود لأى شـبهة جنائيـة ولا يوجـد شـئ مثـير فى حيـاة كل مـن الفتيـات الثـلاث كـما أن التحقيقـات تؤكـد حسـن سـمعتهن فـما الـذى يجمـع بينهـم ومـا السر وراء أختفـاء كل واحـدة منهـن عـلى حـدة.

قال (إبراهيم) مؤكدًا:

- لاحـظ أن كل واحـدة منهـن بعيـدة كل البعـد عـن الأخـرى فـلا توجـد صداقـة تجمعهـن لنقـول أنهـم رتبـوا كل شـئ معًـا.

- أذن فهناك من ينتقى ضحاياه بشكل دقيق وهذا يضعنا أمام أحتمال واحد فقط لا غير.

أبتسم (إبراهيم) وهو يقول:

- تقصد أن هناك سفاح يقتل الفتيات.

قال (كامل) فى ضيق:

- أنت تضحك وأنت تقولها لأنك لا تصدق حرفًا مما أقول ولكن أعلم أن ما تستنكره اليوم وتنفى وجوده بكل قوتك سيصبح فى يوم من الأيام حقيقة واقعة لا لبس فيها وعندها ستذكر جيدًا صدق كلامى.

قال (إبراهيم) مُديرًا دفة الحوار ليبتعد عن فكرة السفاح التى لا يقبلها عقله:

- أترك الآن هذا الأمر جانبًا وقل لى كيف حال زوجتك وولدك؟

أبتسم (كامل) أبتسامة حانية وقال:

- أنهما بخير حال والحمد لله.

- كم عمر ولدك الآن؟

- أنه فى الثالثة من عمره وأصبح شقيًا بشكل لا يصدق.

ضحك (إبراهيم) قائلًا:

- من شابه أباه فما ظلم .. هو يثير المتاعب هناك فى المنزل وأنت تثيرها هنا فى الإدارة.

بادله (كامل) الضحك وقال:

- بل قل أن أولادك أنت هم من يثيرون جنونك.

خبط (إبراهيم) على رأسه قائلًا فى أسى:

- دائمًا وحياتك.

قالها وعاد إلى حوار العمل قائلًا:

- على فكرة سيادة الحكمدار طلب أن نُبلغه بأى مستجدات تخص هذه القضية.

هز (كامل) رأسه متفهمًا فأستدرك (إبراهيم) متسائلًا:

- لكن قل لى من أين تريد أن تبدأ؟

أجاب (كامل) وهو ينقر بأصبعه على الملف الذى أمامه قائلًا:

- سوف أُعيد كل شئ من البداية وأقوم بجميع التحقيقات مرة أخرى وسأستجوب جميع الأطراف ومقدمى البلاغات من جديد.

- على العموم أنت لديك كل الصلاحيات وحكمدار الأمن العام أصدر تعليماته بتوفير كل ما تحتاجه لحل هذه القضية.

شرد (كامل) بعينه فى تفكير وهو يقول:

- أنا متأكد أننى سأجد طرف الخيط.

قالها دون أن يدرى ما تُخبئه له الأيام القادمة والذى لو علمه لكان ترك البحث عن طرف الخيط الذى يبتغيه ..

تركه وترك معه هذه القضية برمتها.

*****

الفصل الرابع والعشرون

بعـد أن أنهـى عمله فى الأدارة وبعـد حلـول المسـاء بقليـل خـرج (كامل) مـن محـل المشـغولات الذهبيـة حامـلًا طفلـه الصغـير (حسـين) عـلى كتفـه ومصطحبًـا زوجتـه (هـدى) التـى كانـت ملامحهـا كلهـا تطفـر بالسـعادة وهـى تداعـب سلسـلة ذهبيـة صغـيرة تحمـل بداخلهـا صـورة صغـيرة لطفلهـما الصغـير وقالـت بمـرح وهـى تتأبـط ذراعـه الأخـرى:

- تتبقـى سلسـلة أخـرى تحمـل صورتـك لتكونـا أنتـما الأثنـين دائمًـا جـوار قلبـى.

نظر لها (كامل) بخبث وأبتسم فى سعادة قائلًا:

- ما رأيك أن أبقى أنا بجوارك أوفر.

لكزته فى كتفه قائلة:

- لا تكن سخيفا .. الذهب زينة النساء.

تنهد فى حسرة وهو يربت بيده على جيبه قائلًا:

- وخراب بيت الرجال.

أطلقت ضحكة سعيدة قبل أن تميل عليه وتخفض صوتها قائلة:

- أنت عندى أغلى من ذهب الدنيا كله.

نظر لها مكذبًا فقالت بصدق:

- هل عندك شك فى ذلك.

هـز رأسـه نفيًـا فى حـب وسـارا معًـا حتـى أوصلهـا إلى بـاب المنـزل فأعطاهـا الطفـل الـذى غـرق فى نـوم عميـق عـلى كتفـه وقـال لهـا مودعًـا:

- أصعدى أنت وسأذهب أنا لبعض العمل وسأعود باكرًا.

نفخت فى ضيق قائلة:

- ألابـد مـن هـذا العمـل اليـوم .. لمـاذا لا تؤجلـه للغـد وتصعـد لنقـضى السـهرة معًـا.

قال فى هدوء:

- لا يمكننى وأنت تعرفين ذلك.

أنقلبت ملامحها أستياءًا فمال يطبع قبلة على جبينها قائلًا:

- حبيبتـى أرجـوك لا تضيعـى فرحتـك ولا تفسـدى يومنـا وأعـدك أننـى لـن أتأخـر.

قالهـا وطبـع قبلـة أخـرى عـلى رأس الطفـل الغـارق فى النـوم قبـل أن ينسـل خارجًـا وسـط نظـرات حـسرة وضيـق مـن (هـدى) التـى أغلقـت البـاب خلفـه.

توجـه (كامـل) مـن فـوره إلى محطـة الرمـل وعـرج منهـا سـيرًا عـلى الأقـدام حتـى وصـل إلى ميـدان المحطـة فـدار حولـه قاصـدًا محـل الحـاج (رضـوان) والـد (دريـة) الـذى عمـد (كامـل) أن ينتحـى بـه جانبًـا بعـد أن عرَّفـه بشـخصيته ومـا أن جلسـا حتـى بـدأ الحديـث قائـلًا:

- معـذرة لأنى سـأخذ مـن وقتـك ولأنى سـأفتح معـك موضـوع أعلـم جيـدًا كـم يؤلمـك لكـن أرجـو أن تسـاعدنى قـدر أسـتطاعتك حتـى أقـدر عـلى كشـف غمـوض مـا حـدث مـع أبنتـك (دريـة).

توترت ملامح الحاج (رضوان) حين سمع أسم أبنته الغائبة لكنه غمغم فى أستسلام:

- أنا تحت أمرك.

التقط (كامل) نفسًا عميقًا وقد أحس براحة لتجاوب (رضوان) معه ثم بدأ يسأل قائلًا:

- ما معلوماتك عن أختفاء أبنتك؟

قلب (رضوان) كفيه وهو يقول فى حيرة:

- ليس لدى الكثير لأحكيه وأعلم أننى لن أفيدك بالشئ الكثير فقد كانت أبنتى فى بيت زوجها ولم تكن هناك أى مشاكل بينهما وفجأة وفى يوم وليلة فوجئنا جميعًا ب(شعبان) زوج أبنتى يأتى سائلًا عليها وقال أنه عاد من المقهى الذى يملكه فلم يجدها بالمنزل وحين أنتظر عودتها غابت وتأخر بها الوقت فجاءنا سائلًا.

تساءل (كامل) يستوضحه:

- وماذا فعلتم بعد ذلك؟

تنهد (رضوان) فى أسى وقال:

- بالطبع قلبنا الدنيا بحثًا عنها وسألنا كل معارفها وأصدقاءها وفتشنا فى جميع الأقسام والمستشفيات دون جدوى بعدها لم يكن أمامنا سوى حل أخير وهو أن نُبلغ الشرطة.

أنتظر (كامل) حتى أنتهى من جملته وصمت للحظة قبل أن يتطلع إليه قائلًا بهدوء:

- حاج (رضوان) .. أنا لم أت إليك من أجل هذا.

نظر إليه (رضوان) مدهوشًا فأكمل قائلًا:

- ما جعلني أسعى للقاءك الليلة ليس ما ذكر في محضر الشرطة وتحقيقات النيابة فتلك أشياء أعلمها جيدًا وقرأتها من قبل لكني أريد معرفة رأيك أنت .. ربما كانت هناك معلومات خافية لم تذكر في الأوراق الرسمية قد تساعدنا في العثور على أبنتك.

ظهرت الحيرة على وجه (رضوان) ولم يدر ماذا يقول فحاول (كامل) مساعدته متسائلًا:

- مثلًا هل في يوم ما ذكرت أبنتك أن خلافًا كبيرًا وقع بينها وبين زوجها أو أنها تريد الذهاب لمكان ما أو أن هناك من يتبعها أو يهددها.

قال (رضوان) وقد فهم المقصد من الحديث:

- لا يوجد شئ من هذا .. صحيح أن أبنتي لم تكن سعيدة مع زوجها بسبب عدم إنجابهما لأطفال على الرغم من مرور سنوات على زواجهما لكن هذه أمور يمكن حلها على ما أعتقد إما بالعلاج أو بالخروج بالمعروف كما يقولون.

- هل كان لأبنتك أصدقاء؟

سأله (كامل) فأنقلبت ملامحه وأربدت من الغضب وصاح في إستنكار:

- ماذا تقصد؟

أشار (كامل) إليه بيده مهدئًا وقال:

- أهدأ يا حاج (رضوان) .. أنا لم أقصد ما فهمته أبدًا كل ما أسأل عنه هو هل كان لديها جارات قريبات من قلبها أو صديقات قديمات يعرفن عنها ما قد تُخفيه حتى عنكم.

هدأت ملامح (رضوان) وقال فى نبرة معتذرة:

- سامحنى يا ولدى فما نلقاه منذ أن أختفت (درية) لا يحتمله بشر فالكل يخوض الآن فى سيرتنا ويتهمون أبنتى بأنها هجرت زوجها هربًا مع عشيق .. حتى زوجها (شعبان) يبدو أنه قد صدق هذه الشائعات فلم يعد يبحث عنها أو يسأل عنا وكأنه تبرأ منها ومنا ومن الموضوع كله.

تفهم (كامل) موقفه وعذر أنفعاله فربت على ركبته مواسيًا وسأل:

- إذن فالصلة الآن مقطوعة بينكم وبين (شعبان)؟

هز (رضوان) رأسه أن نعم فسأله (كامل) قائلًا:

- سؤال أخير يا حاج (رضوان) .. هل تشك فى أن يكون لزوج أبنتك أى علاقة بأختفاءها؟

أجاب (رضوان) بصدق:

- الكذب خيبة يا ولدى .. فى البداية شككت فى أن يكون له يد فى إختفاءها لكن مع مرور الوقت وبعد أن تفكرت فى الموضوع رفض عقلى تصديق هذا الأحتمال لأنه لا يوجد سبب مقنع لذلك.

قام (كامل) من مكانه مصافحًا الحاج (رضوان) وشاكرًا أياه على وقته قبل أن يسير فى طريقه متفكرًا بتركيز شديد ..

ماذا لو كان الحاج (رضوان) مخطئ؟ ..

ماذا لو كان هناك سببًا وجيهًا يدفع (شعبان) لقتل زوجته وإخفاء جثتها؟ ..

سبب يرفضه (رضوان) لما قد يحمل معه من مذلة وعار بين الناس ..

سبب سيسعى هو خلفه بكل قوته ليؤكد صدقه أو نفيه ..

قادتـه قدمـاه دون أن يشـعر وهـو مسـتمر فى تفكـيره وتحليـل كل المعلومـات التـى يحصـل عليهـا إلى مقهـى (شـعبان) فجلـس عـلى أحدى الطـاولات بالخـارج وطلـب شـيئًا ليشربـه وهـو يرنـو بعينـه إلى داخـل المقهـى متطلعًـا إلى (شـعبان) الـذى يجلـس عـلى مقعـده خلـف مكتبـه الصغـير ويتحـدث مـع أحـد عامـلى المقهـى الشـباب وتحديـدًا مـن جـاءه مسـتعلمًا عـما يشربـه قبـل أن يتجـه نظـر الأثنـين ناحيتـه فـأدار وجهـه بسرعـة كى لا تلتقـى أعـين ثلاثتهـم فيـما نهـض (شـعبان) مقتربًـا مـن منضدتـه وسـحب مقعـدًا ليجلـس بجانبـه متسـائلًا:

- أرى أنك غريب عن المكان؟

أبتسم (كامل) بثقة والتفت إليه مُجيبًا:

- لسـت غريبًـا يـا معلـم (شـعبان) .. لقـد جئـت إليـك عـلى وجـه الخصـوص.

رفع (شعبان) أحدى حاجبيه فى دهشة وقال:

- جئت إلى أنا .. ولماذا؟

رد (كامل) على سؤاله بسؤال قائلًا:

- قبـل أن أجيبـك لابـد أن أسـأل .. مـا الـذى دفعـك لتـترك مكانـك وتـأتى إلى وتسـألنى هـذا السـؤال؟

أجاب (شعبان):

- لأن الغريـب فقـط هـو مـن يجلـس عـلى هـذا المقعـد .. فهـذا المقعـد لديـه صاحـب لا تحـب أن يـراك جالسًـا عليـه وكل زبائننـا ومريـدى هـذا المقهـى مـن أبنـاء الحـى يعرفـون تلـك الحقيقـة.

- ومن هو هذا المرعب؟

سأل (كامل) فأبتسم (شعبان) فى سخرية مجيبًا:

- أبق جالسًا وستعرفه.

نظر له (كامل) للحظة فى تحدى ثم قال مديرًا دفة الحديث:

- لنعد لموضوعنا قلت أننى جئت من أجلك أنت .. تحديدًا من أجل قضية إختفاء زوجتك.

- ومن أنت لتحدثنى فى أمر كهذا؟

سأله (شعبان) بحذر فأجاب (كامل) قائلًا:

- أنا اليوزباشى (كامل مدكور) من إدارة الأمن العام وأنا أيضًا المسئول عن التحقيق فى قضية أختفاء زوجتك.

أنقلبت ملامح (شعبان) فجأة وللحظة واحدة تداركها سريعًا لكنها لم تغب عن عين خبيرة لشخص مثل (كامل) الذى تغاضى عنها وهو يسمع (شعبان) يقول:

- ألن ننتهى من هذا الموضوع؟

ضيق (كامل) عينه وقال:

- أتريده أن ينتهى دون أن تعثر على زوجتك أو حتى تعرف مصيرها.

تلعثم (شعبان) ثم قال مدافعًا:

- لست أقصد هذا لكن ما جدوى كل هذه الأسئلة طالما مرت كل هذه المدة دون سبيل للعثور عليها ..

ثم خفض صوته مع رأسه مكملًا:

- ثم أننى بدأت أصدق ما يقال عنها لذلك ترى أنه كلما فُتح هذا الموضوع أزداد الجرح إيلامًا.

تراجع (كامل) بظهره فى مقعده قائلًا ببساطة:

- إذا دعنا نبحث لنصل للحقيقة ونحسم الجدل .. من يدرى ربما كانت كل هذه الأتهامات لا أساس لها من الصحة وربما كانت زوجتك ضحية لا جانية.

- وبم سيفيد كل هذا؟ .. هل ستعود لى زوجتى؟ .. هل سيغير الناس رأيهم؟ .. هل سأرفع رأسى مرة أخرى بين الناس؟

أجاب (كامل) بسرعة:

- الحقيقة ستُظهر الحق وعلى الأقل إن لم تُرح الناس فستريحك أنت.

أرتسمت أبتسامة باهتة على ركن فم (شعبان) الذى نظر له وقال فى غموض:

- أطمئن يا سيادة اليوزباشى .. لقد أسترحت .. أسترحت تمامًا.

بدت ل(كامل) العبارة غامضة تحمل معانى كثيرة لكنه لم يعلق عليها وبدأ فى سؤال (شعبان) قائلًا:

- قل لى كيف كانت علاقتك بزوجتك فى الفترة الأخيرة وهل هناك سبب يدفعها لترك المنزل بهذا الشكل؟

هز (شعبان) رأسه نفيًا وقال مؤكدًا:

- لا .. لم يحدث شئ بيننا ولست أدرى حتى هذه اللحظة كيف حدث هذا .. لقد كانت يومها بحالة جيدة وقبل مغادرتى للمنزل طلبت منى الأذن فى الذهاب إلى والدتها وقالت لى أنها لن تتأخر وستكون فى المنزل قبل صلاة العصر.

- وماذا فعلت يومها؟

- أبدًا .. عدت من المقهى فى فترة الغذاء وتلك كانت من عاداتى أن أتناول الطعام فى المنزل وأستريح قليلًا قبل أن أعود للمقهى مرة ثانية وأبقى فيها حتى منتصف الليل ولكن فى ذلك اليوم عندما عدت لم أجدها فأنتظرت عودتها لكن الوقت تأخر أكثر من اللازم وأنا أنتظر دون جدوى فبدأت بالسؤال عنها عند والدتها لأفاجأ بأنها لم تذهب إليها من الأساس.

سأله (كامل) من جديد:

- سمعت أن هناك أكثر من فتاة أخرى أختفت فى ظروف غامضة .. هل كانت زوجتك على علاقة بأى واحدة منهن .. هل كنَّ على معرفة ببعضهن البعض؟

هز (شعبان) رأسه نفيًا من جديد وأجاب قائلًا:

- لا .. لم يكن لها أى علاقة بواحدة منهن .. صحيح أننا نعرف كلنا بعضنا البعض بحكم المعيشة فى حى واحد لكن لم تكن هناك صداقة تجمعهن كما أن زوجتى كانت بطبيعتها منغلقة فى بيتها بعد الزواج ولم تكن كثيرة الصداقات.

- هذا من ناحية الأصدقاء لكن ماذا عن الأعداء.

ضيق (شعبان) ما بين حاجبيه فى دهشة متسائلًا:

- ماذا تقصد؟

قال (كامل) مفسرًا:

- أقصد هل كانت لها أو لوالدها أى عداوة مع أحد وهذا الكلام لك أنت أيضًا؟

أجاب (شعبان) بسرعة:

- لا .. لا أنا ولا حتى والدها وبالتأكيد ليس لها هى عداوة مع أحد.
- أذن أنت لا تشك فى أن يكون سبب أختفاءها بفعل فاعل.
قلب (شعبان) كفيه ورفع وجهه للسماء قائلًا:
- العلم عند الله.
ثم نظر إلى (كامل) مكملًا:
- كما أن هذه وظيفتكم أنتم .. أليس كذلك؟
تطلع (كامل) إليه دون أن يُجيب قبل أن يرشف آخر رشفة من كوب الشاى الذى أمامه ثم نهض منصرفًا يتبعه (شعبان) بعينه فى سخرية ومن خلفه ظهر (جابر) الذى كان يسترق السمع للحديث على باب المقهى وعلى وجهه تعابير القلق.

*****

فى اليوم التالى ..

طرق (كامل) باب المنزل برفق وأنتظر حتى سمع صوت خطوات متثاقلة تقترب وثوان وفتح الباب ليطالعه وجه الحاجة (فردوس) التى أزدادت عمرًا على عمر لم يمنعها من أن ترحب به الترحيب اللازم وبعد أن وضعت صينية القهوة وجلسا بدأ (كامل) الحديث بلطف قائلًا:
- أعلم يا حاجة أن زيارتى لك مفاجئة ولكن كان لابد من حضورى بدلًا من أن أستدعيك أنت للحضور إلى المديرية.

غمغمت (فردوس) بصوت خافت وهى تعلم ما هى مُقبلة على سماعه:

- أنت على الرحب والسعة يا ولدى.

قالتها ومدت يدها تلتقط فنجان القهوة وتقدمه ل(كامل) الذى تناوله منها شاكرًا وأبتدرها قائلًا:

- حدثينى عن أبنتك (زينات).

عضت الحاجة (فردوس) شفتها السفلى فى ألم وكتمت بصعوبة دموعًا تجاهد لتنهمر بغزارة فقال (كامل) فى إعتذار مشفق:

- أعلم أن الأمر فيه كثير من الألم لك ولكنى أتمنى أن تساعدينى على أن أخرج بأى معلومة قد تساعدنى فى حل لغز أختفاءها .. ومن يدرى ربما تكون تلك المعلومة سببًا فى عودتها إليك مرة أخرى.

هزت (فردوس) رأسها نفيًا فى أسى صامت وأنحدرت رغمًا عنها دموع سالت على خديها وهى تقول:

- أبنتى لن تعود لى يا حضرة الضابط .. قلبى يحدثنى بأنها ذهبت إلى الأبد حيث لا رجوع.

قالتها وتهانفت فى شدة وقالت وهى ترفع عينها إليه:

- لا تستعجب يا ولدى فأنا أم وأحساسى لا يخيب وعندما أخبرك أن أبنتى لم تعد على قيد الحياة فعليك أن تصدقنى.

ثم وضعت يدها على صدرها والتقطت نفسًا عميقًا وقالت مكملة:

- مع أننى أشعر بأنها قريبة منى .. رائحتها تملأ صدرى.

وضع (كامل) فنجان قهوته على المنضدة مرة أخرى وقد تألم أشد الألم لمعاناة (فردوس) التى فقدت فجأة أبنة جميلة وزهرة يانعة رعتها وروتها حتى تفتحت للحياة لتختفى من أمام عينيها مرة واحدة تاركة ألمًا يعتصر القلب وحزنًا طغى على كل شئ وجرحًا لن يندمل للأبد وأقترب منها مواسيًا:

- حتى لو كان قلبك يحدثك بهذا فدعينا نقوم بما علينا لننتقم لها من الكلب الذى مسها بأذى.

أومأت برأسها موافقة ومسحت بيديها دموعها والتقطت نفسًا عميقًا وهى تسأله قائلة:

- حسنًا يا ولدى من أين تريد أن نبدأ؟

أجاب (كامل) وقد لاحظ أن كلماته أثمرت ودفعت (فردوس) لتتجاوب معه وقال:

- أحكى لى عن حياة أبنتك .. عن أصدقاءها .. هل كانت على علاقة بأحد ما؟ .. هل كانت لديها عداوة مع أى أحد؟

تنهدت (فردوس) بصوت مسموع وقالت:

- (زينات) كانت فتاة جميلة .. هى من بقيت معى بعد وفاة المرحوم زوجى وسفر أبنى البكر وزواج أختها الأكبر منها وطوال تلك الفترة كانت آية فى معاملتها معى فكانت تبقى معى أغلب الوقت وترفض الخروج لأى سبب حتى لا تتركنى بمفردى .. لذلك تجد أنها قليلة الأصدقاء ولم يعد لها صديقة مقربة منذ أن تركت التعليم وجلست فى المنزل أما عن الأعداء فلم يُخلق بعد من يقدر على معاداة فتاة مثل (زينات).

- ومـاذا عـن يـوم أختفاءهـا .. هـل حـدث شئ مـا؟ .. هـل كانـت عـلى مـا يـرام؟ ..

سأل (كامل) فأجابت (فردوس) بسرعة:

- كانـت طبيعيـة جـدًا يومهـا ولم تكـن هنـاك أى مشـاكل حتـى حـل المسـاء فوجدتهـا متوتـرة بـدون سـبب ولم تـرد أن تخـبرنى بمـا يزعجهـا حتـى عندمـا سـألتها لم تجـب .. ثـم دخلـت لأنـام لأن الوقـت كان قـد تأخـر وعنـد أسـتيقاظى فى الفجـر كعـادتى كل يـوم لأداء الصـلاة لم أجدهـا فى غرفتهـا .. بحثـت عنهـا فى كل شـبر فى البيـت دون جـدوى ومـا بعـد ذلـك أنتـم تعرفونـه.

قال (كامل) مفكرًا:

- أيعنى هذا أنها أختفت فى البيت فجأة وبدون سبب.

نظرت له (فردوس) وقالت بحيرة مماثلة:

- هذا ما حدث.

ظل (كامل) على صمته لبرهة قبل أن يسأل فجأة:

- أخبرينى يا حاجة من يسكن معكم فى هذا البيت؟

- هنـاك السـيدة (سـميحة) فى الـدور العلـوى ومعهـا أبنتهـا (أنتصـار) وفى الطابـق الأرضى هنـاك (محمـود) وهـو شـاب دمـث الأخـلاق آتى مـن الصعيـد أوصـانى بـه أحـد معارفنـا وأحـد زمـلاء زوجـى القدامـى.

- ما أسمه؟

- (سعيد) ويعمل محصل فى السكة الحديد.

أختـزن (كامـل) تلـك المعلومـات فى رأسـه ليسـتفد منهـا فيـما بعـد وشـكر الحاجـة (فـردوس) عـلى أسـتضافتها وسـعة صدرهـا وخـرج مـن

باب الشقة مودعًا أياها ونزل بخفة على السلالم ليفاجأ بمن يفتح باب شقته فى الدور الأرضى.

لم يدر ما الذى دفعه للتوقف فجأة بحذر والأختباء خلف جدار السلم متطلعًا لهذا القادم ..

شيئًا ما بداخله كان يدفعه وكأنه حدس داخلى يمتلكه .. حدس نما معه يومًا بيوم وصقلته سنوات من العمل المستمر والخبرات المكتسبة لذلك بقى فى مكانه ساكنًا دون حراك وبحذر بالغ وبدون إحداث أدنى صوت رفع رأسه لينظر لذلك القادم ولتضيق عينيه فى حدة ..

أنه يذكر جيدًا ملامح هذا الشاب الذى لابد وأن يكون (محمود) الذى حدثته عنه الحاجة (فردوس) صاحبة البيت .. أنه نفس الشاب الذى رآه فى مقهى (شعبان) والذى شاهده يتحدث معه بالأمس ..

تُرى أتكون مصادفة أن يكون هذا الشاب عامل مشترك فى أختفاء (درية) ومن قبلها (زينات)؟ ..

أتكون مصادفة أن يكون عامل لدى زوج الأولى وجار الثانية؟ ..

كيف غاب هذا الأمر عن أعين زملاءه أثناء التحقيقات على الرغم من وضوحه الشديد؟ ..

أسئلة كثيرة دارت برأسه فى تلك اللحظة ولم يلحظ خلالها (جابر) الذى دخل غرفته وأغلق بابها خلفه ..

أسئلة لم يتنبه منها إلا على صوت خطوات خافتة بجواره جعلته يرفع رأسه بسرعة فزعًا ليطالعه وجه فتاة صغيرة التصقت بالجدار

وهـى ترتعـد وتنظـر إلى حجـرة (جابـر) المغلقـة ..

كانت تنظر إليها برعب شديد.

*****

الفصل الخامس والعشرون

تركيـز شـديد وتفكـير عميـق صاحبـا (كامـل) الـذى جلـس فى منزلـه منفـردًا وبـدا شـاردًا فى عـالم آخـر بعيـدًا عـن كل مـا يُحيـط بـه حتـى أنـه لم يلحـظ زوجتـه (هـدى) وهـى تتحـدث إليـه إلى أن صاحـت الأخـيرة بصـوت عـال فى حـدة:

- (كامل) أنا أحادثك .. ألا تسمعنى؟

أدار (كامـل) وجهـه ناحيتهـا فجـأة بأنزعـاج وكأن أحدهـم قـد أيقظـه مـن سـبات عميـق وقـال متسـائلًا:

- ما الأمر يا (هدى)؟

صاحت الأخيرة فى ضيق:

- الأمر أننى لم أعد أحتمل.

أعتدل (كامل) تجاهها وعاد يتساءل فى هدوء:

- ما الذى لا تستطيعين أحتماله؟

تزايدت حدة غضبها من نبرته الهادئة فصاحت بضيق أكبر:

- أن تجلـس معـى فى المنـزل وأشـعر أننـى وحـدى .. أن تكـون حتـى السـاعات القليلـة التـى تمضيهـا معنـا مجـرد لحظـات تفكـير فيـما سـبق وفيـما هـو آت دون أن تـدرك أن لزوجتـك وطفلـك حقـوق عليـك.

صاح هو الآخر وقد ساءه صياحها:

- ما الذى فعلته لتصيحى هكذا هل لأننى جلست مع نفسى أفكر لبعض الوقت أم أنك تريدين أفتعال شجار من لا شئ.

أشارت بأصبعها إلى صدرها صائحة بغضب:

- أنا .. أنا أفتعل معك شجارًا ولماذا؟

أشاح (كامل) بوجهه بعيدًا وقال بغضب:

- لا أدرى.

- لا يا (كامل) أنا لا أفتعل شيئًا .. أنا كل ما أطلبه أن تكون ناجحًا فى بيتك كما أنت ناجحًا فى عملك أم أن هذا شئ كثير.

صاح (كامل) فى أستياء:

- أأصبحت فجأة فاشلًا لأننى أختليت بنفسى بعض الوقت وهل نجاحى فى عملى يثير غضبك لهذا الحد .. لا يا (هدى) أنا ناجح غصبًا عنك .. ناجح فى عملى وناجح فى بيتى سواء صدقت هذا أو رفضتيه.

- وأنا سئمت هذه الحياة .. سئمت أن أكون دائمًا فى المرتبة الثانية بالنسبة إليك .. سئمت أنانيتك وعدم أحساسك بى و ..

أربدت ملامح (كامل) وصرخ فى حدة مقاطعًا:

- كيف تجرؤين؟

قالت والدموع تترقرق فى عينها:

- لأن الأمر أصبح فوق طاقتى وأنت كما أنت لا تتغير ولا تريد حتى الأحساس بى وكل ما يحدث وما سيحدث ستكون أنت المسئول عنه.

- هل تهددينني؟
سأل (كامل) بحنق فأجابت قائلة:
- أفهم الأمر كما تريد ولكنني لن أبقى هنا لحظة واحدة بعد الآن.
نظر لها (كامل) مبهوتًا فأستدارت لتغادر الغرفة قبل أن تتوقف وتعاود النظر إليه مكملة:
- أنا سأترك البيت يا (كامل) .. سأتركه ولن أعود حتى تضع حدًا لحكايتنا.
قالتها وغادرت تاركة (كامل) واقفًا مكانه لا يدرى ماذا يفعل وكيف يتصرف بل لم يدر حتى كيف وصلت الأمور بينهما إلى هذه الدرجة دون أن يشعر هو؟ ..
كيف بلغت المشاكل بينهما إلى حد الأنفجار وهو غافل وكأنه فى وادى آخر؟ ..
كيف سمح لنفسه أن يغرق فى دوامة العمل التى لا تنتهى بإرادته تاركًا من أجلها كل شئ آخر؟ ..
الآن وفى هذه اللحظة بالذات علم أن بيته أصبح كقصر من الرمال ..
قصر تكفى موجة واحدة لنسفه من أساسه وتسويته بالأرض.

*****

شـاردًا عـن كل مـا حولـه وبعينـين لا تريـان جلـس (سـليم) خلـف مكتبـه يحـدق فى لا شـئ وينقـر بسـبابته عـلى سـطح المكتـب وقـد بـدا أنـه غارقًـا فى تفكـير عميـق .. تفكـير لم يصـل بـه حتـى هـذه اللحظـة للوسـيلة الأمثـل للإيقـاع ب(محمـود).

عـلى الرغـم مـن شـكه الشـديد فيـه وحدسـه الـذى لا يخيـب والـذى يُخـبره بـأن هـذا الفتـى لابـد وأنـه خلـف كل مـا حـدث .. إلا أن المعلومـات القليلـة والأدلـة الغـير واضحـة تُغـلّ يـده وتجعلـه غـير قـادر حتـى عـلى توجيـه أسـتدعاء رسـمى لـه لفتـح تحقيـق .. صحيـح أنـه يسـتطيع إحضـاره وقتـما يشـاء وبشـتى الطـرق ولكـن كل هـذا سـيكون بصـورة غـير رسـمية وهـو يريـد إحضـاره بشـكل قانـونى وبـإذن رسـمى مـن النيابـة العامـة وعليـه البحـث عـن سـبيل لذلـك مهـما كلفـه الأمـر.

أسـتمر فى تفكـيره العميـق حتـى قطعـه دخـول أحـد رجالـه ليخـبره أن هنـاك مـن يريـد لقـاؤه بشـكل خـاص فأمـره بأدخالـه عـلى الفـور ومـرت ثـوان طالعـه بعدهـا وجـه (شـعبان) الـذى دخـل فى خطـوات مـترددة وبملامـح متهيبـة رغـم ترحيـب (سـليم) بـه حتـى أجلسـه عـلى المقعـد المقابـل لـه قبـل أن يقـول مرحبًـا:

- أهلًا بك يا (شعبان) .. كيف حالك؟

أجاب (شعبان) بصوت خفيض:

- فى خير حال والحمد لله.

نظـر لـه (سـليم) وقـد لاحـظ نـبرة صوتـه ورأسـه المنكسـة ويـده التـى ترتجـف فى إرتبـاك وتسـاءل بقلـق قائـلًا:

- ماذا هناك يا (شعبان)؟

هز (شعبان) رأسه وهو يقول:

- لا شئ.

صاح (سليم) بدهشة:

- كيف لا شئ وأنت لا تدرى ماذا تقول ويبدو عليك الأضطراب.

رفع (شعبان) عينه إليه وقال:

- هناك أمر ما أريد أخبارك به رغم أننى ترددت كثيرًا قبل أن آتى وأتكلم معك.

أومأ (سليم) برأسه فى تفهم وقال مشجعًا:

- خذ راحتك يا (شعبان) وتحدث كيفما شئت فما ستقوله لى سيبقى سرًا بيننا ولن يعرفه أى مخلوق آخر.

بدا على (شعبان) الهدوء وكأن كلمات (سليم) هبطت عليه فأشاعت الأطمئنان بداخله فحسم قراره وغلب تردده قائلًا:

- فى الحقيقة هناك أمر يخص (محمود) الذى يعمل عندى فى المقهى .. أنت بالتأكيد تعرفه كما تعرف أننى أعطيته هذا العمل بناء على توصية من الحاج (سعيد) أحد أصدقائى المقربين والذى هو من معارفك أنت أيضًا.

أسترعت الكلمات أنتباه (سليم) خاصة حين ذكر فيها أسم (محمود) فأعتدل فى مقعده وبدا عليه اللهفة ليواصل (شعبان) كلامه فلما تأخر الأخير قال يستحثه:

- أعلم كل هذا يا (شعبان) ولكن أكمل ماذا يخص (محمود)؟

أجاب (شعبان) فى قلق:

- أننى أشك فى أنه خلف ما حدث مع (أستيفانوس) وأبنته.

- وكيف هذا؟

عاد (سليم) يسأل فأجاب (شعبان) قائلًا:

- حقيقة الأمر أننى شككت فى أمره منذ فترة طويلة خاصة ونحن لا نعرف من أين هو ولا من هم أهله ثم بدأت تصرفاته تثير ريبتى حين طفق يتغيب عن مواعيده ويختفى لفترات ليست بالقصيرة كما أنه شُوهد أكثر من مرة يتردد على وكالة (أستيفانوس) كما شُوهد أيضًا مع أبنته (مادلين) فى أكثر من مكان.

- ولكن ما الذى جعلك تربط بين جريمة قتل (كمال) وأختفاء (مادلين) وبين تردده على الوكالة أو حتى علاقته بهم؟

ثم أكمل موضحًا:

- لا تنس أننا جميعًا كنا نتعامل مع (أستيفانوس).

قال (شعبان) مُجيبًا على السؤال بسرعة وكأنه قد أعد الأجابة مسبقًا:

- ولكن كم منا يعلم عن مخزن (أستيفانوس) السرى الذى وقعت فيه جريمة القتل ويتردد عليه.

أتسعت عينا (سليم) وضاق ما بين حاجبيه وهو يقول:

- أتقصد أنه يعلم مكان هذا المخزن؟

أكمل له (شعبان) جملته مفسرًا:

- وشُوهد أكثر من مرة يدخل إلى هناك بمفرده.

تساءل (سليم) فى دهشة:

- لكن (أستيفانوس) أكد فى التحقيقات أن المخزن ملكه وأنه الوحيد الذى كان يملك مفاتيحه حتى أبنته لا تمتلكها؟

- ربما أراد إبعاد التهمة عن أبنته دون أن يدرى أنه يُبعدها عن الفاعل الحقيقى.

ضم (سليم) رأسه بين كفيه وصمت لبرهة مفكرًا قبل أن يُرتب أفكاره ويقول:

- معنى كلامك أن (محمود) كان بإمكانه دخول المخزن وقتما شاء ويمكنه أن يقتل (كمال) ويدفنه فى أرضية المخزن دون أن يشعر أحد.

هز (شعبان) رأسه موافقًا فأكمل (سليم):

- وإذا ربطنا بين ما تقول وبين الرسالة التى وصلت إلى مديرية الأمن من مجهول تخبرها فيه بمكان الجثة والتى أدت لإكتشافها والقبض على (أستيفانوس) فسيصبح الكلام منطقيًا أكثر.

هنا تساءل (شعبان) بدهشة:

- ولكن كيف لم تحقق الشرطة فى مصدر هذه الرسالة ومن هو مرسلها؟

أجاب (سليم) ببساطة قائلًا:

- لأن الشرطة كان همها التأكد من صحة البلاغ قبل معرفة مصدره وعندما ثبت صحته لم ينكر (أستيفانوس) علاقته بمكان الجريمة خاصة أنه مكان سرى لا يعلمه أحد من عماله ولا حتى أبنته كما قال هو بنفسه.

تنهد (شعبان) قبل أن يسأل:

- وما العمل الآن؟

- طبعًا لابد من الإيقاع به.

- وكيف هذا؟

سأل (شعبان) فأخذ (سليم) ينقر بأصبعه على سطح المكتب قبل أن يقوم من مكانه ويسير فى الحجرة وهو عاقدًا كفيه خلف ظهره و(شعبان) يتابعه بترقب ولهفة واضحة حتى توقف والتفت إليه قائلًا:

- أسمع لدى فكرة.

قال (شعبان) بحماس:

- أخبرنى بسرعة ما هى؟

أجاب (سليم):

- علينا أن ندفعه لدخول المخزن مرة أخرى بأى شكل .. ثم سنكون نحن فى أنتظاره لإلقاء القبض عليه وهو بالداخل وبذلك نستطيع أن نثبت للنيابة أن (محمود) كان يعلم جيدًا بمكان المخزن ولديه القدرة على دخوله بمفرده وقتما يشاء.

- ومن الذى سيجبره على دخول هذا المخزن مرة أخرى وبإرادته؟

أبتسم (سليم) بثقة وهو يُجيب قائلًا:

- أنت.

تراجع (شعبان) فى مقعده وصاح بدهشة كبيرة:

- أنا!!

قال (سليم) فى تأكيد:

- نعم أنت .. سيكون عليك أن تُوهمه بأن بلاغ قُدم بأدلة جديدة وأن الشرطة ستسعى للكشف عن هذا الدليل الجديد فى قضية قتل (كمال) وأننى أنا من طلبت هذا الأمر لكشف الفاعل الحقيقى

ولذلـك فسـتكون هنـاك حملـة تفتيشـية صبـاح الغـد عـلى المخـزن لبحـث آثـار الجريمـة مـن جديـد وكشـف غمـوض الحـادث.

قال (شعبان) وقد فهم الأمر:

- وهـذا سـيدفعه لدخـول المخـزن الليلـة لإخفـاء أى دليـل محتمـل العثـور عليـه.

- بالضبط.

قال (شعبان) فى سعادة مبهورة:

- أنت بحق داهية.

أنتفخـت أوداج (سـليم) فى سـعادة كعادتـه كلـما سـمع المديـح قبـل أن يقـول:

- لـن أُخفيـك سرًا أننـى أنـا أيضًـا كنـت أشـك فى هـذا الفتـى منـذ فـترة وزاد شـكى فيـه بعـد أختفـاء (دريـة) زوجتـك وأنـا عـلى يقـين مـن أنـه أيضًـا وراء أختفاءهـا هـذا.

تساءل (شعبان) بغضب محتدم:

- ماذا تقصد؟

أجاب (سليم):

- الحقيقـة أن زوجتـك قـد شـكته لى مـرة مـن قبـل وقالـت أنـه حـاول قبـلًا التعـدى عليهـا وأنـا أحضرتـه هنـا إلى مكتبـى وأدبتـه ولم أتركـه حتـى حادثتنـى السـيدة (دريـة) وقالـت لى أنـه نـدم عـلى فعلتـه وقـدم أسـفه لهـا لكـن بعدهـا بفـترة فوجئنـا جميعًـا بحادثـة أختفاءهـا هـذه فـدب الشـك فى قلبـى تجاهـه.

- ولماذا لم تخبرنى فى حينها؟

سأل (شعبان) بغضب فقال (سليم) محاولا تهدئته:

- لقد خشت زوجتك أن تخبرك حتى لا تفقد أعصابك وتقدم على فعل أهوج ولقد أستحلفتنى وهى تخبرنى على أن يكون هذا سرًا بيننا وألا أخبرك بأى شئ عن هذا الموضوع.

- الكلب الدنس.

قالها (شعبان) بمقت وهو يتطلع إلى (سليم) الذى قال فى تفهم:

- زوجتك كانت سيدة فاضلة لذلك لجأت إلى.

هز (شعبان) رأسه قبل أن يقول:

- نعم لقد كانت سيدة فاضلة لا تستحق سوى كل خير.

ثم حدق فى وجه (سليم) مكملًا:

- وأنت أيضاً مثلها .. لا تستحق سوى كل خير.

قالها ونهض مصافحًا (سليم) ومعاهدًا أياه على تنفيذ ما أتفقا عليه الليلة ودون إبطاء وما أن خرج من باب القسم حتى أنقلبت ملامحه تمامًا ومن عينيه تصاعدت نظرة أخرى ..

نظرة تصميم على الأنتقام.

*****

الفصل السادس والعشرون

فى سكون الليل وعلى أضواء بعض المصابيح الخافتة تقدم (شعبان) بحذر بالغ وهو يتوقف كلما خطا عدد من الخطوات ويتلفت حوله فى توتر حتى وصل إلى الجهة الأخرى من الشارع والمقابلة لمخزن (أستيفانوس) وهناك كان (سليم) فى أنتظاره وقد توارى فى منطقة مظلمة ليظل بعيدًا عن الأعين خاصة عينا (جابر) الذى يُنتظر وصوله بين لحظة وأخرى وما أن تجاورا حتى سأل (سليم) بلهفة:

- هل أخبرته بما أتفقنا عليه؟

أومأ (شعبان) برأسه إيجابًا وهو يقول مؤكدًا:

- بالطبع .. لقد أخبرته كما أتفقنا أنك أخبرتنى أن الشرطة جاءها بلاغ جديد عن أدلة موجودة بالمخزن ستكشف عن الفاعل الحقيقى وأنك ستسعى خلف هذا الموضوع بنفسك لتكشفه.

- وهل تظن أنه سيأتى؟

- بالتأكيد .. الشك الذى دب فى قلبه والذى بدا واضحًا على ملامحه التى أنقلبت وأنا أخبره يقول أنه لن يستسلم وسيأتى الليلة ليسبق عمل الشرطة ويُخفى أى أدلة قد تكون موجودة بالمكان.

تلفت (سليم) حوله يتطلع إلى الشارع الذى خلا من المارة فى هذا الوقت المتأخر من الليل قبل أن يقول بقلق:

- لكنه تأخر .. أخشى ألا يأتى ويضيع كل ما خططنا إليه.

قال (شعبان) بثقة:

- أطمئن أنا أعلم أنه سيأتى.

لم يكد (شعبان) ينهى جملته حتى لاح لهما شبح يتقدم من بعيد وهو يسير بخطى حذرة متلفتًا كل فترة إلى الوراء ليتأكد أنه لا يوجد من يتبعه حتى وصل إلى باب المخزن فأخرج مفتاحًا من جيبه وأولجه فى القفل فى الوقت الذى قال فيه (شعبان) فى إنتصار:

- ألم أقل لك.

ثوان وفتح (جابر) القفل وأنسل إلى الداخل ووارب الباب خلفه بحذر فقال (سليم) وهو يلكز (شعبان) فى كتفه بحماس:

- ها قد وقع الفأر فى المصيدة .. الآن أنتظر أنت هنا وإن حاول الخروج عطله قدر الإمكان حتى أعود مع قوة من رجال الأمن لنقبض عليه.

هم بالنهوض من مكانه لكن (شعبان) تشبث به ليستبقيه قائلًا:

- بل يجب أن تبقى أنت هنا وسأعود أنا لقسم الشرطة لآتى بالنجدة .. فوجودك سيرهبه ويجعله لا يفكر بالهرب خاصة لو قلت له أن رجالك يحاصرون المكان من الخارج.

- وهل سيوقفه هذا؟

- على الأقل أفضل من أن أدخل له أنا بمفردى بدون أن يكون لى سلطة رسمية ترهبه وتجعله يخشى الإقدام على أى فعل أحمق.

تفكـر (سـليم) فى كلامـه للحظـات مـرت كالدهـر عـلى (شـعبان) .. كان الـكلام منطقيًـا بـل أكـثر مـن منطقـى وهـو مـا دفـع (سـليم) ليأتى بمفـرده اليـوم خشـية فشـل الخطـة أو أن يكشـف (محمـود) مـا يدبرونـه لـه فيعـدل عـن الحضـور ويكـون وقتهـا موقفـه مـن أسـوأ مـا يكـون خاصـة لـو تـسرب لأحـد مـا حـدث منـه تجـاه هـذا الفتـى فى مرتـين سـابقتين عندهـا سـتكون العواقـب وخيمـة ..

عواقـب لا يمكنـه أحتمالهـا .. عواقـب تقـضى عـلى كل مـا بنـاه فى أعـوام طـوال مـن بـث الخـوف فى نفـوس مـن حولـه وبنـاء حاجـز مـن السـطوة والهيبـة حجـب عنـه رذالات البـشر ونصبـه سـيدًا عليهـم يأمـر فيطـاع .. لذلـك حسـم قـراره وقبـل بأقـتراح (شـعبان) فقـال لـه:

- حسـنًا .. أذهـب أنـت بسرعـة إلى القسـم وأحـضر الرجـال وأنا سـأراقبه مـن هنا.

نهـض (شـعبان) مـن مكانـه وتسّـحب عائـدًا للخلـف تـاركًا (سـليم) يحـدق بمزيـد مـن التركيـز إلى مدخـل المخـزن المـوارب محـاذرًا أن يخرج(محمـود) فى غفلـة منـه ولم تمـر سـوى دقائـق قليلـة حتـى تحـرك بـاب المخـزن ليفتـح بدرجـة أكـبر قبـل أن تتصاعـد أصـوات غريبـة مـن الداخـل وكأن هنـاك مـن يتصارعـا بشـكل عنيـف ..

أسـتمر الصـوت لفـترة ليسـت بالقصـيرة مـما حـدا ب(سـليم) أن يأخـذ قـرارًا بالأقـتراب علّـه يتبـين مـا يحـدث بالداخـل وبالفعـل بـدأ يأخـذ خطـوات للأمـام بحـذر شـديد حتـى تصاعـدت مـن الداخـل صرخـة أحتوتهـا جـدران المخـزن لكنهـا وصلـت واضحـة إلى أذنى (سـليم) الـذى فقـد كل حـذر لديـه فى هـذه اللحظـة وأندفـع يقتحـم المخـزن شـاهرًا

سلاحه الميرى الذى رفض أن يتركه وتأكد من وجوده معه عندما حضر إلى هنا ليفاجأ بأن الظلام والصمت والسكون هم مستقبليه فلم ير شيئًا ولم يجد أحدًا على الرغم من الصخب الذى كان يسمعه وهو بالخارج .. فبدأ يتقدم فى تحفز وحارب بقوة لمحة من الخوف تسللت رغمًا عنه إلى قلبه فوأدها فى مهدها وأستمر فى طريقه عبر ردهة المخزن بين البضائع التى لاتزال مكدسة حتى سمع صوت خافت خلف أحدى الأركان وبالتحديد بجوار المكان الذى أستخرجوا منه جثة (كمال).

أرهف سمعه جيدًا ودار حول كومة البضائع بحذر مُشوب بالتوتر حتى أنتفض مرة واحدة على صوت هادئ يقول:

- كان متوترًا مثلك حين سعى خلفى.

تلفت (سليم) حوله بسرعة محاولًا تحديد مصدر الصوت وقال بصوت أراد أن يخرج حازمًا قويًا فخرج مرتعشًا ينضح بالتوتر:

- من أنت؟

أنطلقت ضحكة ساخرة وصاحبها يقول:

- ومن جئت لتسعى خلفه.

- (محمود).

لم يتلق أجابة فتسرب الخوف إلى نفسه أكثر وأكثر حتى أنبعث الصوت من جديد ومن مكان آخر يقول:

- الأحداث تعاد من جديد .. لأنكم جميعًا أغبياء.

بلغ الخوف ب(سليم) مبلغه وقد شعر أنه كالفأر فى المصيدة ولا يدرى أين المفر فقال محاولًا التفاوض:

- أظهر نفسك يا (محمود) ولا داعى لهذه الألعاب السخيفة .. يمكننا أن نصل إلى حل يرضى جميع الأطراف.

- قلت لك أن أيامك ستنتهى وساعتك ستحين.

أنطلق الصوت عن يساره فقال يستحثه على الأستمرار بالكلام:

- هل ستقتلنى؟

أجاب الصوت بمقت:

- ليس قبل أن أرى الذل فى عينيك.

تيقن (سليم) من مصدر الصوت فتقدم شاهرًا مسدسه أمامه وقد أطبق يده عليه بمنتهى القوة وتحفزت كل عضلة من عضلات جسده قبل أن يقتحم تلك البقعة المظلمة متوقعًا رؤية (جابر) وهو يكمن له مختبئًا بها لكن توقعاته خابت حين وجدها خالية تمامًا ..

حاول التراجع بسرعة لكن قواه خارت فجأة وسقط على الأرض فاقدًا الوعى حين تلقى ضربة قوية على مؤخرة رأسه دارت على أثرها عيناه فى محجريهما قبل أن تظلم الدنيا كلها أمامه ويسقط تحت قدمى (جابر) الذى ظهر من أمامه ..

و(شعبان) الذى ظهر من خلفه.

*****

أنتظر (كامل) حتى هبط الليل وتأكد من خلو المكان من المارة ثم تقدم بخطى حذرة لبيت الحاجة (فردوس) .. كان يريد تفتيش الغرفة بكل دقة بعد أن تأكد من خلوها وغياب صاحبها ليحسم أمر الشك الذى سيطر على تفكيره وغلب عليه عقله ..

الشك الذى أصبح كالحجر الجاثم على قلبه لا يتزحزح .. يُضيّق عليه أنفاسه ويسحق معه كل فرصة لتعقل أو تفكير بتروى لذلك أراد الليلة أن يحسم الجدل الدائر بداخله ..

أن يقطع الشك باليقين كما يقولون ..

كان البيت مظلمًا والهدوء والصمت يخيمان على المكان فأخرج من جيبه أداة رفيعة وأولجها فى القفل المعلق على الباب وتلاعب به لبرهة بأنامل خبيرة قبل أن يسمع تكة خافتة جعلته يطلق تنهيدة حارة من صدره وهو يزيح القفل ويدفع الباب منسلًا إلى الداخل.

كان الظلام داخل الغرفة لا يقل فى شدته عن الظلام بالخارج فأخرج كشاف إضاءة يحمله معه ثم أشعله وعلى ضوءه الضعيف بدأ يتحرك مستكشفًا الحجرة بأكملها .. كانت الحجرة صغيرة لا تحتوى على الكثير من المنقولات بإستثناء سرير صغير ومنضدة وضعت عليها أدوات لصناعة الشاى ومشجب عُلقت عليه بعض الملابس خلفها جدران بالية وأرضية أفترشتها الحصر لتغطى طبقة من البلاط الأبيض الذى أصفر لونه وبهت وبينما عيناه تجوبان أرجاء الغرفة وقعتا على باب مغلق وقد وضعت عليه بعض الحصر المطوية حتى كادت تحجبه فأقترب منه وعالج مزلاجه فأنفتح ببطء كاشفًا عن حجرة أخرى أصغر مساحة أمتلأت بقطع الأثاث والملاءات

القديمة وأشتركت مع الغرفة الأخرى فى رائحة عطن طغت عليها رائحة بخور قوية تسرى فى أجواء المكان بالكامل .. رائحة قابلته من قبل أن يدخل إلى المكان وطغت على أنفه وأفعمت أنفاسه بعدما دخل.

أغلق باب الحجرة الصغيرة كما كان وعاد إلى الحجرة الرئيسية فأعمل فيها عيناه لمرة أخيرة بيأس من العثور على أى شئ يُجدى فى إثبات مسعاه ويكون دليلًا على سداد خطاه قبل أن يهز رأسه فى ضيق ويتوجه للخروج ليتوقف فجأة وعيناه ترتطمان بالأشياء الموضوعة على المنضدة ..

شئ ما جذب أهتمامه وجعله يتوقف ..

شئ كالحدس أضاء فجأة داخل عقله وجعله يلتفت ليواجه المنضدة بجسده كله وهو يحدق فى قنينة صغيرة وضعت بحرص خلف مرطبان السكر وكأن من وضعها يحرص بشدة على مداراتها فالتقطها (كامل) وقرأ ما كُتب عليها وتطلع للحظة للسائل الرائق خلف زجاجها قبل أن تلتمع عيناه فى ظلام الحجرة وقد عثر على ما كان يبتغيه ..

دليل إثبات قوى طمئنه أنه يسعى فى الطريق الصحيح ..

طرف الخيط الذى سعى منذ بداية القضية للإمساك به ..

حدق مرة أخرى فى قنينة المخدر ثم وضعها مكانها وتمم على المكان بعينه مرة أخيرة قبل أن يخرج من الباب ويعيد وضع القفل مكانه ليبدو وكأن شيئًا لم يكن وحين حانت منه التفافة للخلف أرتد للوراء فى فزع قبل أن يتحول فزعه إلى توتر وهو

يطالـع وجـه (أنتصـار) الـذى ظـل يحـدق فيـه عـبر ظـلام المدخـل فأسـترد أنفاسـه التـى أحتبسـت داخـل صـدره بسرعـة وقـال فى نـبرة حـاول أن يجعلهـا تحمـل أكـبر قـدر مـن الـود:

- لا تفزعى يا فتاتى .. سأشرح لك كل شئ.

ظلـت (أنتصـار) تحـدق فيـه بأعـين متسـعة دون أن تُبدى أدنى أسـتجابة مـما جعـل توتـر (كامـل) يـزداد متوقعًـا أنطـلاق صرخاتهـا التـى ستشُـق جـدار الصمـت فى أى لحظـة لكـن ولدهشـته الشـديدة كان رد فعلهـا غـير متوقعًـا ومخالفًـا لـكل مـا كان يفكـر فيـه ويخشـاه ..

فالفتـاة الصغـيرة ودون كلمـة واحـدة أسـتدارت بهـدوء صاعـدة إلى منزلهـا تاركـة أيـاه واقفًـا فى مكانـه لا يـدرى مـاذا يفعـل وقـد أُلجـم لسـانه فدفـع نفسـه دفعًـا للخـروج مـن البيـت وقـد أسـتقر قـراره عـلى آخـر خطـوة يريـد تنفيذهـا هـذه الليلـة وهـى الأسـتماع إلى مـن سيحسـم لـه الجـدل الثائـر بداخلـه ويؤكـد لـه صـدق ظنـه ..

إلى (أستيفانوس).

*****

ضباب كثيف أحاط بعقله من كل جانب .. وطنين شديد ظل يدوى داخل أذنيه بلا رحمة وأثقال لا يقدر على إزاحتها تجثم على جفنيه تمنعه من فتحهما وهو يستعيد وعيه ببطء ويشعر معه بصداع قاهر يكاد يشطر رأسه نصفين قبل أن يتنبه على صوت يقول ساخرًا فى تشفى:

- هلم وأفتح عينيك فبيننا حساب سوف يطول.

سمع الصوت قريبًا وميز فيه صوت (شعبان) فجاهد لتحرير عينيه من أسر أجفان تغلقها كجدران من الصلب حتى أستطاع فتحهما أخيرًا لتطالعه صورة مشوشة لا يميز فيها أحدًا فأغمض عينيه وفتحهما عدة مرات حتى وضحت الصورة ووجد نفسه يجلس على الأرض مقيد الذراعين خلف الظهر بينما تحيط بعنقه أنشوطة من الحبال الغليظة التى تستخدم فى لف البضائع وأمامه مباشرة وقف كل من (شعبان) و(جابر) والأبتسامة الساخرة تعلو وجهيهما فقال فى حنق:

- كان لابد أن أتأكد أن الكلاب لا تعض بعضها.

رمقه (جابر) بنظرة حارقة وهو يرد قائلًا:

- هذا هو رأى خنزير مثلك.

صاح (سليم) وهو يدير عينه بينهما:

- والآن ماذا تريدان؟

قال (جابر) فى بساطة:

- قتلك طبعًا.

زاغت عيناه ثم أستقرتا على (شعبان) قائلًا فى تساؤل:

- أنت يا (شعبان)؟

قال (شعبان) بمقت:

- هل كنت تتوقع أحدًا آخر أيها الخائن.

- ولماذا .. ماذا قصرت فى حقك؟

صرخ (شعبان) فى وجهه قائلًا:

- حقــى .. تخـرب بيتــى وتغـوى أمـرأتى وتخـون الصداقـة التـى بيننـا والآن تتبجـح وتسـألنى فيـم قـصرت فى حقـى.

أرتسم الذهول جليًا عى وجه (سليم) وهو يقول مدافعًا:

- مـاذا تقـول؟ .. أنـا أخونـك! .. لقـد كنـت أحميـك مـن هـذا الكلـب الـذى أسـتحل حرمـة بيتـك وحـاول الأعتـداء عـلى زوجتـك .

- أكذب كما شئت فلن ينجيك من أيدينا شئ.

قالهـا (جابـر) فـصرخ (سـليم) فى هيـاج وهـو يحـاول التخلـص مـن القيـود التـى تكبلـه:

- أسـتيقظ يـا (شـعبان) أنـه يتلاعـب بعقلـك .. أنـه يخدعـك ويسـخرك ليجعلـك شريكـه فى كل مـا يفعلـه.

جاوبـه صمـت مطبـق مـن (شـعبان) وعينـان تقـدان الـشرر فـصرخ بقـوة أكـبر:

- أسمعنى .. أنه يجرك معه لطريق بلا نهاية .. صدقنى.

لم يمهلـه (جابـر) أكـثر مـن هـذا فـدار حولـه ممسـكا طـرف الحبـل الـذى أنعقـد حـول عنقـه ودار حـول عارضـة حديديـة فى السـقف وجذبـه للأسـفل فأشـتد الخنـاق حـول عنـق (سـليم) وجعلـه ينهـض مضطـرًا عـن الأرض فأقـترب منـه (جابـر) مقربـا فمـه مـن أذنـه وقـال

بصـوت هامـس يقطـر حقـدًا:

- ألم أقل لك أننى سأراك ذليلًا أمامى.

صرخ (سليم) بكل قوته وهو يستنجد ب(شعبان):

- أنجدنى يا (شعبان) .. أنه كاذب .. كاذب.

قابلتـه نظـرة (شـعبان) وأبتسـامته السـاخرة ليعـرف أنـه لا جـدوى مـما يفعلـه وأن الحقـد وشـهوة الأنتقـام تتلاعـب بعقـل الأثنـين .. وفى اللحظـة التـى رد عليـه فيهـا قائـلًا:

- (شعبان) لا ينسى ثأره ويعرف كيف يغسل عاره بيديه.

جـذب فيهـا (جابـر) الحبـل أكـثر وأكـثر وعاونه (شـعبان) على ذلـك بكل قوتـه فأرتفـع جسـد (سـليم) إلى الأعـلى حتـى وازت قدمـاه أكتافهـما وهـو يحـاول بـكل قوتـه التخلـص مـن الحبـل المحيـط برقبتـه والـذى يـكاد أن يخلعهـا تمامًـا بينـما قدمـاه تـدوران فى يـأس يمينًـا ويسـارًا علهـا تجـد أرضًـا ترتكـز عليهـا دون جـدوى ..

فى الأسـفل وقـف (جابـر) و(شـعبان) متجاوريـن يتطلعـان إلى جسـد (سـليم) الـذى ظـل يتأرجـح أمامهـما وأنفاسـه تغيـب وعينـاه تجحظـان وحركتـه تهمـد شـيئًا فشـيئًا حتـى همـدت تمامًـا وتدلـت يـداه بجانبـه بينـما تـدلى لسـانه خـارج فمـه وعـلى وجهـه نظـرة ذاهلـة بقيـت معـه للأبـد.

*****

الفصل السابع والعشرون

حالة من التوتر الشديد المشوب باللهفة أنتابت (كامل) وهو يخطو داخل مبنى سجن الحضرة حيث يُحتجز (أستيفانوس) منتظرًا الحكم عليه .. كان (كامل) يريد أن يتأكد من صدق ما يفكر به وكلام (أستيفانوس) سيكون هو الفيصل فى ترجيح كفة ما يدور بداخل عقله لذلك لم تكد شمس الصباح تشرق حتى توجه من فوره لزيارته داخل محبسه.

بعد ترحيب مدير السجن وأستقباله بحفاوة شديدة وبعد المرور بإجراءات روتينية لابد منها جلس (كامل) فى حجرة مكتب مدير السجن منتظرًا وبينما هو جالس أخذ يفكر فى الأسئلة التى سيلقيها على (أستيفانوس) ويتوقع الأجابات عليها وقد غمره الحماس لأحساسه بأنه أقترب من حل اللغز وإماطة اللثام عن الغموض الذى صاحب هذه القضية منذ بدايتها وحير رجال التحقيقات لفترة طويلة.

سمع (كامل) هرج ومرج من خارج حجرة المدير أنتزعاه من لُجة أفكاره وخواطره فنهض من مكانه وفتح باب الغرفة المغلق متطلعًا إلى الخارج ليقابله وجه مدير السجن الذى عاد إليه مهرولًا وهو بادى الأنزعاج فسأله (كامل) وقد شعر بأن هناك شيئًا ما ليس

علـى مـا يـرام:

- ماذا هناك يا سيادة المدير؟

أجاب مدير السجن وقد شحب وجهه:

- أنه السجين الذى جئت من أجله.

صاح (كامل) متسائلًا فى ذعر:

- ماذا حل به؟

بكلـمات مزقـت مـا كان يخطـط لـه (كامـل) كحـد السـيوف أجـاب المديـر فى أقتضـاب:

- لقد أنتحر.

ردد (كامل) من خلفه مبهوتًا:

- أنتحر.

أومأ مدير السجن برأسه إيجابًا وهو يردف قائلًا:

- نعم .. لقد قطع شرايين معصمه ونزف دماؤه حتى فارق الحياة.

تسـمر (كامـل) فى مكانـه وبـدا وقـد شـلته الصدمـة وهـو يحـدق فيـما حولـه لا يـدرى مـاذا يفعـل قبـل أن يـترك مكتـب المديـر مندفعًـا إلى الخـارج يعـدو فى أروقـة المبنـى حتـى وجـد تجمهـر مـن بعـض عسـاكر السجن عـلى بـاب إحـدى الزنازيـن فأندفـع ناحيتهـا وأزاح بيـده عـددًا ممـن وقفـوا يتطلعـون فى فضـول ويسـدون بابهـا .. فدفـع نفسـه إلى الداخـل دفعًـا ليجـد (أسـتيفانوس) وقـد أسـتلقى فى فراشـه فـاردًا ذراعـه عـلى أمتدادهـا بجانبـه وقـد غطتهـا الدمـاء التـى أغرقـت الأرض أسـفلها بجانـب الفـراش إثـر شـق مخيـف فى معصمـه مـزق جلـده وهتـك شراييـنـه.

جلس (كامل) بجانبه على الفراش متطلعًا إلى ملامحه التى سادتها السكينة أخيرًا وعينه المغلقة التى أنحدرت بجانبها دموع لم تجف وأحس بثقل شديد يُطبق على صدره ويخنق أنفاسه فقام من فوره مغادرًا المكان مقاومًا شعور شديد بالغثيان وفى قرارة نفسه أقسم أن يكمل هذه القضية مهما كلفه ذلك من تضحيات .. وإلى النهاية.

*****

لم تمض لحظات قصيرة على دخوله مكتبه فى إدارة الأمن العام حتى وصله أستدعاء عاجل من مكتب الحكمدار فقام من فوره متوجهًا إلى هناك ليستقبله الأخير بملامح غاضبة وغيظ مكتوم ثم دعاه للجلوس بإشارة من يده وأبتدره بالحديث قائلًا بغضب:

- هل علمت بما حدث؟

أومأ (كامل) برأسه إيجابًا وقال:

- نعم يا سيدى علمت بما حدث اليوم .. أنا قادم الآن من هناك وبالتأكيد سيحاسب المسئول عن هذا التقصير.

خبط الحكمدار براحة يده على سطح مكتبه بقوة وصاح قائلًا:

- ما حدث تحدى سافر لنا جميعًا لا يمكن السكوت عليه.

قال (كامل) محاولًا تهدئته:

- أعدك يا سيدى أن يتم حسم الأمر فى أقرب وقت .. لكن للأمانة لم يتوقع أحد أنه قد يُقدم على الأنتحار بهذا الشكل.

حدق فيه الحكمدار للحظة ذاهلًا قبل أن يصيح بغضب أكبر:

- أى أنتحار يا حضرة اليوزباشى .. أنها جريمة قتل مكتملة الأركان.

- ولكن يا سيدى ..

قاطعه الحكمدار قائلًا:

- من أين لمنتحر أن يُكبل يديه خلف ظهره بهذا الشكل أو حتى كيف سيقدر على رفع نفسه بواسطة حبل كما حدث.

أرتفع حاجبا (كامل) فى دهشة وقال فى أستفهام:

- عذرا سيدى الحكمدار يبدو أنه قد أختلط على الأمر .. عن أى جريمة تتحدث؟

صاح الحكمدار مجيبًا وقد أوشك على أن يفقد أعصابه تمامًا:

- عن جريمة قتل معاون الشرطة (سليم فتوح) وتعليقه من رقبته ليراه الجميع مشنوقًا داخل مخزن (أستيفانوس).

زوى (كامل) ما بين حاجبيه وبرقت عيناه بغضب فأكمل الحكمدار فى لوم:

- كنت أظن أنك تُولى هذه القضية الأهتمام اللازم كما طلبت منك وكنت أتوقع أنك ستمدنى بالمعلومات التى تتحصل عليها وليس أن أخبرك أنا بما يخفى عنك ولا تدرى عنه شيئًا.

جز (كامل) على أسنانه بغضب وتفصد جبينه عن قطرات عرق باردة وقال:

- الحقيقة يا سيدى الحكمدار أننى كنت أحقق فى هذه القضية حتى وقت متأخر بالأمس وفى صباح هذا اليوم كنت أتابع قضية أنتحار (أستيفانوس) فى سجنه ولم يمض على وجودى بمكتبى سوى لحظات حتى أستدعيتنى فلم تتسن لى الفرصة لمعرفة ما حدث

لمعـاون الشرطـة بالأمـس.

هز الحكمدار رأسه برفض وأتبع ذلك بقوله:

- هـذا ليـس عـذرًا يـا (كامـل) .. لقـد شرحـت لـك خطـورة الوضـع وحالـة الفـزع التـى بـدأت تنتـشر بـين النـاس ونخـشى أن تتفـشى أكـثر مـن ذلـك وأكـدت عليـك ضرورة حسـم هـذه القضيـة فى أسرع وقـت وتقديـم الجنـاة للعدالـة .. هـل تفهـم؟

نهـض (كامـل) مـن عـلى مقعـده وأدى التحيـة بإحـترام وهـو يقـول منهيًـا الحـوار بحسـم:

- أعـدك يـا سـيدى أن تنتهـى هـذه القضيـة فى أسرع وقـت وسـيكون الجـانى بـين يـدى العدالـة فى غضـون أيـام مـن الآن.

قالهـا وغـادر مكتـب الحكمـدار فى صرامـة وقـد أنتـوى تحقيـق مـا وعـد قائـده بـه ..

أن يُنهى هذه القضية فى غضون أيام قليلة ..

وينال القاتل جزاءه العادل بلا رحمة.

*****

عـلى الرغـم مـن حالـة الذعـر التـى سـادت بـين النـاس فى تلـك الفـترة وخاصـة مـع تعـدد حـالات الأختفـاء والقتـل التـى كانـت ولاتـزال غامضـة لا يُعـرَف لهـا تفسـير ولا يظهـر لهـا دافـع إلا أن حالـة أخـرى مـن الأرتيـاح أجتاحـت البعـض بعـد إعـلان خـبر مقتـل (سـليم) والعثـور عـلى جثتـه .. فكـم مـن شـخص ظلمـه (سـليم) ومـارس عليـه سـلطته التـى كانـت تنبـع مـن أحساسـه المطلـق بالتفـوق والسـيادة وكـم مـن

شخص كان يتمنى أن تكون نهاية هذا الوحش على يديه ليخرج على الناس متفاخرًا بأنه قد حقق ثأره وأسترد شرفه وأعاد الأعتبار لكرامته المهدورة.

إثنان فقط هما من التزما الصمت فلم ينطقا بحرف واحد ..

إثنان لم يبد عليهما التأثر ومارسا حياتهما وكأن شيئاً لم يكن ..

إثنان كانت الأبتسامة تعلو وجهيهما كلما نظرا لبعضهما البعض وكأن كل منهما يهنئ الآخر على تحقيق ثأره وشفاء غليله .. أتفاق على الكتمان ساد بين الطرفين ولم يتعكر صفوه إلا مع هبوط الليل وتوجه (كامل) ليجلس فى نفس المكان وفى نفس المقعد على المقهى .. لحظتها تطلع كل من (جابر) و(شعبان) كل إلى الآخر قبل أن يقترب الأول من مكتب الثانى الذى قال:

- لقد عاد مرة أخرى.

ألقى (جابر) بنظره إلى مدخل المقهى حيث يجلس (كامل) قبل أن يعود ببصره إلى (شعبان) ويقول:

- يبدو مثابرًا ولديه إصرار ولن يهدأ حتى يكشف كل شئ.

- وما العمل .. هل نترك المنطقة كلها ونهرب؟

أبتسم (جابر) قائلًا:

- ساعتها ستكون كمن يُشير بأصبع الأتهام إلى نفسه وستثبت التهمة عليك وعلى.

همس (شعبان) فى حيرة:

- ولكن بقاؤنا منتظرين هكذا ليس حلًا.

- وهروبنا أيضًا ليس حلًا.

ثم صمت مفكرًا للحظة قبل أن يقول:

- الحل الأمثل الآن هو أن نترك له المبادرة لنرى فى ماذا يفكر وكيف سيتصرف ووجوده هنا الليلة يؤكد أنه لن ينتظر طويلًا بل سيبدأ خطوته فى أسرع وقت.

ثم أشار برأسه ناحية مدخل المقهى مكملًا:

- ربما الآن.

هز (شعبان) رأسه فى عدم أقتناع وقال:

- لازلت أرى أن هذا ليس حلًا.

أبتسم (جابر) فى مكر وقال:

- بقاؤنا ساكنين لن يدوم طويلًا وكما سيسعى هو خلفنا سنسعى نحن خلفه.

أتسعت عينا (شعبان) فى هلع وهو يقول فى أستنكار:

- هل جننت أنه ضابط شرطة.

رد (جابر) فى صرامة قاسية:

- ولو كان حكمدار الأسكندرية شخصيًا .. أم أنك ترغب فى حبل المشنقة حول رقبتك.

لم يتفوه (شعبان) بحرف فى حين تركه (جابر) منصرفًا تاركًا أياه يحدق فيه مشدوهًا ..

ليس هذا هو (محمود) الشاب الصغير الذى أحضره (سعيد) إليه ليجد له عملًا لديه ..

فى فترة قصيرة تحولت شخصيته بشكل غير طبيعى ليصبح شخصًا آخر أكثر قوة وبأسًا .. شخص أصبح لديه أستعداد لتغرق يديه

بالدماء مرة تلو الأخرى دون أن ترمش عيناه أو يهتز له جفن.
أصبح يخشاه ويخشى الطريق الذى يسير فيه ويدفعه معه دفعًا إليه .. وفى عقله أستعاد آخر كلمات قالها له (سليم) قبل أن يتدلى من مشنقته ..

- أنه يخدعك ويتلاعب بعقلك ويجرك معه لطريق بلا نهاية.

وبينما هو سارح فى أفكاره وجد نفسه يغمغم فى شرود:

- صدقت يا (سليم) .. صدقت.

أنتبه لحظتها أن (كامل) ينظر إليه فلما ألتقت أعينهما دعاه الأخير بإشارة من رأسه ليشاركه الجلوس فنهض (شعبان) فى تثاقل وهو يُعيد ترتيب كل شئ وكل ما تحدث بشأنه هو و(جابر) قبل أن يذهب إلى (كامل) الذى أبتسم فى هدوء وهو يدعوه للجلوس قائلًا:

- تفضل.

جلس (شعبان) وقد تصاعدت بداخله نبضات قلبه منتظرًا ما سيقوله (كامل) الذى ظل صامتًا لفترة وكأنه يعلم ما يدور بنفس (شعبان) ويريد أن يُطيل عذابه قدر الإمكان ثم مال ناحيته وهمس بكلمة واحدة:

- مبروك.

تعجب (شعبان) من الكلمة أشد العجب وقال مدهوشًا:

- مبروك .. على أى شئ؟

تراجع (كامل) بظهره وكأنه لا يصدق دهشة (شعبان) قبل أن يعود ويميل عليه من جديد موضحًا:

- مبروك على نجاح الخطة.

عاد (شعبان) يردد بحيرة:

- خطة!!

أبتسم (كامل) وهز رأسه فى أسى قبل أن يقول:

- ألم يخبرك صديقك أن (أستيفانوس) قد أنتحر فى سجنه .. أم أنه يخفى هذه الأمور عنك.

ظهر الأنزعاج جليًا على وجهه مما أكد ل(كامل) أنه لم يكن يدرى أى شئ عن هذا الموضوع مما ساعده على أن يكمل قائلًا:

- الأمور كلها ستنتهى والقضية فى طريقها للحل فإلى أى جانب تُحب أن تكون.

- لا أفهم.

- بل أنت تفهمنى جيدًا.

ثم أعتدل ليواجه (شعبان) مستطردًا:

- أسمعنى يا (شعبان) أنا سأكون أكثر صراحة معك .. أنت ليس هناك دليل واحد ضدك حتى الآن ولكن قلبى يخبرنى أنك ضالع فى كل ما يحدث ولديك معلومات تخفيها فلو أحببت أصبحت معى من هذه اللحظة ولن يطالك شئ أما لو أصريت على الطريق الذى تسير فيه فسأكون عدوك وصدقنى أنت لست بحاجة لعداوتى.

أنهى (كامل) كلامه تاركًا (شعبان) يحدق فيه بعينان لا تطرفان وقد أرتج عليه فلم يدر ماذا يقول قبل أن يحاول التكلم لكن الكلمات أنحشرت داخل فمه فخرج صوته مبحوحًا يكاد لا يُسمع

ثـم سـعل بقـوة وقـال:

- أنـا لا أعلـم شـيئًا يـا حـضرة الضابـط ومحاولـة أسـتدراجى بهـذا الشـكل سـاذجة جـدًا وأنـت أذكى مـن هـذا.

قال (كامل) بصبر:

- نعـم لديـك كل الحـق .. أنـا أذكى مـن هـذا لذلـك أريـدك أن تفكـر مـا الـذى يدفعنـى للقـدوم إليـك الآن وتقديـم عـرضى هـذا إلا لـو كنـت صادقًـا معـك.

قالهـا وقـام مـن مكانـه واضعًـا بعـض النقـود ثمـن المشروب الـذى طلبه أمـام (شـعبان) وأسـتدار مغـادرًا دون كلمـة أخـرى أضافيـة تـاركًا الأخـير يتلـوى عـلى جمـر القلـق لا يـدرى أيـن السـبيل .. ولا كيـف يخـرج مـن الكابـوس الـذى أصبـح يعيشـه ليـل نهـار.

*****

الفصل الثامن والعشرون

على الرغم من أن درجة الحرارة لم تكن متدنية وحالة الجو كانت جيدة لم تتسم بالبرودة فى هذا اليوم إلا أن جسد عم (سعيد) كان لا يتوقف عن الأرتجاف وهو يخطو مع بعض رجال الأمن إلى داخل مبنى المديرية حيث أصطحبوه من مكان عمله دون سبب أو تفسير أو حتى يتفوهوا معه بكلمة واحدة حتى وصل إلى المديرية فأدخلوه حجرة فارغة إلا من مقعد صغير ومنضدة تتوسطها وتركوه لما يزيد عن الساعة يعد الثوانى والدقائق التى كانت تمر عليه وكأنها سنوات ويعض على أنامله حتى كاد يأكلها من فرط التوتر والضغط العصبى الذى يعانيه وهو يسأل نفسه للمرة الألف عن السبب وراء القبض عليه .. وماذا حدث منه؟ .. ظل على تلك الحالة لبضعة دقائق أخرى قبل أن يُفتح باب الحجرة فجأة مما جعل جسده ينتفض وقشعريرة باردة تسرى على ظهره قبل أن يدخل أحد رجال الأمن ويصحبه معه إلى غرفة مكتب اليوزباشى (كامل مدكور) ..

كان الأخير يجلس خلف مكتبه ولكن ما أن رأى (سعيد) يدلف إلى غرفته حتى نهض إليه مصافحًا ومبددًا بعضًا من غيوم القلق التى لبدت سماء اليوم ودعاه للجلوس ثم طلب كوبين من عصير

الليمـون قبـل أن يعـود ليجلـس خلـف مكتبـه قائـلًا:

- مرحبًا بك يا حاج (سعيد).

رد (سعيد) التحية بوجل قائلًا:

- حياك الله يا سعادة البك.

أخـرج (كامـل) علبـة سـجائره وفتحهـا أمـام (سـعيد) الـذى التقـط منهـا واحـدة شـاكرًا قبـل أن يُخـرج مـن جيبـه علبـة ثقـاب التقـط منهـا عـودًا أشـعل بـه السـيجارة ونفـث دخانهـا فى توتـر لايـزال يسـيطر عليـه قبـل أن يتطلـع إلى (كامـل) الـذى نفـث دخـان سـيجارته فى بـطء وهـدوء ثـم قـال:

- لقـد طلبـت حضـورك اليـوم لنتبـادل الحديـث فى موضـوع مـا أريـد أن أسـألك عنـه.

ظهرت علامات الأستفهام واضحة على وجه (سعيد) الذى قال:

- أنا تحت أمرك يا بك.

التقط (كامل) نفسًا عميقًا من سيجارته قبل أن يسأل:

- مـاذا تعـرف عـن الشـاب (محمـود الصعيـدى) الذى توسـطت بنفسـك لـدى (شـعبان) ليعمـل لديـه فى المقهى؟

ظهرت حيرة صادقة على وجه (سعيد) وهو يقول:

- أكـون كاذبًـا لـو قلـت أننـى أعـرف عنـه الشـئ الكثـير كل مـا فى الأمـر أننـى قابلتـه فى أحـدى الأيـام فى القطـار الـذى كنـت أعمـل عليـه وقـد كان فى حالـة سـيئة بـلا طعـام أو نقـود .. حتـى أنـه لم يقـدر سـاعتها عـلى دفـع ثمـن التذكـرة فتعهـدت برعايتـه وسـعيت لتوفـير مسـكن وعمـل لـه حتـى يبـدأ حياتـه بسـلام.

- هل تحدثت معه بشأن ماضيه؟

سأل (كامل) بشغف فأجاب (سعيد) قائلًا:

- الحقيقة أنه لم يحك لى الشئ الكثير وأنا لم أحاول أن أضغط عليه فى هذا الأمر وأكتفيت بمعرفة أنه هارب من ثأر دم على عائلته فى الصعيد.

سأله (كامل) فى صرامة:

- وهل تساعد أى أحد تجده دون أن تعلم عنه شيئًا بل وتدخله بيوت الناس وتتوسط له فى العمل لدى الغير وأنت لا تعرفه ولا تعرف عن أصله إلا حكاية واهية عن ثأر مزعوم.

أرتبك (سعيد) وحار فيما يقول فحاول (كامل) أن يخفف من حدته بأن ناوله كوب عصير الليمون وأنتظر عليه حتى رشف منه رشفة كبيرة ثم قال:

- يا حاج (سعيد) أنت رجل طيب وخدوم ولكن ما تقوله غير منطقى .. كيف نجد شابًا بين يوم وليلة لا نعرف عنه شيئًا يصبح فجأة وسطنا فيسكن معنا ويعمل لدينا ونحن غير متأكدون حتى من صدق روايته أو حتى صحة أسمه.

ثم أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يعاوده بالسؤال قائلًا:

- من أى محافظة آتى (محمود) هذا؟

- والله العظيم يا بك أنا لست متأكداً بالتحديد لكنى قابلته بعد أن غادرنا محطة أسيوط بأتجاه المنيا.

أعتدل (كامل) بغتة فى مقعده وظهر عليه الأهتمام وهو يسأل بلهفة:

- تقول محافظة أسيوط؟

أومأ (سعيد) برأسه إيجابًا وقال مؤكدًا:

- هذا ما حدث يا بك والله على ما أقول شهيد.

التقط (كامل) من جانبه ملف التحريات الذى تسلمه من الحكمدار وفتحه على صفحة معينة قبل أن يسأل (سعيد) من جديد:

- هل تعلم عن شخص من محافظة أسيوط يدعى (طلبة الشحات)؟

تفكر (سعيد) للحظة قبل أن يهز رأسه نفيًا فلم يبال (كامل) بنفيه بل التمعت عيناه فى ظفر وشكر (سعيد) على حضوره مؤكدًا عليه ضرورة الحفاظ على سرية هذا اللقاء وسرية كل ما دار فيه فتعهد الأخير بالكتمان وقد أحس بخطورة الموضوع وفداحة الأمر. ولثوان ظلت عينا (كامل) تبرقان حتى غادر (سعيد) المكتب فالتقط سماعة الهاتف وما أن سمع صوت محدثه على الطرف الآخر حتى قال فى صرامة حاسمة:

- (إبراهيم) .. أريد كافة المعلومات الممكنة عن (طلبة الشحات) أحد ضحايا قضية الأختفاءات الغامضة كما أريد معلومات عن بلدته ومن هم أصدقاءه وهل هناك حوادث حدثت هناك فى الفترة الأخيرة لم يستدل على مرتكبيها بعد.

أنتظر حتى سمع تأكيد محدثه وصديقه اليوزباشى (إبراهيم خليل) على جمع كل المعلومات الممكنة فى أسرع وقت ثم وضع سماعة الهاتف وبداخله بدأ بركان من الأمل يتفجر.

*****

مـرت الأيـام التاليـة بطيئـة للغاية عـلى (شـعبان) وكأن عقـارب السـاعة أبطـأت حركتهـا متعمـدة لتثـير أعصابـه أكـثر وأكـثر بينـما التوتـر ينهشـه كألـف وحـش مفـترس وهـو جالـس فى مكانـه عـلى مقعـد فى صالـة منزلـه متطلعًـا إلى بـاب شـقته المغلـق وقـد رسـم عقلـه عـدة سـيناريوهات سـوداء أقلهـا أن يتـم كـسر البـاب الآن أمـام عينيـه ليجـد قـوات الأمـن أمامـه يترأسـهم اليوزبـاشى (كامـل مدكـور) الـذى سـيتقدم منـه مبتسـمًا بظفـر ويقـول:

- ها قد وقعت أيها الشقى .. ألم أقل لك أن لكل شئ نهاية.

ثـم سـيقتادوه إلى زنزانـة مظلمـة منتظـرًا حبـل المشـنقة الـذى سـيتأرجح فـوق رقبتـه ليبقـى أمامـه أختيـارًا مـن أثنـين إمـا الصعـود عـلى طبليـة المشـنقة والأعـدام وإمـا أختيـار الحـل الآخـر الـذى أرتضـاه (أسـتيفانوس) لنفسـه.

عابثـت مخيلتـه صـورة (أسـتيفانوس) منتحـرًا وقـد لوثـت الدمـاء جسـده وغطـت بلونهـا الأحمـر القـانى عـلى بيـاض شـعره الـذى ظـل يـرثى سـنواته التـى شـاب فيهـا فهـز رأسـه بقـوة نافضًـا عنهـا تلـك الأفـكار والصـور البشـعة وأخـذ يُعيـد ترتيـب الأمـور مـرة أخـرى وربمـا للمـرة الألـف فى رأسـه وقـد أيقـن فى كل مـرة فيهـا أن النهايـة تقـترب وأن بقـاؤه هنـا منتظـرًا معنـاه الأنتحـار وأيقـن أيضًـا أن الحلـول المتاحـة أمامـه ليسـت كثـيرة فهنـاك حـل أن يـترك كل شـئ خلـف ظهـره ويهـرب ليبـدأ حيـاة جديـدة فى مـكان جديـد بعيـدًا عـن كل هـذا المـوت أو أن يتعـاون صاغـرًا مـع الشرطـة وتحديـدًا مـع الضابـط (كامـل) ويسـلم لهـم (محمـود) عـلى أمـل أن يتجنـب هـو توجيـه أتهامـات لـه فى حـين تُلقـى

التهم كلها على عاتق الشاب الغريب فتنتهى الأمور على خير.
حسم قراره داخل عقله بعدما تأكد أن بقاؤه منتظرًا أكثر من هذا سيزيد من مساحة الخطر حوله وسيعود عليه بأذى لا يمكن أن يحتمله ..
نهض من مقعده بغتة وأتجه ناحية غرفة نومه الذى كان يتجنبها منذ مقتل (درية) فسحب حقيبة السفر الكبيرة من أعلى صوان الملابس وبدأ فى ترتيب حاجياته بداخلها حتى صك مسامعه صوت طرقات قوية على باب الشقة فأقشعر بدنه وأرتجفت كل ذرة فيه ودون أن يدرى وجد نفسه يتلفت حوله فى هلع يبحث بعينه عن مكان يصلح للهرب منه بينما أستمرت الطرقات تخرق عقله وتحجب عنه أى فرصة للتفكير فأخذ يقترب بحذر من الباب وأصاغ السمع للحظة قبل أن يهتف متسائلًا بصوت مذعور:
- مَن؟
جاءه الصوت من الخارج ليجعله يلتقط أنفاسه التى أحتبست داخل صدره ليزفرها فى قوة حانقة حين سمع من على الجهة الأخرى مِن الباب مَن يقول:
- (محمود).
فتح الباب بسرعة وجذب (جابر) إلى الداخل ونظر بالخارج نظرة سريعة قبل أن يغلق الباب بعنف ويلتفت إلى (جابر) قائلا بحنق:
- لقد أثرت فزعى لدرجة لا تصدق يا (محمود).
قال (جابر) محاولًا التخفيف عنه:
- هون عليك فلم ينتهى أمرنا بعد.

قال (شعبان) بغضب:

- ولكننا على طريق سريع نحو النهاية .. لقد أصبح هذا أمر حتمى لا مهرب منه.

رد (جابر) بإستهانة:

- من قال ذلك .. أنه خوفك الذى يسيطر عليك.

أثارت إستهانته غضب (شعبان) أكثر فقال بحدة:

- بل أنت الذى تسير نحو حتفك بحمق .. تريد أن تتحدى الجميع ولا تخشى أن يُكشف أمرنا ونُعلَّق معًا فى حبل المشنقة.

- وهل توترك وجزعك سيحل المسألة؟

سأله (جابر) بضيق فرد (شعبان) قائلًا:

- لا .. ولكنى لن أنتظر حتى أجد رجال الشرطة يقفون بيننا .. سأهرب قبل أن يطالنى أحد وأبدأ من جديد بعيدًا عن كل هذا الرعب.

قالها وترك (جابر) واقفًا ودخل إلى حجرة نومه يكمل ما بدأه فخطا (جابر) خلفه ليجد حقيبة السفر وقد أُعدت فقال:

- لقد أعددت العدة للهرب دون أن تخبرنى.

قال (شعبان) دون أن يلتفت إليه:

- لم يعد هناك مجال لهذا الآن .. ولو كنت تخشى على حياتك أنت أيضًا لجهزت نفسك للهرب فهذا أفضل لى ولك بدلًا من أن نضطر لأن يبيع أحدنا الآخر.

أقترب (جابر) منه حتى وقف خلف ظهره مباشرة وقال بصوت صارم:

- لـن أهـرب يـا معلـم .. لقـد عشـت حيـاتى كلهـا أهـرب مـن مـكان لمكان والخـوف يلاحقنـى أينـما حللـت وكأنـه قـدر مكتـوب عـلى لذلـك لـن أهـرب مـرة أخـرى .. ولـو كان نصيبـى المـوت فليـأت وقتـما يشـاء .. لكننـى لـن أمـوت بسـهولة قبـل أن أجعـل الجميـع يدفـع الثمـن وأولهـم هـذا الضابـط الـذى يبغـى قتـلى.

قـال (شـعبان) بـلا مبـالاة وكأن الـكلام لم يقنعـه وهـو يضـع باقـى حاجياتـه داخـل حقيبـة السـفر:

- هذا شأنك يا (محمود) .. لكنى أنا أكتفيت.

- بالمناسبة أسمى ليس (محمود).

توقف (شعبان) وترك ما بيده ليلتفت إلى (جابر) مرددًا فى دهشة:

- ليس (محمود).

أومأ (جابر) برأسه إيجابًا وقال:

- نعم .. أسمى الحقيقى هو (جابر) .. (جابر عبد الحميد وهدان).

تساءل (شعبان) بحذر:

- ولم تخبرنى بهذا الآن؟

أجاب (جابر) فى بساطة:

- لن تضيرنى معرفتك فى شئ مادمت مغادرًا.

ثم أبتسم أبتسامة قاسية بركن فمه مكملًا:

- أليس كذلك؟

تصاعـد الشـك بداخـل (شـعبان) مـن لهجـة (جابـر) التـى بـدا وكأنهـا تقطـر قسـوة وحقـدًا فبـدأ يتراجـع بظهـره للـوراء قليـلًا موسـعًا المسـافة بينـه وبـين الأخير حتـى أصطـدم ظهـره بحافـة الفـراش فقـال بتوتـر:

- خـذ نصيحتـى يـا (جابـر) وأهـرب مـن هنـا قبـل فـوات الأوان وسـأعطيك مـالًا يكفيـك حتـى تبـدأ مـن جديـد.

قال (جابر) بغموض:

- لم يعد لأمثالى بداية من جديد .. أنا أكتب نهايتى الآن.

قالهـا وقفـز بقـوة تجـاه (شـعبان) وهـو يخـرج سـكينًا كبـيرًا مـن أسـفل قميصـه وأولجـه بـكل قوتـه فى صـدره حتـى مقبضـه فجحظـت عينـا (شـعبان) بـألم غـير مصـدق وأندفـع للأمـام قبـل أن يخـر دفعـة واحـدة عـلى ركبتيـه وهـو يجاهـد ليلتقـط أنفاسـه وقـال بذهـول:

- أيها ال ..

أقترب منه (جابر) وجثا أمامه على ركبتيه وهو يقول:

- لا تنس أن تُبلغ سلامى ل(طلبة) فستجده بأنتظارك.

أزداد جحـوظ عينـا (شـعبان) وهـو يسـتمع إلى كلـمات (جابـر) الـذى مـد يـده وأنتـزع السـكين بعنـف مـن صدر (شـعبان) ودار حولـه ليقبع خلـف ظهـره ويطبـق بكفـه عـلى فمـه وبـبرود قاتـل محـترف حـز عنقـه بحـد السـكين حتـى أنهمـرت أنهـار مـن الدمـاء لتغـرق كل شـئ فمسـح (جابـر) سـكينه وأخفـاه مـرة أخـرى بـين طيـات ثيابـه وألقـى نظـرة أخـيرة عـلى (شـعبان) الـذى أنكفـأ عـلى وجهـه فى الأرض وقـد فـارق الحيـاة ثـم عـلى الحجـرة التـى شـهدت أيامًـا بينـه وبـين (دريـة) قبـل أن يقـول بحسـم:

- الموت قدرى منذ مولدى أحمله أينما أحل.

قالهـا وعقلـه يرسـم صـورة (كامـل مدكـور) فى زيـه الرسـمى ثـم غـادر المـكان صافقًـا البـاب خلفـه ليكمـل مسـيرته المحتومـة نحـو المـوت.

*****

الفصل التاسع والعشرون

أنعزلـت (هـدى) عـن أسرتهـا بالكامـل وجلسـت وحيـدة فى غرفتهـا عـلى طـرف سريرهـا تتطلـع إلى ولدهـا (حسـين) ذو الثـلاث سـنوات الـذى غـرق فى نـوم عميـق هـادئ فمسـحت بكفهـا عـلى رأسـه فى حنـان وقالـت لـه شـاكية والدمـوع تترقـرق فى مقلتيهـا:

- أرأيت يا (حسين) كيف لم يسأل عنا والدك ولو مرة واحدة.

جاوبهـا تنفسـه المنتظـم وملامحـه الهادئـة التـى تشـبة ملامـح والـده إلى حـد كبـير فمالـت تطبـع قبلـة حانيـة عـلى خـده فى اللحظـة التـى فُتـح فيهـا بـاب الغرفـة ليدخـل والدهـا ويجلـس بجانبهـا قائـلًا فى حنـان:

- لقد غرق فى النوم.

قالهـا وهـو يتطلـع إلى (حسـين) فهـزت (هـدى) رأسـها وقالت بإبتسـامة حزينة:

- ظـل يسـأل عـن والـده بكلماتـه المتعـثرة حتـى أستسـلم أخـيرًا للنـوم .. لكـن بعـد أن شـق قلبـى بكلماتـه.

- إلى متى يا أبنتى ستبقين على هذا الوضع؟

هـزت (هـدى) رأسـها مـرة أخـرى وهـى تطـرق بهـا إلى الأسـفل فى أسى قائلـة:

- وماذا بيدى لأفعله؟

- بيـدك الكثـير يـا أبنتـى .. بيـدك أن تحافظـى عـلى زوجـك وبيتـك وألا تذيقـى أبنـك مـرارة بعـده عـن والـده أكـثر مـن ذلـك.

ردت (هدى) بحنق:

- أنـه حتـى لم يفكـر فى السـؤال عنـا ولـو مـرة واحـدة .. حتـى (حسـين) لم يفكـر فى السـؤال عليـه وكأنـه ليـس ولـده الوحيـد.

- أنت تعرفين طبيعة عمله وهذا أمر ليس جديدًا عليك.

صاحت بغضب:

- ولكننى أكتفيت يا أبى .. أكتفيت.

ومدت يدها تمسح دموعها التى سالت على وجهها وقالت مكملة:

- أننـى أصبحـت أخـشى الحيـاة معـه رغـم كل شـئ .. رغـم حبـى الشـديد لـه أشـعر أن نهايتـى معـه تقـترب منـى بشـدة .. لا أدرى يـا أبى لكـن أحسـاس عـارم يسـيطر عـلى بـل يـكاد يطبـق عـلى رقبتـى بـأن كل شـئ سـينتهى قريبًـا .. سـينتهى أسرع حتـى مـن خاطـرى.

قالتهـا وأنهـارت فى البـكاء فأحتواهـا والدهـا فى صـدره بأرتيـاع وقبّـل رأسـها فى حنـو فلـم يكـن يتوقـع أبـدًا أن تصـل الأمـور بأبنتـه إلى هـذا الحـد .. بـل لم يكـن يتخيـل أن يصـل بهـا مـدى اليـأس إلى درجـة تصـور المـوت قابعًـا ينتظرهـا كـما تعتقـد هـى .. لذلـك ربـت عـلى ظهرهـا ومسـح عـلى رأسـها وقـال مواسـيًا ومحـاولًا بعـث الأمـل بداخلهـا مـن جديـد:

- أنـت لازلـت فى أول شـبابك ولديـك ولـدك بجانبـك ولديـك أيضـاً زوج يحبـك كـما تحبيـه فـلا تدعـى اليـأس يسـتولى عـلى حياتـك ويبـدد

فرحتك ويقتل كل فرحة قد تنير حياتك وحياة من حولك.

قالت بعناد:

- ولكنه لم يذكرنا حتى الآن .. كيف يكون هذا حبًا.

قال والدها بحكمة مفسرًا:

- أنت لا تعلمين الغيب يا (هدى) .. ربما حبه لك ولولده هما السبب فى بعدكما عنه حتى الآن فربما يخشى عليكما من وجودكما بجواره فى هذا الوقت فلا أحد يدرى ولا حتى أنت ما هى ظروف عمله الآن .. وزوجك كما تعلمين ضابط كفء دائمًا ما يكلف بالقضايا الصعبة ثقة منهم فى قدراته وأداؤه وهذا يستدعى منا جميعًا مراعاته والصبر عليه.

تطلعت إلى وجه والدها للحظة أشرق فيها وجهها قبل أن تقبّله على جبينه قائلة:

- أنت حقًا نعم الأب يا أبي ويا ليت زوج أبنتك يعلم كم تحبه.

قالتها ونهضت فسألها والدها قائلًا:

- إلى أين؟

أبتسمت وهى تُجيب قائلة:

- سأذهب لشراء هدية ل(كامل) ثم سأضعها فى البيت دون أن يدرى حتى يجدها عندما يعود من عمله فى المساء.

أبتسم لها والدها مشجعًا وقام يغادر الغرفة مفسحًا المجال لها لتبدل ملابسها ولم تمض دقائق حتى كانت (هدى) تسير فى شوارع الأسكندرية تبحث بعينها بين الأشياء المعروضة فى واجهات المحلات التجارية عن هدية تصلح لزوجها دون أن تدرى بزوج الأعين اللتان

تتبعانها منذ غادرت منزل والدها حتى الآن.
كان (جابر) قد عمل منذ فترة على جمع أكبر قدر من المعلومات عن اليوزباشى (كامل مدكور) وكل ما يخصه وذلك عن طريق رشوة عدد من المخبرين والعاملين معه فى دائرة الأمن العام حتى عَلِم عن زوجته ومنزل والدها الذى لجأت إليه بعد مشاجرتهما سويًا كما أخبره حارس العقار الذى تسكنه فقرر أن تكون هى هدفه ونقطة الضعف التى سيستخدمها ليجعل (كامل) يأتى إليه حيث هو وينفذ ما ينتظره منه رغمًا عنه.
لذا ظل (جابر) يتبعها وقد عقد العزم على أن ينتظر عودتها إلى بيت والدها ليقابلها قبل أن تصله وكان قد بحث عن عنوانها حتى وجده .. لكن لدهشته وجدها تحمل هدية صغيرة وتسير بها إلى منزل (كامل) ففهم ما هى مقدمة عليه وسارع ليلقاها قبل أن تصل إلى مدخل العمارة وقال بصوت أراد أن يحمل أكبر قدر من الأنزعاج:
- لو سمحتى يا سيدتى.
التفتت له (هدى) فسأل:
- هل اليوزباشى (كامل مدكور) يسكن هنا؟
أجابت وقد أرتفع حاجباها فى دهشة:
- نعم .. أنه يسكن هنا.
قالتها وأشارت نحو مدخل العمارة قبل أن تسأل هى فى لهفة:
- هل هناك شئ ما .. أنا زوجته؟
أجابها (جابر) وهو يرسم على وجهه ملامح الأسى:

- لقد كان يداهم وكر السفاح الذى يثير ذعر الناس فى الفترة الأخيرة لكنه أُصيب بطلق نارى فى موقع الحادث وأول شئ طلبه هو إحضارك إليه.

صاحت (هدى) فى هلع وهى تُلقى ما بيدها:

- (كامل) .. خذنى إليه أرجوك.

قادها (جابر) إلى مكان بيته بعد أن أستقلا سيارة أجرة حتى ميدان محطة القطار وبعدها سارا بخطى تشبه العدو حتى وصلا إلى بيته فأشار لها قائلًا:

- أنه بالداخل.

أندفعت (هدى) بكل جوارحها عبر المدخل المظلم ولم تلتفت لسكون المكان من فرط لهفتها لتجد نفسها تحدق فى غرفة فارغة .. فحاولت الألتفاف لتسأل من أحضرها عن مكان زوجها لكن المحقن الذى أنغرس فى عنقها واليد التى أطبقت عليها من الخلف كانتا أسرع من ردة فعلها فحاولت المقاومة قدر إستطاعتها لتجد الأرض تميد من تحت قدميها و حوائط الحجرة تدور بها قبل أن يظلم كل شئ فى وجهها وتسقط تحت قدمى (جابر) فاقدة الوعى.. فى عرين السفاح.

*****

ظل (كامل) جالسًا فى مكتبه يتطلع إلى جهاز الهاتف على مكتبه بلهفة وقلق ولم يحتمل الجلوس فقام من مكانه ليذرع أرجاء الغرفة جيئًا وذهابًا كأسد حبيس يبحث عن ثغرة واحدة للهروب من محبسه .. ثغرة تعتمد على مكالمة تليفونية ينتظرها على أحر من الجمر لدرجة أنه كاد يقفز فى الهواء حين دق جرس الهاتف فأندفع ليرفع السماعة بلهفة قائلًا:

- مَن؟

أتاه صوت محدثه فقال:

- قل لى أنك حصلت على المعلومات التى طلبتها.

أتاه صوت (إبراهيم) يقول بحماس:

- بالطبع حصلت عليها وإلا ما فكرت فى السفر إلى أسيوط بنفسى.

فسأل (كامل) بلهفة:

- وماذا لديك؟

أجاب (أبراهيم) وحماسه يتزايد:

- بالفعل عثرت على منزل (طلبة الشحات) هذا وسألت عن أصدقاؤه ليبلغنى أقربهم إليه ويدعى (مرزوق) أنه بالفعل قد سافر إلى الأسكندرية ولم يعد منذ شهور ولكن عندما سألته عن وجهته تحديدًا فى الأسكندرية كانت المفاجأة ..

صمت لحظة ليزيد من شوق (كامل) قبل أن يُجيب:

- لقد ذهب لمقابلة (شعبان جودة) زوج المختفية الثانية (درية رضوان).

أتسعت عينا (كامل) وهو يسمع هذه المعلومات وقد أحس أن

خيوط القضية تترابط وتتسق مع بعضها لكن ذلك لم يمنعه من السؤال قائلًا:

- وماذا أيضًا؟

- لقد ذهبت لمقابلة عمدة القرية ومعاون الشرطة هناك وسألتهما عن أية جرائم تكون قد وقعت فى الفترة الأخيرة دون العثور على مرتكبها حتى الآن ليكون جوابهما واحدًا وهو أن هناك جريمة قتل وقعت منذ أكثر من عام بطلها شاب صغير قتل أمه خنقًا وشنق عمه وذبح أخوته الصغار قبل أن يفر هاربًا ولم يعثر له على أثر حتى الآن.

سأل (كامل) وهو يدون هذه المعلومات أمامه:

- صفه لى؟

أجاب (إبراهيم) وقد تأكد من أهمية ما حصل عليه:

- أنه شاب لم يتجاوز العشرين من العمر ذو بشرة فاتحة وعينان خضراوان وشعر بنى.

ثم أكمل كمن تذكر فجأة:

- وأكثر ما يميزه ندبة غائرة على جبينه.

كادت السماعة تسقط من يد (كامل) من فرط الحماس لكنه سأل سؤالًا أخيرًا قائلًا:

- وما أسمه؟

- (جابر) .. (جابر عبد الحميد وهدان).

قالها فشكره (كامل) جزيل الشكر وأعاد السماعة مكانها وعيناه تبرقان بشدة بعد أن تأكد من صدق حدسه وسلامة خطواته قبل

أن يرفـع سـماعة الهاتـف مـن جديـد طالبًـا رقـمًا داخليًـا ومـا أن سـمع صـوت محدثـه حتـى قـال:

- أريـد إشـارة عاجلـه بالقبـض عـلى (شـعبان جـودة) صاحـب المقهـى المجـاور لمحطـة قطـار الأسـكندرية وأحـد العاملـين لديـه بالمقهـى ويدعـى (محمـود) وإحضارهـما إلى مبنـى المديريـة فى الحـال.

لم تمـض دقائـق عـلى مكالمتـه وبينـما هـو يفكـر فى قانونيـة إجراءاتـه كى لا يـترك ثغـرة ينفـذ منهـا أى مـن المتهمـين حتـى دق جـرس الهاتـف مـن جديـد فرفعـه بسرعة متسـائلًا:

- مَن؟

أتاه صوت أحد ضباط الإدارة قائلًا:

- عفـوًا يـا (كامـل) بـك لكـن أمـر القبـض عـلى (شـعبان جـودة) لم يعـد ذا جـدوى الآن.

تساءل (كامل) بقلق قائلًا:

- لماذا؟ .. ماذا حدث؟

أجاب الضابط بسرعة:

- لقد عُثر عليه مقتولًا فى شقته يا سيدى.

أفقـدت المفاجـأة (كامـل) القـدرة عـلى الـكلام فأعـاد السـماعة دون كلمـة واحـدة أضافيـة وشـبك أصابـع كفيـه أمـام وجهـه بغضـب ليأتيـه صـوت طرقـات عـلى بـاب غرفتـه قبـل أن يُفتـح البـاب عـن أحـد العسـاكر الـذى دخـل وأدى التحيـة بإحـترام قبـل أن يقـدم مظروفًـا مغلقًـا كُتـب عليـه أسـم (كامـل مدكـور) وقـال:

- هذا المظروف أحضره أحد ما على البوابة وتركه بأسم سيادتك.

التقط (كامل) المظروف بسرعة وفضه ليجد بداخله ورقة مطوية بعنايه ما أن فتحها وقرأ ما فيها حتى قبض عليها بكل قوته وبغضب صارخ والتقط سلاحه ثم أندفع مغادرًا المكتب عدوًا وسط دهشة العسكرى الشديدة دون أن يدرى أن الجملة الوحيدة التى كُتبت فى الورقة التى تلقاها (كامل) هى ما جعلته ينطلق بكل هذه السرعة بل ويمكنها أن تجعله يطير لو أمكنه فقد كانت الجملة تقول:

- القادمة هى زوجتك.

وبكل ما بداخله وبكل ما يعتمل داخل نفسه من غضب ومرارة ظل (كامل) يصرخ بأسم (هدى) وهو يعدو كالمجنون نحو المكان الوحيد الذى سيطر على عقله فى هذه اللحظة ..

نحو بيت (جابر).

*****

الفصل الثلاثون

ببطء شديد ووسط صداع رهيب يدق رأسها بلا رحمة .. أفاقت (هدى) من غيبوبتها وفتحت عينيها تستكشف ما حولها والضباب المحيط بعقلها ينجلى رويدًا رويدًا لتستعيد صفاء ذهنها وتجد نفسها مقيدة اليدين خلف الظهر بحبل غليظ بينما تم تكميم فمها بقطعة قماشية منعتها من الصراخ أوالأستنجاد بمن يمكنه أن ينقذها قبل أن تسمع صوتًا من حولها يقول:

- لم يحن أوان أنقاذك بعد.

ثم أطلق ضحكة قوية وهو يكمل:

- هذا لو حان.

أتسعت عيناها فى هلع وحاولت بشتى الطرق التملص من القيد المحيط بيدها واللثام الذى يلتف حول فمها لكن دون جدوى أو فائدة تذكر لتزداد ضحكات (جابر) فى أستمتاع مجنون بينما هى تصرخ بصوت مكتوم ودموعها تنساب على خديها من فرط الرعب وصورة ولدها (حسين) وزوجها (كامل) لا تفارقان مخيلتها.

أقترب (جابر) منها ليجد دموعها تنساب فحاول مد يده ليمسح دموعها لكنها دفعت نفسها دفعًا لتبتعد عنه فقال بصوت هادئ:

- لا تخافى .. سوف أحنو عليك وأريحك من هذه القذارة التى

نحياهـا.

كانـت كلماتـه وملامحـه توحـى بمـا لا يـدع مجـال للشـك أنـه مجنـون قـد فقـد عقلـه تمامًـا لذلـك كادت عيناهـا تخرجـان مـن محجريهـما مـن شـدة الأرتيـاع حـين وجدتـه يمـد يـده ليتحسـس جسـدها .. فظلـت ترفـس بقدمهـا وتطيـح بهـا ناحيتـه حتـى أصابـت وجهـه بمنتهـى القـوة فتراجـع إلى الخلـف بغضـب يتحسـس أنفـه التـى سـال منهـا الـدم قبـل أن تتحـول ملامحـه كلهـا إلى الوحشـية الشـديدة وينقـض عليهـا مكيـلًا لهـا الصفعـات حتـى كادت تفقـد وعيهـا مـن شـدة الألم ثـم بـكل عنـف أخـذ يمـزق ملابسـها مـن عليهـا ويعريهـا تمامًـا كـما فعـل مـع (مادلـين) مـن قبـل .. (مادلـين) التـى أراد أن ينالهـا قبـل موتهـا.

بعـد أن أنهـى مهمتـه أبتعـد عنهـا يتطلـع إلى جسـدها العـارى بشـبق بينـما ضمـت هـى فخذيهـا وثنـت ركبتيهـا لتضـم سـاقيها إلى صدرهـا متخـذة وضـع الحنـين لتحمـى نفسـها حتـى أقـترب هـو منهـا مـرة أخـرى ليتحسـس جسـدها .. لحظتهـا هاجـت بشـدة ودفعـت بقدميهـا تـزود بهـا عـن نفسـها فأصابتـه مـرة تلـو الأخـرى حتـى أصابـت بكعـب قدمهـا بمنتهـى القـوة أنفـه مـن جديـد فـأزدادت الدمـاء التـى تنـزف منهـا غـزارة

ففقـد كل قـدرة لـه عـلى الصـبر وقفـز فوقهـا ويديـه تطبقـان عـلى عنقهـا وهـو يقـول بمقـت:

- جميعكن تدعون الفضيلة لتخفين القذارة الساكنة بداخلكن.

ثم أعتصر عنقها بقوة وغل وهو يُكمل قائلًا:

- ياله من زيف.

فى نفس الوقت كان (كامل) يعدو كالمجنون وقد تحول لآلة عدو والناس تتطلع إليه فى تعجب حتى وصل إلى بيت الحاجة (فردوس) فعبر مدخله بسرعة وبكل قوته ركل باب غرفة (جابر) فأنفتح على مصرعيه وقد تحطم رتاجه الداخلى بعنف فشهر (كامل) سلاحه وأندفع إلى داخل الغرفة قبل أن يقف ناظرًا عبر فضاء الغرفة الفارغ حتى توقف بصره على باب الحجرة الأخرى الموارب فأقتحمه بقوة ليجد (جابر) واقفًا فى أستسلام وأمامه حفرة عميقة حفرها للتو وبجانبها صندوق صغير مغلق بقفل أصغر و ..

هنا أتسعت عيناه فى أرتياع وذهول وأرتعشت ملامحه كلها بغضب كاد يفجر الغرفة ومن فيها وهو يشاهد (هدى) وقد رقدت بجواره جثة هامدة عارية تمامًا.

لثوان ظل الموقف جامدًا حتى قطعه (جابر) الذى أخذ نفسًا عميقًا وقال فى بطء مستسلم:

- أخيرًا وصلنا إلى لحظة النهاية.

قال (كامل) بغل كاد يُفقده عقله وهو يصوب سلاحه تجاه (جابر):

- أيها الوغد المريض.

جثا (جابر) على ركبتيه على حافة الحفرة التى صنعها أمام (كامل) وهو يرد بهدوء شديد:

- كلنا مرضى .. كلنا قتلة وكلنا ضحايا.

كانت سبابة (كامل) تكاد تعتصر زناد المسدس لتفرغ طلقاته فيه لكن يده توقفت مما حدا ب(جابر) أن يهتف به:

- هيا أقتلنى .. ماذا تنتظر؟

قال (كامل) وصدره يعلو ويهبط بشدة ودموعه تسيل على وجهه وجثة (هدى) ترقد أمامه وصورة ولده (حسين) ماثلة أمام عقله:

- القانون سينتقم منك على كل جرائمك وسأراك ماثلًا أمام عينى متدليًا من حبل المشنقة أيها القذر.

أبتسم (جابر) فى مرارة وقال:

- تحدث كما شئت لكنك لم تعش ما عشته ولم تمر بما مررت أنا به.

صاح (كامل) بغضب:

- لا تبرر أفعالك أيها القاتل .. لا يوجد سبب واحد يجعلك تقتل كل هؤلاء البشر .. تقتل النفس التى حرم الله قتلها .. حتى أمك وعمك وأخوتك الصغار لم ترحمهم.

- إذن فأنت تعلم من أنا .. على العموم أنا أعلم أن حياتى أنتهت منذ فترة طويلة فقط كنت أنتظر اللحظة المناسبة بعد أن أكون حققت أنتقامى كاملًا.

صرخ (كامل):

- أنت مجنون .. مجنون.

- نعم أنا مجنون وكلنا أصبحنا مجانين.

ثم التقط نفسًا عميقًا ونظر إلى (كامل) قائلًا بمقت:

- تحاسبنى على قتل مَن .. أمى وعمى .. اللذان خانا أبي على سريره أمام عينى وتآمرا على قتله معًا .. على قتل (طلبة) الذى شارك عمى التآمر على أبي وأتى ليساومنى على أرضى .. على (مادلين)

و(كمال) اللذان تلاعبا بى وكأنى حيوان بلا مشاعر ليحققا أغراضهما .. على (أستيفانوس) الذى سخَّر أبنته لتتلاعب بى ليُهرب البضائع ويُخالف القانون .. على (سليم) الذى عذب وقهر الجميع ليشعر أنه سيد بلا منازع .. أم على (شعبان) الذى تاجر فى الممنوعات لسنين طويلة وشاركنى فى قتل زوجته.

صرخ (كامل) فى جنون:

- وزوجتى ماذا جَنَت لتقتلها؟

- زوجتك ضحية مثلما كان أبى وكما كنت أنا منذ طفولتى وحان الوقت لتأخذ أنت بثأرها.

لم يستوعب (كامل) منطقه المريض لذا قال:

- نحن لسنا فى غابة يا (جابر) ليأخذ كل منا ثأره بيده .. هناك قانون يحكمنا.

- أى قانون؟ .. يجب أن تفهم أن كلنا نتشابه .. أنا قَتلت أنتقامًا ممن خانوا أبى و(شعبان) قَتل أنتقامًا من زوجته لأنها خانته و(سليم) قُتل لأنه خان أمانه عمله وتجبر و(مادلين) قُتلت لأنها خانت حبى لها حتى (أستيفانوس) عندما لم يجد من يقتله قَتل نفسه .. أترى كلنا نتشابه وكلنا قتلة.

هز (كامل) رأسه وقال بإصرار:

- هذا لا يشملنى.

حدق (جابر) فيه لفترة قبل أن يهز رأسه قائلًا وعلى شفتيه أبتسامة قاسية:

- معك حق فأنت رجل قانون .. لكن قانونك هذا لن ينفى

أستمتاعى بها قبل أن تموت.

- كفى.

صرخ بها (كامل) بينما مد (جابر) يده ليعابث ثدى (هدى) وهو يُكمل:

- ولن يمحى بصماتى التى أنطبعت على كل جزء من جسدها لتصحبها فى قبرها.

- كفى أيها القذر.

صرخ بها (كامل) مرة أخرى وقد طار عقله فأبتسم (جابر) بقسوة أكثر وهو ينهى قائلًا:

- حتى فرجها سيذكرنى أنا .. وليس أنت.

- كفاااااااا.

وأنقض (كامل) عليه ليُلقى مسدسه بعيدًا ويلتقط الرفش الذى حفر به (جابر) الحفرة وخُيل إليه أنه سمع تنهيدة أرتياح من (جابر) قبل أن ينهال به مرة وثانية وثالثة على رأسه وهو يصرخ بجنون حتى تهشمت جمجمته وأختلطت دماؤه بعظامه ليسقط فى الحفرة كالحجر بينما وقف (كامل) يلهث بقوة ودموعه تغرق وجهه ومن حوله جثة (هدى) وجثة (جابر) التى حملت بسمة لاتزال على وجهه وكأنه أستراح بعد طول معاناة وبعد أن حقق مبتغاه بأن جعل الجميع قتلة مثله.

*****

لفترة طويلة ظل (كامل) يبكى بحرقة ودموعه تُغرق وجهه وهو يحتضن جثمان (هدى) بين ذراعيه قبل أن يُقبل رأسها قائلًا بأسى:

- سامحينى يا حبيبتى .. سامحينى يا شريكة عمرى لقد أضعتك بغبائى وجهلى وكبريائى الأحمق .. سامحينى أرجوك.

أستمر يقبلها ويعتذر منها فى ذهول كاد يُفقده عقله ثم نظر فجأة إلى عريها وكأنه يراه لأول مرة فعض شفتيه فى ألم ونظر حوله يبحث عن شئ يسترها به فلم يجد فوضعها بحرص على الأرض ثم أندفع بسرعة خارجًا إلى الغرفة الأخرى وجذب ملاءة السرير وهم بالعودة بها إلى زوجته .. لكنه توقف فجأة وهو يحدق فى (أنتصار) التى وقفت على الباب وعيناها متسعتان فى خوف ذاهل فأقترب منها ببطء خشية أن تفر منه هاربة وقال:

- الأمر ليس كما تظنين.

سألته بصوت راجف:

- هل .. هل قتلته؟

أومأ برأسه إيجابًا وقال:

- كان لابد من هذا .. لقد قتل الكثيرين من قبل والآن قتل زوجتى.

قالها وخفض عينيه فى ألم فعادت تسأله من جديد:

- وماذا ستفعل الآن؟

أجاب فى تصميم:

- سأخرجها من هنا مهما كلفنى الأمر حتى لو دفعت حياتى ثمنًا لهذا.

ثم مسح دموعه وتركها ليغلق الباب الخارجى ويعود للغرفة

الأخـرى حيـث (هـدى) التـى تمـددت عـلى الأرض فدثرهـا بالمـلاءة ولفهـا بحـرص ثـم التقـط الرفـش الـذى غـرق بالـدم وركل الصنـدوق الصغـير ليُسـقطه بداخـل الحفـرة العميقـة قبـل أن يُهيـل الـتراب لـيردم الحفـرة ويسـويها بـالأرض كـما كانـت و(أنتصـار) تتابعـه مـن عـلى بـاب الحجـرة حتـى أنتهـى ثـم حمـل زوجتـه والرفـش والتقـط مسدسـه وأعـاده لجرابـه ولم ينـس ملابـس (هـدى) الممزقـة وخـرج ليُغلـق بـاب غرفـة (جابـر) للأبـد بقفلهـا الحديـدى ويهـرب متسـتراً تحـت جنـح الظـلام.

*****

الفصل الحادى والثلاثون

أغلـق (شريـف) دفـتر مذكـرات جـده ومسـح دمـوع أنسـابت مـن عينيـه دون أن يشـعر ونظـر عـبر النافـذة التـى أضـاءت بنـور الشـمس التـى أشرقـت قبـل أن يُعيـد الدفـتر لمكانـه ويُغلـق نـور الحجـرة ثـم غسـل وجهـه وتوجـه للمستشـفى ليطمـئن عـلى جـده ومـا أن وصـل إلى هنـاك حتـى وجـد والـده وقـد غفـا عـلى مقعـد الأسـتقبال متدثـرًا بمعطفـه فلـم يشـأ إيقاظـه وتوجـه لغرفـة جـده ليفاجـأ بأمـرأة عجـوز تقـف خلـف شـباك الغرفـة الزجاجـى وتتطلـع إلى جـده الراقـد فى وهـن عـلى سريـره والخراطيـم متصلـة بجسـده الضامـر فأقـترب منهـا وقـال فى خفـوت:

- حاجة (أنتصار).

التفتت إليه ومسحت دموعًا ترقرقت فى عينيها وقالت:

- أعلم أنك تستعجب وجودى هنا الآن.

هز (شريف) رأسه نفيًا وأبتسم لها قائلًا:

- لا .. لقد قرأت مذكرات جدى وعلمت كل شئ.

نظرت له فى دهشة فأستطرد قائلًا:

- علمـت كيـف سـاعدتيه وتسـترت عليـه ولمـاذا ظللـت تشـهدين مـن يومهـا وحتـى جئـت أنـا إليـك أنـك شـاهدت (جابـر) وهـو يحمـل

حقيبـة سـفره مغـادرًا المنطقـة بـلا رجعـة.

أبتسمت فى حزن وقالت وهى تُعيد بصرها إلى حيث يرقد جده:

- لكنـك لم تعلـم أن جـدك ظـل يرعـانى لسـنوات حتـى بعـد وفـاة أمـى جـراء مرضهـا ولم ينسـنى ولـو للحظـة واحـدة وكأننـى أختـه الصغـيرة.

ثم كفكفت دمعة فرت من عينها مكملة:

- أكرمه الله.

قالتهـا وربتـت عـلى كتفـه فى حنـو وغـادرت المـكان بخطـوات متثاقلـة بينـما دخـل هـو إلى جـده وجلـس بجانبـه عـلى طـرف السريـر ففتـح هـذا الأخـير عينـاه وتعلقـت بوجـه (شريـف) ثـم أبتسـم قائـلًا بوهـن:

- أننى أرى ملامحى فى وجهك وكأننى أنظر عبر مرآة.

أبتسم (شريف) بدوره وأنحنى يقبل يد جده وقال:

- أنا مجرد صورة من أصل جميل.

- حتى بعد ما علمته؟

قالها (كامل) متسائلًا فأجاب (شريف) قائلًا:

- مـا قرأتـه زاد أحترامـى وتقديـرى لـك يـا جـدى وعـلى قـدر مـا كشـف لى أشـياء كانـت خافيـة عنـى فأننـى تعلمـت منـك الكثـير يـا مُعلمـى.

تردد (كامل) للحظات التقط فيها نفسه بصعوبة وقال:

- عندى لك رجاء يا (شريف).

قال (شريف) بسرعة وبصدق:

- أؤمرنى يا جدى.

- لا تكابـر يـا ولـدى .. لا تكـرر خطئـى الـذى ظللـت عمـرى كلـه نادمًـا عليـه وأدفـع ثمنـه حتـى الآن.

- تقصد (جميلة).

- لا تتركهـا بعيـدًا عنـك أكـثر مـن ذلـك .. مادمـت تحبهـا أحتويهـا وضمهـا إليـك ولا تدعهـا تبعـد عـن نظـرك مـا تبقـى لكـما مـن عمـر.

أبتسم (شريف) وربت على كف جده برفق قائلًا:

- حاضر يا جدى.

- عندى رجاء آخر.

- ما هو؟

همس (كامل):

- دع سرى يُدفن معى.

نظر له (شريف) فى تردد فقال (كامل):

- لا تنبـش فى مـاضى راح وأنتهـى ولـن تجنـى منـه سـوى الألم .. تطلـع دائمًـا إلى المسـتقبل ودع المـاضى يُدفـن مـع أهلـه .. أرجـوك.

أومأ (شريـف) برأسـه إيجابًـا فتنهـد (كامـل) فى راحـة جعلـت (شريـف) يمـد يـده داخـل جيبـه ويخـرج شـيئًا وضعـه فى يـد جـده وأطبقهـا عليـه فرفعـه (كامـل) أمـام عينيـه قبـل أن يبتسـم فى سـعادة وهـو يتطلـع إلى صـورة ولـده (حسـين) وهـو بعمـر ثـلاث سـنوات تتوسـط قـلادة ذهبيـة ..

قلادة لم ينسها رغم مرور كل هذه السنوات.

*****

حـين فتحـت البـاب لم تتخيـل أن تجـده واقفًـا أمامهـا يبتسـم .. ودون أن تشـعر وجـدت أبتسـامة سـعادة كبـيرة ترتسـم عـلى شـفتيها تحولـت إلى ضحكـة صافيـة أنـارت وجههـا حـين وجدتـه يرفـع أمامهـا قـلادة ذهبيـة تحمـل صـورة صغـيرة لزفافهـما وباقـة مـن الزهـور الحمـراء التـى تعشـقها خاصـة حـين قـال ممازحًـا:

- كل سنة وأنت طيبة .. عيد الحب الشهر القادم.

لمعت عيناها من الفرحة وقالت:

- أول مرة تُحضر لى زهور.

غمز لها بعينه وقال:

- ولن تكون آخر مرة.

أحتضنت الزهور وقالت بعتاب:

- لكنك تركتنى فترة طويلة لم تسأل فيها عنى.

داعب (شريف) خصلات شعرها وقال معتذرًا:

- كنت أحمق لأننى تركت كل هذا الحُسن يغيب عن عينى.

ثم أحتضنها وقال:

- أريـدك بجانبـى دائمًـا يـا (جميلـة) .. أننـى أحتاجـك الآن أكـثر مـن أى وقـت مـضى.

تطلعت إليه بقلق متسائلة:

- ماذا هناك؟

أجابها قائلًا:

- جـدى فى المستشـفى وأشـعر بـألم شـديد مـن أجلـه .. ألم لـن يخففـه سـوى وجـودك بجانبـى.

دفنت وجهها فى صدره وهى تقول بصدق وحب:
- سأبقى بجانبك ما بقى لى من عمر.
أحتواهـا (شريـف) بـين ذراعيـه وقبـل رأسـها بحنـان وهـو يتمتـم بخفـوت:
- صدقت يا جدى .. صدقت.

*****

قـدم (شريـف) تقريـرًا مفصـلًا إلى رئيسـه ذكـر فيـه كل المعلومـات التـى توصـل إليهـا فى أثنـاء التحقيقـات التـى أجراهـا بالإضافـة إلى مـا علمـه مـن خـلال دفـتر مذكـرات جـده لكنـه لم يذكـر فى هـذا التقريـر أى شئ يخـص جدتـه أو جـده أو حتـى الحاجـة (أنتصـار) وأكتفى بتوجيـة تهمة القتـل العمـد إلى مـن يدعـى (محمـود الصعيـدى) آخـر مـن سـكن هـذا المـكان والـذى يتوافـق وقـت سـكناه طبقًـا لشـهادة الشـهود مـع الوقت التقريبـى الـذى حـدده الطـب الشرعـى لتلـك الجرائـم والـذى هـرب منـذ تلـك الفـترة ولم يُسـتدل عـلى مكانـه حتـى الآن.
وعلى ذلك فقد أُغلقت القضية وأُعدت للحفظ.

*****

بعـد أيـام قليلـة عـلى غلـق القضيـة تـوفى (كامـل مدكـور) فى هـدوء ورقـد رقدتـه الأخـيرة فى سـلام بجـوار زوجتـه (هـدى) بمقابـر العائلـة وسـار فى جنازتـه كل أحبـاؤه وعـلى رأسـهم (شريـف) ووالـده وزوجتـه وحتـى الحاجـة (أنتصـار) التـى جـاءت تتعكـز كى تـودع صديقًـا وأخًـا

أكبر ولم ينس (شريف) أن يدفن مع جده دفتر مذكراته الأثير وقلادة ذهبية تحمل صورة بالأبيض والأسود لطفل صغير ..
مات ويده تُطبق عليها بإحكام.

*****

أتم المقاول الشهير (منصور المحمدى) إنشاء برجه السكنى الضخم الذى حلم به وظل حافظًا لفضل الرائد (شريف مذكور) الذى صدقه الوعد وأخفى عن الصحافة كل المعلومات عن ما وجدوه فى موقع البناء حتى أنه أستقطع جزء من الأرض وتحديدًا الجزء الذى شهد كل هذه الأحداث وأقام عليه مسجد كبير حضر (شريف) أفتتاحه ..
أسماه (منصور) .. مسجد الهدى .. بناءً على طلب (شريف).

تمت..